

فى ظلال المؤثرات الإسلامية

تأليف

د.عبد الله التطاوى

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة


منتدى سور الأزبكية


mohamed khatab



حركة الشعر

فى ظلال المؤثرات الإسلامية

الدكتور
عبد الله التطاوى

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلى - القاهرة ت: ٣٥٤٢٠٧٩
فاكس : ٣٥٥٤٣٢٤

المكتبة { ١ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت: ٥٩١٧٩٥٩



مقدمة

بلغت القصيدة العربية مرحلة من النضج الفنى ودرجة عالية من الاكتمال قبل مجيء الدين الإسلامى، فقد حفظ أبناء مجتمع الجاهلية جل - أو كل - ما نظمه شعراؤه من معلقات، أو قصائد، أو مقطوعات، وظلوا يتوارثون ما يحفظون خلفا عن سلف ، واستمرت ظاهرة الحفظ أساسا لضمان بقاء ذلك الشعر إلى أن جاء عصر التدوين، ووقف الرواة عند جمع الشعر من مظانه الأولى لدى أبناء القبائل البدوية، وراحوا يدونونه ويوثقونه على نحو ما كان من المفضل الضبى، والأصمعى، وحماد الراوية، وخلف الأحمر، وغيرهم من الرواة، على اختلاف درجات الثقة فى كل واحد منهم وفى بيئته على حدة.

ولعل أهم ظاهرة تميزت بها القصيدة العربية الجاهلية أنها ظلت متوارثة عبر الشكل أو القالب الفنى، فى الوقت الذى شهدت فيه تغيرات وتحولات طبقا لطبيعة الموضوعات المختلفة التى عالجها الشعراء، فكان من أكثرها بروزا شعر المدح والفخر والهجاء والرثاء والغزل، وكذا شعر المعارك والحماسات مما صور أيام العرب الطوال، وأبرز شريعة الغزو التى سادت بين القبائل حتى كادت تهدد بعضها بعضا وتنذر بالفناء.

ومما لا شك فيه أن الشاعر الجاهلى قد وعى حقيقة موقفه حين عكس موضوعات البيئة، فصورها فى أى من موضوعات شعره، مستغلا بذلك ما هيئ له من حرية الاختيار التى ارتبطت بطبيعة المعطيات التى ألفها الشاعر فى بيئته البدوية، فكان أمينا فى صدوره عن معجمها، حتى فى أشد لحظات تمرده عليها، ولذا كان المعجم الجاهلى هو المصدر الوحيد لأولئك الشعراء ، كما كانت البيئة - بكل معالمها المرئية والمسموعة والمحسوسة - مصدرا للتصوير، والتقاط المشاهد التى استوقفت الشاعر لكى يصورها، ويتخذ منها مادة لفنه.

وكانت النتيجة الطبيعية أن استمد شعراء الجاهلية مادتهم اللغوية والتصويرية من أصل واحد مشترك، التقت فيه توجهات الشعراء، سواء منهم من كان قبليا أو متمردا على نظام القبيلة، ذلك أن نظرة سريعة إلى ديوان شاعر مثل طرفة بن العبد الذى ضاقت به القبيلة لإسرافه فى السكر وانصرافه إلى حانات الخمر، تكشف لنا عن إصراره على أن يصدر شعره من منطق قبلى لغة وصورة، وكأن أحادية المصدر قد فرضت نفسها على شعراء العصر فرضا، الأمر الذى قد نلتمس له نظيرا آخر عند صعاليك العصر الجاهلى ممن تمردوا على النظام القبلى، وحاولوا الخروج على المنهج العام للقصيدة ، وإن ظل ذلك الخروج على المنهج العام شيئًا يقابله ارتباطهم باللغة والصورة ومعطيات معجم القصيدة مما يعد موقفا آخر مختلفا تماما.

وحين نقول بأحادية المصدر فلا يعنى ذلك أن ثمة انغلاقا فرض نفسه على الشعراء، ولكنهم بدوا شديدى الاعتداد بمعجم البداوة من منطلق ولائهم له، وشدة حرصهم على الانتماء إليه، ومن ثم يبقى استثناء لابد من التنبيه إليه، يتعلق بشعراء قبليين كانت لهم صلات حضارية بحكم زياراتهم للإمارات المجاورة، فالتمسوا من مظاهرها وصور الحياة فيها بعضا من صورهم الشعرية، وإن لم يأخذوا من لغتها بشيء يستحق الذكر أو التسجيل، على نحو ما كان من اتصالات حضارية للأعشى وعدى بن زيد وعمرو بن كلثوم الذين عرفوا بصلاتهم الحضارية العميقة بإمارة الحيرة.

وهكذا ظل المعجم البدوى مسيطرا على ذاكرة الشاعر، وكأنه كان المعيار الأوحد لقياس الأصالة، والضمان المؤكد لعدم وقوع الشاعر فى براثن الزيف الفنى التى أنف منها شاعر العصر فى ظلال وحدة الثقافة التى غلبت عليه.

وعلى هذا بدا الاتجاه العام للموقف من قبل شعراء العصر متجها إلى الإغراق فى حس البداوة ، والانخراط فى ظلال صورها باعتبارها تراثا خالدا وواقعا معاشا، وكأن الشاعر راح يخشى أن يبدأ من فراغ، فإذا هو يسند ما يأتى به فى معجمه من صورة أو معنى إلى شاعر سابق، يجد فيه سنده التراثى على نحو ما عرضه قول امرئ القيس فى بيته المشهور:

عُوجَا على الطلل المحيل لأننا

نبكى الديار كما بكى ابن خذام

أو قول عنترة فى بيته المعروف أيضا فى مطلع معلقته:

هــل غــادر الشـــعـــراءُ من مـــتـــردَّم

أم هـل عـــــرفتَ الدار بـعــــد تـوهـم؟

وكذا كان ما ذهب إليه كعب بن زهير دون مواراة في تصوره لهيمنة التراث، وكأن الأول لم يترك للآخر شيئا:

مـــا أرانا نقـــولُ إلا مُـــعَـــارًا أو مُـــعـــادا من لفظنا مكرورا

فالشاعر يرتضى لنفسه ذلك ولا يأنف منه بل يعترف به، فلا مانع لديه من أن يكرر نفسه، أو يكرر أباه وغيره من شعراء العصر، ألم يُسلِّم بأن المصدر واحد مما يجعل من حقه وحق غيره أن يأخذ منه؟ ومع اتفاق المصدر يزداد احتمال هذا التكرار فى الفن؟

ويظل المعجم الجاهلى مسيطرا على ذاكرة الشاعر لا تكاد تتجاوزه - أى ذاكرته - أو تجور عليه، إلى أن يأتى المصدر الإسلامى مع انتشار الدين الجديد، وأفول نجم الجاهلية. ومع هذا المعجم يبدأ الشاعر المسلم يتوقف ، وكأنما تنبه إلى ثنائية لا يستطيع إغفال جانب منها ، فهناك تراث جاهلى كامن فى أعماقه ولا وعيه لايستطيع - بالطبع - أن يتخلص منه بين يوم وليلة ، ولا يستطيع - أيضا - أن يتنكر له أو يرفع فى وجهه راية التجاهل أو الرفض ، وأمامه أيضا معجم إسلامى جديد بدأ يردد ألفاظه ، ويتردد على صوره ، ويستمد من معجمه ولا يستطيع أيضا إغفاله لأنه يمثل الجانب العقائدى الذى يشغل فكره بنفس العمق ، بل ربما أخذ بعدا خاصا أشد عمقا وأكثر ظهورا وتأثيرا مع توالى حركة العصور الأدبية .

من هنا كان سعى هذه الدراسة إلى التعرف على طبيعة المؤثرات الإسلامية التى تركت آثارها فى موضوعات الشعر العربى القديم . حيث تتوقف عند ملامح تلك المؤثرات من منطق التحليل والتعليل ومحاولة كشف الأبعاد المتنوعة لها . ولذلك تجاوزت الوقوف عند حدود شعر الدعوة الإسلامية ، فلهذا النمط من الشعر ظروفه وملابساته ، وله أيضا موضوعاته ، وحدوده ، وله سماته الفنية الخاصة التى تميزه . ولكن هذا الدرس ينحو منحى خاصا يحاول فيه رصد معالم المعجم الإسلامى كما استوحتها القصيدة العربية ،

واستوعبها شعراؤها، وكيف استقرت تلك المعالم فى أذهان الشعراء على مدار الحركة الفكرية فى عصورها المتلاحقة ، كما يحاول الدرس أن يكشف جانباً مما أصاب القصيدة من تحَوُّل تحت وطأة تلك المؤثرات ، وكيف أثرت فيها - أيضًا - طبيعة المادة التى حدث فيها التحول ، وقد التقطها الشعراء ، فراحوا يعالجون القصيدة من خلالها بما يفى بوظائف الشعر كما فهموها وصدروا عنها .

ولعل كثيرا من الدراسات الأدبية قد توقفت أمام التيار الإسلامى ، وكيف استطاع توجيه حركة القصيدة العربية على سبيل التوظيف من أجل الدفاع عن قضايا الدين ، أو تبنى الدعاية له ، أو الانتصار لقيمه ومبادئه ، وظهرت الموسوعات الأدبية التى احتوت رصيدا طيباً من هذا الشعر على نحو ما رصدته موسوعة أدب الدعوة الإسلامية (١) التى قام على جمعها وتحقيقهاكلٌ من عبد العزيز بن محمد الزير ومحمد بن عبد الله الأطرم بإشراف الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ، وما ظهر فى الدراسات الأدبية من محاولات للتوقف عند تلك الأنماط التى وظفت فى خدمة الدعوة الإسلامية . ولعل ما اتسمت به هذه الدراسات من الجدة والكثرة ، قد يدفع إلى ضرورة الإقدام على هذه المحاولة باعتبارها استكمالا لاستكشاف جوانب التأثير الإسلامى فى كل موضوعات الشعر ، ولدى عديد من الشعراء من ذوى الاتجاهات المختلفة سواء منهم من قصد إلى الدفاع عن موقف دينى ، أو من سار فى سبل أخرى شغلته فيها الحياة ، أو قضايا مجتمعه ، أو حتى مشكلاته الخاصة ، على أن يكون المؤثر الإسلامى بمثابة الموجِّه الأول لحركته ، و هو المنعطف الذى يلجأ إليه فى فنه ، ومن ثم تبرز اتجاهات الدراسة حول طبيعة المادة التى تعامل معها الشاعر ، وكيف استطاع المعجم الإسلامى أن يفرض عليها من مؤثراته ما يسهم فى توجيهها طبقا لطبيعة الموضوع الذى يعرضها من خلاله ، واتساقا مع طبيعة المواقف التى يعيشها الشاعر ، وتناغما مع ظروف العصر وحس الحضارة ، أو ألوان السياسة التى تعرفها البيئة فى زحام التيارات المتجددة تجُدِّد الحياة الأدبية ذاتها .

من هنا يبقى لهذه الدراسة حجمها المحدود من خلال مثل هذا التناول ، والقصد إلى ذلك الرصد لتحول المؤثر الإسلامى وتجدده عبر العصور القديمة والوسيطة لعلها

---

(١) جمع وتحقيق عبد العزيز بن محمد الزير ومحمد بن عبد الله الأطرم بإشراف الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا .

تضيف جديدا إلى هذا المجال ، وإلا ظلت مجرد خطوة على الطريق ترشد إلى ضرورة استكماله وتتبع المسيرة من خلاله .

نسأل الله التوفيق والسداد فهو - سبحانه - نعم المولى ونعم النصير.

﴿ ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ .

صدق الله العظيم

عبد الله التطاوى

القاهرة ١٩٩٧



الفصل الأول

طبيعة المؤثرات ومقوماتها فى فترة صدر الإسلام

(١) فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) فى عصر الراشدين رضى الله عنهم .

(٣) طبيعة المعجم وموقف الإسلام من الشعر .

(١)

بدأت المزاوجة المعجمية تفرض نفسها على الشعراء المخضرمين . وبدأت الألفاظ الإسلامية والصور تتناثر بين الأبيات فى شعر تلك المرحلة التى بدت ذا طبيعة خاصة تميز بها شعراؤها خاصة منهم شعراء المدينة المنورة ، إذ غلب على معظمها عنصر التقرير أكثر من التصوير ، وكثرت الصياغة المباشرة حتى غلبت على إبداعهم ، وكأنما جاءت التقارير ضرورة تتسق مع طبيعة تلقى الشعراء للفكر الدينى الجديد ، فإذا بالشاعر يدير حواره حول قضايا الرسالة ، فيذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالته ويستوقفه أمر جبريل كواسطة للوحى بين الله سبحانه وتعالى وبين رسوله عليه الصلاة والسلام، فيسجل ما يعرفه عن القرآن الكريم أو إعجازه وتشريعه ، ومن صورة النبي عليه السلام وغزواته، وموقف المسلمين من الأنصار أو المهاجرين ممن آمنوا به وآزروه، أو موقف كفار مكة ممن عاندوه وحاربوه، وبذا أدخل الشاعر من معجم الإسلام ما يتعلق بقضايا العقيدة دون أن يتوقف عند فلسفتها ، أو تلمس ما وراءها من أبعاد جدلية يناقشها أو يحللها أو يتخذها مادة لمناظرة أو حوار أو جدل، ذلك أن أبناء ذلك الجيل قد تحوّلوا عقائديا من وثنية غائمة أغرقهم ضلالها في تيه عميق من الجهل إلى ما أنقذهم به الدين الجديد منذ سلّم به منهم فريق، فآمن ونصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يشغل أبناؤه من أمرهم بجدل ، أو فلسفة رفض ، على نحو ما شغل به المشركون فى مكة، وعلى نحو ما عرضه القرآن الكريم فيما يتعلق بأسلوبه عليه السلام فى نشر الدعوة طبقا للمبدأ الإسلامى الذى هداه إليه ربه سبحانه وتعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [1] وما شهد له به الله سبحانه وتعالى من كرم الخلق وسماحته ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [2] ومن وداعة القلب ولطف المعشر فى التعامل مع جمهور البشر عامة من حوله ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ

(١) سورة النحل : ١٢٥ .   (٢) سورة القلم : ٤ .

حَوْلِكَ ﴾ [٣] أو من شدة حرصه عليه السلام على المسلمين ممن ناصروا دعوته ونصروه فكانوا ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [٤] ، وما كان منه عليه السلام فى سعة رحمته بهم ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [٥] .

ومن هذا المنطق بأبعاده المختلفة تبدو المؤشرات الأولى لانعكاسات المعجم الإسلامى من خلال شعراء تلك الفترة ، فإذا بالشاعر فى المدائح النبوية - مثلا - يتجاوز الملامح التقليدية التى رصدت فى صورة البطولة الجاهلية ، على ما قد يشوبها من عنف وعدوانية أو فوضى الغزو والثأر ، لتتحول على يديه إلى صورة منضبطة ينبثق منها الحس الإسلامى الجديد ، وينسبها الشاعر دائما إلى الله سبحانه وتعالى ، ويعرض من خلالها موقف فريق المسلمين والمشركين ، فإذا بملامح البطولة تتراءى مجسدة فى مكانة رسول الله عليه الصلاة والسلام كهادٍ للأمة وبشير بالحق على حد قول حسان بن ثابت الأنصارى :

وقال الله قد أرسلتُ عبدا
يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه
فقلتم : لا نقوم ولا نشاء [٦]

إذ يبدو الممدوح هنا بطلا من طراز خاص فهو : عبد الله ، لا يقول إلا حقا ، أتى قومه اختبارا لهم فشهد به فريق وكذَّبه آخرون ، وهى ملامح تبدو جديدة تماما فى عالم الفضيلة الذى رسمها المادح لممدوحه وأصداء موقف جمهوره منه .

وكذا كان تعبير كعب بن مالك الأنصارى أيضا :

وكان لنا النبى وزيرَ صدق ... به نهدى البرية أجمعينا [٧]

---

(٣) سورة آل عمران : ١٥٩ .
(٤) سورة الفتح : ٢٩ .
(٥) سورة التوبة : ١٢٨ .
(٦) ديوان حسان : ١٧ .
(٧) ديوان كعب بن مالك : ١٨٨ .

وكان قول كعب بن زهير بن أبى سلمى :

إن الرسول لنورٌ يُستضاءُ به — مهنَّدٌ من سيوف الله مُسْلولُ [(٨)]

إذ تبدو البطولة رهنا بعموم الدلالة على صدق رسالة البطل التى يحرص الشاعر على التصديق بها ، حتى ليبدو البطل هاديا لأمة بأكملها ، يساعده من صدق به ويرتدى معه درع البطولة ، ولكن بطولته المطلقة تظل سائدة متميزة ، ففيها نور اليقين والهداية ، وفيها قوة البطل على نشر الدعوة المسندة إليه . جهادا دينيا بالدرجة الأولى .

ويشتد حرص الشاعر على تسجيل إيمانه بالرسول صلى الله عليه وسلم من منطق الحس الغيبى ، خاصة حين يسلّم بالمبادئ العقائدية حول صدق الرسالة ، وتأكيد الإيمان بمصدرها واليقين بواسطتها ، على غرار قول حسان :

وجبريلٌ رسولُ الله فينا — وروح القدس ليس له كفاء

ومن ثم راح شاعر العصر يسجل ما يستطيع من ملامح إيمانه بالدعوة من منطق الاقتناع بها من جانب ، والخوف من عقاب الله سبحانه من جانب آخر، صوّره قول النابغة الجعدى :

أتيتُ رسولَ اللّه إذ جاءَ بالهدى
ويتلو كتاباً كالمَجَرَّة نَيِّرا
أُقيمُ علىَ التَّقْوىَ وأرْضىَ بفعلها
وكنتُ من النار المخُوفةِ أحْذَرا[(٩)]

إذ يتخذ الشاعر مادته اللفظية من : رسول الله - الهدى - الكتاب - النور - التقوى - الرضى - الحذر من النار ، فكانت الصياغة إسلامية المصدر سواء دخلت بالأبيات إلى عالم المدح أو الفخر أو غيرهما .

ومن منطلق الإيمان بأصول الدعوة الإسلامية - على هذا النحو - راح بعض الشعراء يعرض من الجوانب الدينية ما حاول طرحه فى شعره ، وهو فى ذلك لم يكن يستوحى المعانى أو الصور من معجم الجاهلية الموروث فحسب ، بل بدا المعجم

---

(٨) ديوان كعب بن زهير ١٥٠ .

(٩) شعر النابغة الجعدى ٥٧ .

الإسلامى أساسا جديدا لمادة التصوير على النحو الذى صوّره النابغة الجعدى أيضا فى قوله وقد أسقط معجمه الجاهلى تماما هنا :

الحمدُ لله لا شريك له
من لم يَقُلْها فنفسَه ظَلَما
المولج الليل فى النهار وفى الل
يل نَهاراً يُفرج الظُّلَمَا
الخافض الرافعِ السماءِ على الأر
ض ولم يبن تحتها دِعَمَا
الخالقِ البارىءِ المصور فى الأرحـ
ام ماءً حتى يصير دما
من نطفة قدَّرهَا مُقَدِّرُها
يخلق منها الأبشارَ والنَّسما
ثُمَّ عظما أقامها عَصَبُ ثُمَّ
تْ لحما كساهُ فالتأما[10]

حيث يستوحى من الدلالات القرآنية ضرورة حمد الخالق سبحانه وتعالى ، ومع الحمد يرصد ضرورة التوحيد وعدم الشرك بالله مما يقترب من كثير من معانى الآيات ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110) ﴾ [11] . وكذا من قوله تعالى ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [12] .

---

(١٠) الشعر والشعراء ٢٥٣ .
(١١) سورة الكهف : ١١٠ .
(١٢) سورة آل عمران : ٢٧ .

ومن الآية الكريمة ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ ﴾ [١٣] ، و ﴿ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [١٤] ،

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ [١٥] .

وكذا كان موقفه من الآيات التى تحكى مراحل خلق الإنسان فى مثـــل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [١٦] ومن قوله تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [١٧] .

وعلى هذا النحو كانت روح الوضوح والإبانة أشد سيطرة على أذهان شعراء ذلك الجيل ، فظهروا شديدى التأثر بقيم الدين الجديد ومعجمه ، شديدى الالتزام بمبادئه ، حتى جعلوا من شعرهم معرضا طيبا لها ، صحيح أنهم ظلوا على صلة وثيقة بالشكل الفنى للقصيدة الجاهلية ، ولكنهم لم يقصروا عن طرح القيم الجديدة من خلال ذلك الشكل – على تنوع مستوياته – بين قصائد طوال أو قصار أو مقطوعات أو حتى رجز ، وفى غير حاجة إلى تعليق شيوع التقريرية ومباشرة الأداء بما يتسق مع إيقاع الحياة الجديدة ، وطبيعة المضوعات المعالجة فى ظلالها .

فثمة فروق مؤكدة بين موضوعات كالمدح أو الهجاء مما يتطلب إعدادا خاصا يعتد فيه الشاعر بموقف المتلقى ، وبين حديث الشاعر هنا حول دينه كما لو كان ضربا من مناجاة الذات ، أو هى الرغبة فى إفهام جمهوره ووعظه ، فلا يهمه هنا أن يقف طويلا عند ملكة خياله بقدر وقوفه عند مادة معتقده .

كما يلاحظ – أيضا – على شعراء هذا الفريق أنهم ظلوا شديدى الصلة بالمصدر القرآنى ، يأخذ الواحد منهم منه بحرص شديد ، حتى ليكاد يقترب من الصياغة اللفظية

---

(١٣) سورة النازعات : ٢٨ .
(١٤) سورة الرعد : ٢ .
(١٥) سورة الحشر : ٢٤ .
(١٦) سورة المؤمنون : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .
(١٧) سورة يس : ٧٧ .

للآية ، ولا غرابة فى ذلك فى فترة لم يكن مطلوبا من أولئك الشعراء ، ولا من المنتظر لديهم أن يفلسفوا قضايا العقيدة ، أو أن يشغلوا عن تفسير الآيات القرآنية إلى تأويلها ، وخاصة أن تلك القضايا ظلت واضحة وضوح التساؤلات ، وما يليها من بيان الإجابات الشافية من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى جانب ما نص عليه من فتح باب الاجتهاد للعقل كمصدر ثالث لفهم العقيدة بعد الأخذ بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وقياس الأحكام على ضوء ما جاءا به من صيغ التشريع .

وعلى هذا النحو بدا الشاعر المخضرم واضح العقيدة وضوح لغته وشعره ، فلم يشأ أن يصل بمبادئها إلى درجات من التعقيد ، بقدر ما اكتفى بما أخذه منها عن اقتناع، مما دفعه إلى الجهاد فى سبيل الانتصار لدين الله ، وهو يصرح بذلك ويطرحه من منظور دينى محض ، يدحض به شريعة الغزو ورفض البطش التى شاعت فى الجاهلية ، فإذا بالنابغة الجعدى نفسه يرفض مطلب زوجته التى راحت تناشده البقاء خوفا عليه من الموت، فيجيبها بأنه لا عذر له إن هو تقاعس عن الخروج مجاهدا فى سبيل الله ، ومنفذا تعاليم الكتاب الكريم، يقول مبررا حتمية خروجه :

يا ابنةَ عَمِّيٍّ كتابُ الله أخْرجَنى ... طَوْعا وهل أمنعنَّ اللهَ ما فعَلا

فإن رجعتُ فَرَبُّ الناسِ يُرجِعُنى ... وإن لَحِقْت بِربى فابتَغى بَدَلا

ما كنت أعرجَ أو أعْمىَ فيعذُرنِى ... أو ضارعاً من ضنىً لم يستطِع حِوَلا [18]

وكأنا به يردد من منطق الجهاد دعوة القرآن الكريم إليه :

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [19] .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [20] .

﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ [21] .

---

(١٨) ديوان النابغة : ١٦٨ .
(١٩) سورة التوبة : ١١١ .
(٢٠) سورة البقرة : ٢١٦ .
(٢١) سورة الفتح : ٧٨ .

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ [٢٢] .

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ [٢٣] .

بل كأنه يعكس معجمه اللفظى من خلال كتاب الله ، وقد أطاع دعوته ، فكانت دافعاً لإصراره على الخروج ، ثم أطاعه مرة أخرى حين استقى منه مبرراته وإيمانه المطلق بقضاء الله وقدره .

ولا شك أن شاعر العصر بدا قانعا بما التقطه من هذا المعجم الإسلامى ، فكان امتداداً لسعادته باعتباره مسلما ، على النحو الذى صاغه لبيد فى قوله شاكرا الله على نعمة الإسلام، وقد طال به الأجل حتى أسلم :

الحمد للّه إذ لم يأتِني أجلَى

حتى كساني من الإسلام سِربالا [٢٤]

على ما فى البيت من جمال التصوير الذى جسد فيه الشاعر الإسلام وقد اكتسى سرباله قبل وفاته مما يكمل مقولة التوحيد التى رددها - إعجابا بها - رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وكذا كان ما سجله عبد الله بن رواحة فى تحذيره لأبى سفيان بن الحارث من عدم إسلامه ، وتهديده بصور العقاب الآجل والعاجل فى الدنيا والآخرة :

فأبلغ أبا سفيانَ إمَّا لقِيتَهُ

لئِن أنت لم تُخْلِص سُجودا وتُسْلِمِ

فبشِّر بخزى فى الحياة معجل

وسِربال قار خالداً فى جهنم [٢٥]

حيث استمد مادته من مؤشرات الآيات القرآنية ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ ﴾[٢٦].

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [٢٧] .

---

(٢٢) سورة النور : ٦١ .
(٢٣) سورة النساء ٧٥ .
(٢٤) ديوان لبيد .
(٢٥) ديوان عبد الله بن رواحة .
(٢٦) سورة النجم : ٦٢ .
(٢٧) سورة البقرة ١١٢ .

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ (٢٨) .

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ۝ ٥٠ ﴾ (٢٩) .

وكان مع حسان فى اتجاه واحد ضد أبى سفيان الذى صوره حسان معتديا :

هجوتَ محمداً فأجبْتُ عنه	وعند الله فى ذاك الجزاءُ
أتهجوه ولستَ له بكُفءٍ	فشَرُّكما لخيركما الفداء
هجوت مُباركًا برا حنيفا	امين الله شيمته الوفاء

فكانت مادته موزعة بين السجود والتسليم والعقاب العاجل والآجل ومشاهد جهنم وكلها - كما رأينا - منتزع من المعجم الإسلامى .

وعلى هذا النحو بدا المعجم الإسلامى معينا للشاعر على عرض القيم أو تصويرها سواء فى سياق فخره أو هجائه على السواء ، وقد تكرر الإلحاح على تصوير مبادئ العقيدة من منطق التأثر بالآيات القرآنية أيضا ، على النحو الذى رصده ابن رواحة أيضا فى قوله :

شهِدتُ بأنَّ وعد الله حقٌ
وأن النارَ مَثْوَى الكافرينا
وأن العرشَ فوقَ الماء طافٍ
وفوق العرش ربُّ العالمينا
وتحمِلهُ ملائكةٌ كِرَامٌ
ملائكةُ الإله مُقَرَّبينا (٣٠)

إذ يردد معانى الآيات القرآنية ﴿ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (٣١) .

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝ ١٧ ﴾ (٣٢) .

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (٣٣) .

---

(٢٨) سورة الرعد : ٣٤ .
(٢٩) سورة إبراهيم : ٥٠ .
(٣٠) ديوان عبدالله بن رواحة .
(٣١) سورة يونس : ٥٥ .
(٣٢) سورة الحاقة : ١٧ .
(٣٣) سورة هود : ٧ .

﴿ إنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ (٣٤) .

﴿ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ (٣٥) .

فكانت منطقة الغيبيات أشد سيطرة على الأبيات بين حديث الجنة والنار ومشاهد القيامة ، وصورة العرش ورب العرش والعالمين جميعا ، ومن حولها صورة الملائكة المقربين من خالقهم سبحانه وتعالى .

وبذا يبدو المعجم الإسلامى وقد عرف طريقه عبر موضوعات كثيرة ، فإذا به يسود وينتشر ، لينسج خيوطه من خلال كل الموضوعات التى طرقها شعراء العصر تقريبا ، ففى غير لوحات المديح أو الفخر تأتى المعانى الإسلامية بصورة مكثفة ، ففى رثاء الشعراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فى رثاء الراشدين رضوان الله عليهم تلقانا هذه الملامح المتميزة . فعند حسان نجد رثائيته فى رسول الله صلى الله عليه وسلم التى يقول فيها مستلهما معظم معانيه من المعجم الإسلامى :

بطيبة رسمٌ للنبى ومعهدُ
منيرٌ وقد تعفو الرسومُ وتهمدُ

ولا تَنْمحى الآياتُ من دار حرمة
بها مِنْبَرُ الهادى الذى كان يَصْعَدُ

وواضحُ آياتٍ وباقى مَعَالمٍ
وربعٌ له فيه مُصَلًّى ومَسْجِدُ

بها حُجُراتٌ كان ينزلُ وَسْطها
من الله نورٌ يُسْتَضَاءُ ويُوقَدُ

مُفَجَّعةٌ قد شَفَّها فَقْدُ أحْمَدٍ
فظلَّت لآلاءِ الرسول تُعَدِّدُ

فَبُورِكْتَ يا نورَ الرسول وبُورِكَتْ
بِلادٌ ثوىَ فيها الرَّشيدُ المُسَدَّدُ

---

(٣٤) سورة الأعراف : ٢٠٦ .	(٣٥) سورة التحريم : ٦ .

وهــلْ عَـدلَـــتْ يومـــاً رزيَّـــةُ هَـالِكٍ

رزيَّـةَ يــومٍ مَــاتَ فـيـــهِ مُـحَـمَّــدُ

تقطَّــعَ فـيـــه مــنزلُ الوَحْــى عنهمُ

وقـــد كـان ذاَ نـُـور يغـــوُر ويُنْجِـدُ

عـــزيزٌ عليـه أن يجورُوا عَن الهُدى

حريصٌ على أن يَستقيمـوا ويَهتَدُوا

ومـا فقـــدَ المـاضـُونَ مثلَ مُـحَـمَّـد

ولا مثـلَهُ حتَّــى القيامــة يُفْـقَـدُ

نَبِـــىٌّ أتَانـــاَ بَعْـــدَ يَـأْسٍ وفَـــتْرَةٍ

من الرُّسْلِ والأَوْثَان فى الأرضِ تُعْبَدُ

فأمْسَى سِراجــاً مُسْتَنِـيراً وهَادِياً

يلوحُ كمـــا لاحَ الصَّقِـيلُ المُهَـــنَّدُ

وأنْـــذَرنَا نـــاراً وبشــّر جَـنَّـــة

وعلَّمـنـا الإِســلامَ فـاللـــهَ نَحْـــمَدُ

تعـاليْتَ رب النـاس عن قـول منْ دعـا

ســـِواك إلهـــا أنتَ أعْلَـى وأمْـجَـدُ

لك الخلـقُ والنعمـــَاءُ والأمـــرُ كلُّه

فإيــاكَ نَسْتَـــهدى وإيـــاك نَعْبُدُ (٣٦)

فقد بدا حسان فيها صادق الانفعال واضحه فى حزنه على وفاة نبى الأمة عليه السلام ، فكانت البكائية لديه صوتا عاما شاع بين المسلمين ، بدا فيه الشاعر محتسبا الأجر عند الله تعالى من هذا المنطلق الدينى ، وهو نفس المنطلق الذى حكمه فى مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(٣٦) ديوان حسان : ٧٤ .

هجوت محمداً فأجبت عنه

وعند الله في ذاك الجزاءُ

فبدأ اللوحة هنا بعرض جغرافي له قداسته من ذلك الرسم والمعهد الدينى بطيبة، وما كان من منبر الهادى عليه السلام وصعوده عليه، وما كان من المصلى، والمسجد، والحجرات التى عاش فيها النبى عليه السلام يتدارس القرآن، ويتلقى دستور المسلمين ويلقنهم إياه، فما كان لحسان أن يعرض الصورة إلا من خلال تلك المقومات الإسلامية التى رمز بها إلى العبادات وشعائر الدين، يوم أن كان يقوم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليبدأ فى البكاء على ما فقد المسلمون من ذلك النور الذى أرسله الله إليهم جميعا، وعندئذ يستغرقه نمط من التفجع الدينى الذى أسرع منه إلى طرح صيغ الدعاء الإسلامى، وما تستكمل به اللوحة من دلالات إسلامية محضة، من الدعاء بالبركة للرسول صلى الله عليه وسلم مستمدا دعاءه من نور دعوته، ليتحدث عن منزل الوحى، وأثره فى هداية المسلمين مستلهما معانيه من دلالات الآيات الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [٣٧] ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [٣٨] ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [٣٩]. ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [٤٠] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [٤١]. ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [٤٢] ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ [٤٣] ﴿ وأنذر عشيرك الأقربين ﴾ [٤٤]. ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ [٤٥].

﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ [٤٦] .

---

(٣٧) سورة النساء ١٧٤ .
(٣٨) سورة الحجرات ٤٩ .
(٣٩) سورة التوبة ١٢٨ .
(٤٠) سورة الأحزاب ٤٦ .
(٤١) سورة الأحزاب ٣٣ .
(٤٢) سورة المائدة ٥ .
(٤٣) سورة العنكبوت ٢٩ .
(٤٤) سورة الشعراء ٢٦ .
(٤٥) سورة ابراهيم ١٤ .
(٤٦) سورة الروم ٣٠ .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [٤٧] .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [٤٨].

وعلى هذا النحو - وأشباهه - ينتشر رصيد متميز من معانى الآيات القرآنية بين أبيات الشاعر وكأنما حرص على انتقاء الألفاظ الجديدة التى تكشف عن القيم الإسلامية المستحدثة فى العصر، ولم يكن للجاهلية بها عهد إلا فيما يتعلق بالأوثان وعبادتها فى الأرض، أما بقية المعانى والقيم فقد طرحت من منطق الحس الغيبى والتسليم بمشاهد القيامة والجنة والنار والبعث والنشور.

وكذا كان صدور الشاعر عن المنطق العقائدى حول تعاليم الإسلام والاعتراف بنعم الله تعالى وحمده عليها، ومثله ما كان من أمر الوحى ونور الهداية، إلى غيرها من المعانى الدينية التى عرضها حول العبادات فى مجمل الأبيات من : الآيات، الحرمة، الهادى ، المنبر، المصلى، المسجد، الحجرات، نور الله، الرسول ، النبى، الرشيد، الوحى ، الهدى، الاستقامة، الرسل ، الأوثان، التوحيد، العبادة، الجنة، النار، الإسلام، الحمد، تنزيه الخالق وعلو شأنه، الاستعانة به، وقصر العبادة على توحيده والاعتراف بنعمه وفضله... فهل بقى شيء فى بقية الأبيات إلا وقد صدر عن المعجم الجديد؟

ولعل «حسان» قد أدرك طابع ذلك المعجم وما أصبح فيه من القاسم المشترك الشائع بين شعراء العصر، فلم يتورع أن يشترك مع كعب بن زهير فى مثل قوله:

فأمسىَ سِراجاً مُسْتَنيرا وهاديًا

يلوحُ كما لاحَ الصَّقِيلُ المُهَنَّدُ

مما يقترب من بيت كعب فى لاميته الاعتذارية:

إن الرسولَ لَنُورٌ يستضاء به

مُهَنَّدٌ من سيوف الله مَسْلُوُل

وكذا كان الأمر فى حديثه عن عبادة الأوثان، مما يكاد يشترك فيه مع بُجَيْر أخى كعب أيضا فى قوله :

---

(٤٧) سورة الفاتحة ٤ . (٤٨) سورة النحل ٥٣ .

إلى الله لا العُــزَّى ولا اللات وحــدَهُ

فــتنجــو إذا كــانَ النَّجَــاء وتَسْلَمُ

إذ يدور الحوار حول التوحيد، النجاة والإسلام، فى مقابل التنفير من الأصنام، ثم تذكر يوم الحساب ومشاهد الجنة والنار، وإفلات المسلم من الجحيم إلى الجنة استعانة بقول خليل الله عليه السلام كما ترويه الآية الكريمة ﴿ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ .

لدى يومَ لا ينجــو وليسَ بِمُــفْلت

من النار إلا طاهرُ القلبِ مُــسْلِمُ

وما شهده المدح والرثاء تكرر فى أحاديث الاعتذار التى عدد فيها شعراؤه ما يعرفونه من صفات المصطفى عليه السلام، ومن الإيمان بقدر الله تعالى على النحو الذى صوره كعب بن زهير حين جاء مسلما طالبا الأمان بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيعرض إيمانه بقدر الله تعالى وهو ما زال فى بداية عهده بالإسلام :

فــقلتُ خلُّوا سَــبــيلى لا أبَا لَكُمُ

فكلُّ مــا قَــدَّر الرحــمن مــفــعُــول

ثم يعرض مبررات اطمئنانه بين يديه عليه السلام:

نُبــئْتُ أنَّ رســولَ الله أوعَــدَنى

والعــفــوُ عند رســول الله مــأمــولُ

وهو اطمئنان لا يتعارض مع قوة رسول الله بكلمة الحق :

حــتىَّ وضــعْتُ يمَــينى لا أنُازِعُــه

فى كفِّ ذى نَقَــمَــات قِــيلهُ القِــيلُ

فإذا بالشاعر ينطلق صراحة من إيمانه بقدر الله من ناحية، وثقته فى الفضائل الإسلامية الماثلة فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية أخرى.

وتبقى الحقيقة التى لا تخفى هنا حول طبيعة شعراء ذلك العصر وقد استلهموا كمًّا متميزا من التأثيرات الإسلامية، أفسحوا له مجالات متعددة فى كل موضوعاتهم الشعرية تقريبا، وقد اتسعت مجالاتها وتنوَّعت مما تكشف عنه من استيعاب الشعراء لقضايا التوحيد وحدود العقيدة، وقيامهم على العبادات ، واستكشافهم طبيعة ما كان فيه الآباء من غى ومن اتبع سلوكهم من ضُلاَّل، فكان الشعر - آنذاك - صدى لانتشار العقيدة، معلقا بالرغبة فى ترسيخها من جانب، كما كان وسيلة لاستمرار الدعوة لمزيد من ذلك الانتشار من جانب آخر.



(٢)

ومن الطرافة بمكان أن يجد المؤثر الإسلامى وسائله إلى الرسوخ والذيوع على ألسنة كل فئات الشعراء، حتى من تخلف منهم عن الدخول فى الإسلام حتى حين، على نحو ما رأينا عند كعب بن زهير فى اعتذاره واعترافه بالعقيدة والرسالة، فى ثنائه على الرسول عليه السلام، وما كان من دعائه الدينى المرتبط بإيمانه ويقينه بمصداقية الدعوة ومصدرها:

مَــهْــلاً هداكَ الذى أعطَاك نافلَة الـ
قــرآن فــيــه مــواعــيظٌ وتَفــصِــيلُ

وكذا كان ما صنعه فى تصوير أحداث الهجرة المقدسة فرارا بدين الإسلام، وحرصا عليه:

فِى فــتــيــة من قُــريش قــال قــائِلهُم
ببطن مكة لمــــا أسلمــــوا : زولُوا
زالو فــمــا زال أنكاس ولا كُــشُفٌ
عند اللقــــاء ولا مــــيل مـــعــــازيلُ

فإذا بأولئك الفتية يسلكون سلوكا إسلاميا لا يغرهم فيه انتصار ولا تغريهم نشوته ولا يجزعون من هزيمة، إيمانا منهم بقدر الله تعالى فى كل الأحوال فهم:

لا يفــرحــون إذا نالَتْ رِمــاَحُــهُمُ
قــوَمْــاً وليــســوُا مــجَــازيعًــا إذا نِيلواُ

وعلى هذا المستوى أيضا ما كان من أمر أبى سفيان بن الحارث الذى تمادى فى غيِّه وجاهليته، وأسرف فى هجائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعدَّى على دعوته ،

حتى إذا ما دخل فى الإسلام اعتذر عما كان منه فى وثنيته ، ويقال أنه أنشد أبياتاً فى فتح مكة قال فيها:

لعمركَ إنّى يومَ أحْملُ رَايَةً
لتغلبَ خيل اللّاتِ خيلَ مُحَمَّد

لكالمُدْلِجِ الحيرانِ أظلمَ ليلهُ
فهذا أوانِى حين أهْدِى وأهْتَدِى

هدانِىَ هادٍ غيرَ نفسى ونَالَنى
مع الله من طُرِّدْتُ كلّ مُطَرَّدِ

أَصُدُّ وَأَنْأَى جاهداً عن محمد
وأُدْعى وإنْ لَمْ أَنْتَسِبْ من محمد

هُمُ ما هُمُ من لم يقل بهواهمُ
وإن كان ذاَ رأى يُلِمُّ ويَفْنَد

فَقُلْ لثَقِيفٍ لا أريدُ قتالها
وقل لثقيف تلك غيرى أو عَدي

فما كنت فى الجيش الذى نال عامراً
وما كان عن جَرْىٍ لسانى ولا يَدىِ

قبائلُ جاءت من بلاد بعيدة
نزائع جاءت من سهام وسَرْدد (٤٩)

ففى أبياته تقل - بشكل واضح - كثافة الحس الإسلامى فى فترة بدا فيها الشاعر حديث عهد بالإسلام بعد أن أسرف على نفسه فى معاداته وهجائه ، ولكنه تحول فى سلوكه عما عرف عليه قبل الفتح ، إذ يصور حيرته فى الماضى فى مقابل رشده وهدايته التى يرصدها فى حاضره، مع ما عرضه أيضاً من طابع جهاده الدينى فى سبيل الله ودفاعه

(٤٩) السيرة ابن هشام ٤٠١/٤ .

عن الرسول عليه السلام ، واعتزازه بأن ينتسب إليه، متمنياً التنصل من كل ما نسب إليه في ماضيه المظلم. ومركزا مادته الشعرية حول محورَيْن أساسيين : محمد صلى الله عليه وسلم والهداية ، على ما كرره من ألفاظ حول كل منها بين خيل محمد ، وجهاده عن محمد، وانتسابه إلى محمد (وقد كان أخاه في الرضاعة)، ثم يهدي ويهتدي ، وهداه هاد من الله، وفيما عدا المحوَرَيْن تراه أمام حديث قبلي جاهلية مادته تماماً.

ومما لا شك فيه أن كعباً أو أبا سفيان أو غيرهما من شعراء الجاهلية ممن دخلوا في الإسلام لم يلجأوا إلى التملق أو التزلف بشكل يخل بقيمة الشعر لديهم ، أو يهدر مقياس الصدق الفني أو الأخلاقي في أشعارهم ، بل استطاع هؤلاء أن يسلكوا سبلاً جديدة قادهم إليها صدق النوايا، على نحو ما انتهى إليه الدكتور زكي المحاسني في قوله « كانت الشعراء عند العرب في الجاهلية بمنزلة الأنبياء في الأمم، حتى خالطهم الحضر، فتكسبوا بالشعر فنزلوا عن رتبتهم ، ثم جاء الإسلام ونزل القرآن بتهجين الشعر وتكذيبه ، فنزلوا رتبة أخرى، ثم استعملوا الملق والتضرع فقلوا واستهان بهم الناس » (٥٠) .

وهو بذلك يسجل هبوط الشعر وهوان شأنه حين نأى عن المؤثرات الإسلامية ، والتصق بعالم التكسب والاحتراف، ولعله يشير بذلك إلى جودة شعر من نظموا استناداً إلى المعجم الإسلامي احتساباً من مدرسة المدينة، واعتمادا على معانيه وألفاظه التي زادت ذلك الشعر غنًى وثراء، وحافظت على نقاء دوافعه ، وصدق مادته ومبدعه، وإن ظل غير صحيح لديه ما جاء عبر حواره العام من تهجين الإسلام للشعر، والمسألة تتعلق- أساساً - بالشعراء ومنهم فئة مستثناة بنص الآيات القرآنية الكريمة.

وتزداد الصورة وضوحاً وإشراقاً من واقع كثافة المؤثرات الإسلامية ، وخاصة في مساقات شعر الفتوح الإسلامية، وكأنما توقف الشعراء فيه يتأملون طبيعة الواقع الجديد الذي يذودون عنه من منطلق روحي محض، نأياً بذلك عن منطق العصبية ، واستبعاداً لشريعة الغزو والبطش الجاهلية ، فكانت صورة شعر الفتوح وليدا شرعياً للمعجم الإسلامي شكلاً ومحتوى، وإذا بالمقطوعة تسود ، ويزداد انتشارها لتبدو أكثر تلاؤماً مع إيقاع حركة الجهاد الديني وميادين الحروب ، ولم يكن ثمة ما يبرر للشاعر أن يتمسك بكل

---

(٥٠) الأدب الديني ٤٧ ، انظر كتاب الزينة للرازي ١/٩٥ .

التقاليد الفنية التى رسَّخها أسلافه ، فليس لديه وقت يقف فيه باكياً طللاً ، ولا متغزلاً نسيبا أو تشبيبا أو مصورا ظعينة، أو غير ذلك مما قد لا يتسق مع طبيعة الواقع النفسى فى خروجه غازياً فى سبيل الله، لا تشغله دنيا يريدها، ولا يسعى إلى غنيمة أو جاه ، بل قد يندفع إلى الموت اندفاعاً أملاً فى النصر ، أو السبق إلى الشهادة على النحو الذى رصده كعب للمهاجرين حين صوَّرهم فى سياق حصره التصويرى لهم :

لا يقعُ الطعنُ إلاَّ فى نحورهِمُ   وما لهم عن حِياض المَوتْ تَهليلُ

وإذا بالشاعر المسلم يبدو شديد الاعتزاز بحسه الجديد من واقع تلك الدوافع الجديدة التى تدفعه إلى التقدم فى القتال ، دون خشية الموت ، على النحو الذى صوره قول كعب بن مالك فى يوم خيبر:

عظيمُ رَمـاد القـدر فى كل شَـتْـوَة
ضـروبٌ بنَصْل المـشـرفىِّ المُـهَنَّدِ
يرَى القـتلَ مَـدْحـا إنْ أصـابَ شَـهَـادةً
من الله يرجُـوها وفـوزًا بِأَحْـمَـد
يذودُ ويحـمى عن ذمـارِ مـحـمـد
ويدفعُ عنه باللّسـان وباليـد (٥١)

حيث يبدو السلوك القتالى جديداً فى تصوير هؤلاء من منطلق الدوافع، والممارسة العملية لحركة الجهاد الدينى ، وإذا بالاعترافات تظل مطروحة من قبل المسلمين جميعاً، بفضل المدد الإلهى الذى يضمن لهم الانتصار على أعداء دينهم، وإذا بالشعراء يُقدمون على تسجيل تلك الحقائق المؤكدة، ففى يوم بدر تتزاحم على الشاعر من المعجم صورة الملائكة ونصر المولى لرسوله صلى الله عليه وسلم .

بنصـر الله روحُ القـدس فـيـهـا
ومـيكال فـيـا طولَ المُـلاَء

---

(٥١) الأدب الدينى ٤٧ ، انظر كتاب الزينة للرازى ١/٩٥ .

أألخـــفَـــرْتَ النبى وكنت قِـــدْمـــا

إلى الســـوءات تجـــرى بالعَـــراءِ [٥٢]

وإذا بالشاعر يستشعر قوة المسلمين من خلال قوة الرسول عليه السلام وقوة أنصاره من حوله :

وفـــينا رســـولُ الله نَتْـــبَعُ أمـــرَهُ

إذا قـــال فـــينا القـــولَ لا نَتَطلَّعُ

تَـدلَّى علـيـــــه الـروحُ من عـند ربـه

يُنَزَّلُ من جَـــوِّ الســـمـــاء ويُرْفَـعُ

وقـــال رســـولُ الله لمـــا بدَوْا لنا

إذا مـــا اشْـــتَـــهْـــوا أنَّا نطيع ونَسْـــمَعُ

وقـــال رســـولُ الله لمـــا بَدَوْا لنا

ذروا عنكمُ هول المـقـات وطْمِـعـوُا [٥٣]

إذ بدت لوحة السماء منظومة دينية متميزة محورها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوامره وأقواله ووجوده بينهم ، وهم- أى المسلمون - له طائعون سامعون مجيبون ، اطمئنانا منهم إلى نصر الله سبحانه ومشاركة الملائكة لهم معاركهم ضد الشرك وأنصار الوثن.

وكثيرة تلك الأشعار التى سارت فى ذلك المنحى قصدا إلى تصوير طبيعة خروج المسلم مجاهدا فى سبيل الله، وكيف يحرص على طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما بدا فيه الشعراء أيضاً شديدى القرب مَن المعجم الإسلامى، كثيرى الإفادة من معانيه وأساليبه وصيغه.

* * *

---

(٥٢) ديوان كعب بن مالك ١٩٣ .

(٥٣) ديوان كعب بن مالك ٢٢٤ .

(٣)

ويستمر المعجم الإسلامى فى سيادته وهيمنته على وجدان الشعراء أيضاً طيلة عصر الراشدين وإن لم يشهد تحولا خطيرا يغير مساره، فما زال الراشدون يسيرون على نهج القدوة الحسنة التى التمسوها فى سلوك رسول الله عليه السلام بينهم فى حياته قولاً وعملاً ، كل ما هنالك أن مدائح الشعراء ورثائياتهم قد تحوّلت إلى خلفاء المسلمين، أو أمراء المؤمنين، فلمع شخص الخليفة فى أثناء قصيدة المدح أو باب الرثاء فجمع بين موقعه حاكماً سياسياً ودينياً من طراز خاص، حتى يتخلص الشعر بذلك من عقدة الموروث الجاهلى الذى لم يعرف - بالطبع - شيئاً عن الفضائل الجديدة ، ففى معركة الردة فى عهد الخليفة الأول - رضى الله عنه - يتجه الحارث بن مُرة واعظاً بنى عامر بمعان دينية رقيقة يطرح عليهم فيها الموقف من منظور إسلامى، يحكى جانباً مما استوعبه من معطيات الدين الجديد وقواعد نشر الدعوة، وكأن الحارث راح يأخذ دلالة ما يقول من معنى الآية الكريمة ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٥٤) ، حين ينظم قوله :

بَنِي عـامـر إن تَنصُـرُوا الله تُنصَـرُوا
وإن تَنْصِـبـوا لله والدين تُخْـذَلواْ
وإن تُهْـزَمـوا لا يُنْجِكُمْ منه مَـهْـرَبٌ
وإن تَثْـبُـتـوا لِلقـوم والله تَقْـتُلوا (٥٥)

ولعله صدر أيضاً عما رسخ فى ذهنه من المعانى القرآنية التى حددتها الآيات الكريمة ﴿ إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٥٦) أو من قوله تعالى ﴿ إن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ (٥٧).

(٥٤) سورة الكهف ٢٩ .
(٥٥) الإصابة لابن حجر ٢/٥٥ .
(٥٦) سورة محمد ٧ .
(٥٧) سورة آل عمران ١٦٠ .

أو من دلالة الآية الكريمة ﴿ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ [٥٨]. وبذا بدا الشاعر المسلم حريصاً على الصدور فى فنه عن انتقاء متأن للفظ، لا يلقى فيه الصور إلا بقدر ما يدقق فى اختيارها وعرضها مهما قلنا بتلقائية الأداء عند معظم أبناء تلك المرحلة فقد ظهر الاتساق واضحاً بين الصورة والمواقف ، فإذا ما كان أحدهم – أى الشعراء – بإزاء غضبة إسلامية من موقف المرتدين – مثلاً – راح يهددهم ، قصدا إلى ردعهم وزجرهم، فنراه يستخرج من ذاكرته ما ترسَّب فيها من صور العقاب التى أصابت أمما بائدة، منذ تمردت على أنبيائها فأذاقها الله وبال أمرها، وكان عقابه سبحانه وتعالى لهم على النحو الذى يتراءى فى كثير من الآيات والقصص القرآنى على نحو ما قال تعالى فى قصة عاد ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ⑭ ﴾ [٥٩] ليلتقط الشاعر هذا المعنى ودلالة القصة حيث يقول أوس بن بُجَيْر الطائى فى شأن المرتدين:

ألم ترَ أن الله لا رَبَّ غيرُه
يصبُّ على الكُفَّار سَوْطَ عَذَابِ [٦٠]

وفى غير حروب الردة تتكرر المشاهد الدينية اقتباساً من مصادر المعجم الإسلامى، ففى فن الرثاء لا يتوقف حسان بن ثابت عند حدود الفضائل الموروثة حين يرثى أبا بكر ، بل راح ينقب فى هذا المعجم ليقتبس منه الجديد الذى حمده له القرآن الكريم [٦١]، فإذا بحسان يعرضه فى قوله راثياً :

الثانى الثانى المحمودُ سيرتُه
وأولُ الناس منهم صدَّق الرُّسُلاَ
وثانىَ اثنين فى الغارالمنُيف وقَدْ
طافَ العدوُّ به إذْ صَعَّد الجَبَلا
وكانَ حِبَّ رسولِ اللهِ قَدْ عَلمُوا
خيرُ البرية لم يَعْدِل بهِ رَجُلاَ [٦١]

---

(٥٨) سورة التوبة ١١٨ . (٥٩) سورة الفجر ١٤ .
(٦٠) الإصابة ٢/٥٥ .
(٦١) ومن المعروف أنه نزل فى الصديق من أى كتاب الله قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ . (٦١) ديوان حسان ٢٩ .

وكأن حسان قد التقط لُب المشهد الرثائى من وقائع التاريخ، كما صورَّها القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ (٦٢) .

فهو يجعل من تلك الصحبة الشريفة أساساً لثنائه على أبى بكر الصديق- رضى الله عنه - ومبعثاً لبكائه على فقده، وهنا التقت لديه الفضائل الإسلامية حول منطق العقيدة، وربطه بهذا السلوك الدينى القويم الذى جعله محمود السيرة طيِّبها ، فكان أول من صدق الرسول عليه الصلاة والسلام، وترجم تصديقه بفعله حين خرج بصحبته مهاجراً فلم يعدل به رسول الله عليه الصلاة والسلام رجلا آخر من المسلمين ، فكان شديد القرب إلى نفسه ، شديد الحب له . ومعروف أيضاً أنه - رضى الله عنه - كان أول من صدَّق بحديث الإسراء والمعراج حين كذبه القوم وسخروا منه .

وهكذا انتشرت الملامح الإسلامية ، وبدا المعجم يشق طريقه انتشاراً وذيوعاً وسيادة على ألسنة الشعراء فى جل موضوعات الشعر، وإذا بالتحول الأخلاقى يشهد ارتقاءً لدى الشاعر المسلم، حتى إذا ما أدرك حجم خطئه راح يستعطف خليفة المسلمين، ليتبع ذلك بتسجيل سلوكه الدينى، على نحو ما تسجله خطوات الحطيئة، منذ هجائه الزبرقان بن بدر فى قصيدته المشهورة التى قال فى واحد من أبياتها :

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيَتِها   واقعُدْ فإنَّك أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي (٦٣)

فكانت شدة عمر - رضى الله عنه - فى مؤاخذة الحُطيئة حتى حبسه، ليستنقذ من لسانه أعراض المسلمين، وهو ترجمة فعلية للسلوك الدينى للخليفة الذى راح يخشى أن تكسر ساق شاة بالعراق لأن يسأل عنها عمر ، فكيف بأعراض المسلمين أو إشعال نيران عصبيات جاهلية أطفأ جذوتها الإسلام ، ثم كان أن نظم الحطيئة فى سجنه أبياتاً يستعطف الخليفة، ويطلب منه العفو، داعياً له دعاء إسلامياً يقول فيه شاكياً حاله وحال أولاده:

ماذا تقولُ لأفْراخ بِذى مرخ
زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجَرُ

---

(٦٢) سورة التوبة ٤٠ .   (٦٣) ديوان الحطيئة ٢٨٤ .

أَلْقَيْتَ كاسِبَهمُ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ
فاغفِر عليكَ سلامُ اللهِ يا عُمَرُ (٦٤)

فإذا بعمر يعفو عنه بشرط ألا يعود إلى فعلته، وبذلك اشترى منه أعراض المسلمين.

وبعدها يتقدم الشاعر في سلوكه خطوات كثيرة نحو الإسلام الذي حسن أسلوب تعامله من خلاله، فصاغ من حكمه الكثير على نحو قوله من المنظور الإسلامي المحض :

مَنْ يَفْعلِ الخَيْرَ لَمْ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ
لا يذهبُ العُرْفُ بينَ اللّه والنَّاسِ (٦٥)

أو مثلَ قوله :

ألمْ أكُ مِسكينا إلَى الله مُسْلِماً
علىَ رأسِه أن يظلمَ الناسَ زَاجِرُهْ (٦٦)

ولا يكاد المظهر السلوكي يتوقف على الحياة العامة أو الفنية كما عاشها الحطيئة أو غيره من شعراء العصر، ممن تورطوا في مزالق سلوكية أنقذهم الإسلام من خطرها ، بل يزداد الموقف اتساعاً وعمقاً حين يتعلق بطابع الخروج للدفاع عن الدين ، وتبني قضايا الدعوة، الأمر الذي يكشف حقيقة الدوافع الجديدة التي حدت بالشعراء إلى الخروج مجاهدين في سبيل الله ، بدلا من تلك الدنيا التي كان يسعى إليها الجاهلي بحثاً عن الغنى على المستوى القبلي أو مستوى الصعلكة، مما بلور منه جانباً قول عروة لزوجته:

ذرَيِني للغِنىَ أسْعى فإني
رأيتُ الناسَ شرُّهم الفَقِيرُ
وأدنَاهُمْ وأهونُهم عليهم
وإن أمْسَى له حَسَب وخِيرُ
يُباعِدُهُ القَرِيبُ وتَزْدريه
حَليلتُه وينهرُه الصَّغِيرُ

(٦٤) ديوان الحطيئة ٢٠٨ .
(٦٥) نفسه : ٢٨٤ .
(٦٦) نفسه : ٤٥ .

ويُلْفَى ذُو الغِنى وله جَــــلالٌ
يكادُ فُــؤادُ لاقِيـــه يَطِيــرُ
قليلٌ ذنبُــــهُ والذنبُ جَمٌّ
ولكنْ للغِنَى ربٌّ غَفُــورُ (٦٧)

فقد تهاوت مثل هذه الفلسفات فى تبرير الخروج وإباحة اللصوصية وقطع الطريق، لتأخذ بعدا روُحيا جديداً، لا علاقة له بأبعاد الفقر والغنى، بل تظهر الصورة الجديدة مطبوعة بالطابع الدينى المحض الذى يرضى فيه الإنسان المجاهد بالخروج لقضاء الله وقدره، لا يهمه ما فيه من حلاوة أو مرارة ، على النحو الذى رأيناه فى صورة النابغة الجعدى فى حواره مع امرأته وهو خارج إلى فتوح فارس :

يا ابنةَ عــمِّى كـتـابُ الله أخـرجَنى
طَوْعــاً وهل أمنعنَّ اللهَ مــا فَــعَــلا

وكأن النابغة يتخلى بذلك عن معجم الجاهلية ، ليكون سابقاً إلى معجم الإسلام، فيلتقط منه أبعاد الموقف الدينى برؤية المجاهد المسلم:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ﴾ (٦٨).

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ (٦٩).

وبذا تقوى صورة الموقف الدينى لدى الشاعر فى المظهر القتالى وفى طبيعة الدوافع على السواء، وتفسح أمامه المجالات على مستوى كل الموضوعات الذاتى منها والغيرى جميعاً، وإذا بألوان إسلامية جديدة تتدفق حول تأصيل شرف الأحساب والأنساب، وتؤكد رفعة الأصل والمكانة، على النحو الذى عرضه أبو الأسود الدؤلى فى مقتل عثمان بن عفان حين ارتآه :

لَقَــدْ علِمَتْ قــريش حــيثُ حَلَّتْ
بأنك خــيــرُها حَــسَــبًــا ودِينا (٧٠)

---

(٦٧) الروائع من الشعر العربى : ٤٩٨ .
(٦٨) سورة المائدة : ٣٥ .
(٦٩) سورة البقرة ٢١٦ .
(٧٠) الطبرى : ٤/١١٦ .

وإذا بصورة جبريل - عليه السلام - ومدد الله - سبحانه وتعالى - للمسلمين ، وتأييدهم بنصره عن طريق ملائكته، ما زال يسيطر على أذهان الشعراء المسلمين، حتى أواخر عصر الراشدين، فبعد واقعة « صفين » راح خزيمة الأسدى يصف جيش معاوية من نفس المحور الدينى فى قوله :

ثمانُون ألفا دينُ عثمانَ دينُهم

كتائبُ فيها جبرئيل يَقُودها [٧١]

ولم يعرف شاعر عصر صدر الإسلام - ولم يكد - توقُّفا عند حدود بعينها، بل أراد أن يعرض من المعجم الجديد ما استطاع، وما كمن فى وجدانه، فإذا هو يتجاوز الموضوعات التقليدية التى اقترنت بالشعر الجاهلى ، بل ربما تجاوز أيضاً ما صوره من فتوح إسلامية فى شعره ، لينفذ إلى موضوع جديد تماما يدلى فيه بدلوه، وكأنه جنَّد نفسه داعية للإسلام ومحامياً يدفع عنه خصومه، ويوجه إليه قومه، وينصح شبابهم وشيوخهم من خلال رصيد المعانى والقيم الإسلامية التى بدا بعضها واضحاً فى قول عبدة بن الطبيب :

أوصيكُمُ بتُقَى الإله فإنَّه

يُعطى الرغائبَ مَنْ يشَاءُ ويَمْنَعُ

وبِبِرِّ والدكِم وطاعةِ أمرِهِ

إن الأبرَّ من البَنينِ الأطْوَعُ

واعصُوا الذى يُزجى النمائمَ بينكم

مُتنصِّحاً ذاكَ السِّمام المُنْقع [٧٢]

وكأنه لم يشأ أن يستمد معانيه هنا إلا من المعجم الإسلامى على مستوى السلوك العملى فى حياة المسلم من ضرورة تقوى الله فى سره وعلنه:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [٧٣] .

وفى التسليم الكامل بتوزيع الله سبحانه لمقدرات البشر وأرزاقهم فى الحياة

---

(٧١) الأغانى : ١٥/١٤٩ .

(٧٢) ديوان المفضليات : ١٤٦ .

(٧٣) سورة البقرة : ٢٠٣ .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ (٧٤).

أو ما أمر به سبحانه من بر الوالدين وطاعتهما إلا فى معصيته - سبحانه -

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (٧٥) .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ (٧٦) .

وعصيان من يأتى بالغيبة والنميمة ، حتى يستكشف حقائق الأمور ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) ﴾ (٧٧).



(٧٤) سورة آل عمران : ٢٦ .

(٧٥) سورة الاسراء : ٢٣ .

(٧٦) سورة لقمان : ١٤ .

(٧٧) سورة الحجرات ٠٦ .

(٤)

ويبقى فى تعدد المواقف التى استعان فيها شعراء العصر بالمعجم الإسلامى مؤشر هام يدل على رسوخ الكثير من المعانى والقيم الجديدة فى نفوس فريق من الشعراء الذين ثقفوا المعجم الجاهلى ووعوه وصدروا عنه ، ولكن كثيرا من قيمه راحت تتزلزل، وتفسح المجال لتلك الصيغ الجديدة التى تعد ترجمة لسلوك جديد، وتصويراً لأبعاد دينية جوهرية متميزة.

كما يبقى لهذه المواقف دلالتها كرافد طيب ثر أثرى عقلية شعراء العصر وملأ عليهم وجدانهم، ووجه سلوكهم إلى حيث وجَّهوا الناس ، مما يدفع إلى التوقف عند هذه الظاهرة ، دون تجاوز التماس أبعاد فلسفية عميقة وراء الفكر الدينى فى تلك المرحلة المبكرة، فما زال المعجم الإسلامى ماثلاً بين أيدى الشعراء فى عصر النبوة، وما زال رسول الله عليه الصلاة والسلام قائماً على شئون المسلمين، يشرح لأمته معالم المعجم فى مجمله وتفصيله، ويكشف لهم ما غمض عليهم منه. وحتى بعد انتقاله عليه السلام إلى الرفيق الأعلى يسير الراشدون رضوان الله عليهم على سنته الشريفة، فكانوا شديدى الحرص على الحفاظ على مادة ذلك المعجم دون مزاحمة من معان جاهلية يمكن أن تؤثر عليه ، ولا حتى بسلوك جاهلى بدا مستهجناً على نحو ما تبينا من موقف عمر – رضى الله عنه – من الحطيئة أو أبى محجن الثقفى، أو ما كان من موقف عثمان – رضى الله عنه من ضابئ بن الحارث البرجمى. وما زال المسلمون جميعاً شديدى التمسك بالعقيدة ومبادئها، على ما اتسمت به من الوضوح والبساطة، مما طبع شعر الشعراء بنفس الدرجة من الوضوح الذى دفعهم إلى التقرير أكثر من سعيهم إلى الإغراق فى التصوير، ومالوا إلى تجنب التعقيد والغموض أو العمق الفلسفى الذى يمكن أن يغلف المعانى أمام جمهور المتلقين، الأمر الذى نشهد بوادره بعد ذلك مع مطالع عصر بنى أمية، وتزداد حين تتعقد الأمور وتصطرع القوى فى عصور الثورات وانتشار أدب الاحتجاج. وبناء على هذه الرؤية الموجزة للمؤثر الإسلامى فى عصر النبوة والراشدين نستطيع رصد الملامح الكبرى التى سيطرت على هذا المعجم من خلال معالجة الشعراء له فى قصائدهم على مستويين:

(**الأول**) ذلك المستوى الشكلى العام للقصيدة وهو ما لم يستوعب من المعجم الإسلامى الكثير ، ولم يكن المصدر الجديد مطالباً بهذا التحول ، إذ يلاحظ أن كثيراً من المعانى والصور قد أهملت عمدا مع تدهور القيم الجاهلية، ولعل الشعراء المسلمين قصدوا إلى ذلك قصداً لعلهم يتسقون نفسياً مع الواقع الجديد ، ففى مساق المواقف الغزلية نجد احترازا واضحاً من الخوض فى معانى الفحش أو الغزل المكشوفة الذى غصًت به دواوين الجاهليين من لدن امرئ القيس وطرفة والأعشى وغيرهم، وفى مواقف الهجاء انسحبت لوحات الإقذاع ولغة الفحش لتترك للشعراء المسلمين مجالاً جديداً رحباً يصدرون فيه عن القيم الجديدة من خلال توجهات السلوك الذى يبدو من خلاله الشاعر المسلم قوياً وخاصة حين يرد هجوم خصمه ، دون أن يبدأ بالعدوان أو يبادر به، ومن خلال فنه الذى يتخفف فيه من السب واللعن والفحش مما يتنافى مع روح العقيدة التي رسخت فى أعماقه.

وفى موازاة اختفاء سالب القيم وحلول قيم إسلامية جديدة موجبة يظل الشكل الجاهلى للقصيدة متماسكاً وقادراً على استيعابها جميعاً، خاصة مع وقوع هذا التعديل، أو السعى إلى التخفف من هيمنة الحس القديم. كما يبقي للشعراء ما أكثروا من نظمه من المقطوعات وقصار القصائد اتساقاً مع سرعة إيقاع الحياة من ناحية، ورغبة فى تصوير مواقفهم الجديدة فى سياق شكل جديد يتناغم مع نفس السرعة من ناحية أخرى.

(**الثانى**) : ذلك المستوى الموضوعى للقصيدة، والذى بدا أكثر مرونة أمام شعراء العصر، ممَّن طوعوا الشكل الفنى ليستوعب كل ما أرادوه له من تلك الموضوعات ، فقد عُدِّل بعضها وشهد تحولا على نحو ما حدث فى فنون المدح والهجاء والرثاء والغزل، وما ورد منها بعد ذلك بدا جديدا ، على نحو ما كان من حرص الشعراء على تصوير الفتوح الإسلامية، والتأصيل لدوافع المسلمين إلى الخروج إليها ، حتى كاد شعرهم فيها يختلف تماماً عن صورة القصيدة الجاهلية التى استوقفتها أيام العرب فى الجاهلية، فصورت شريعة الغزو الغاشمة دون ضوابط ولا قوانين، على ذلك النحو الذى ظهرت فيه قصائد الجهاد الإسلامية مصاحبة لحركة الفتوح من واقع مقوماتها الجديدة.

ثم يبقى ظاهراً فى إبداع شعراء العصر أنهم لم يعبئوا كثيراً بالإطار الفنى للقصيدة، وكأن الشاعر أصبح مشغولاً – بالدرجة الأولى – بصياغة موقفه الدينى من خلال

استغراقه فى معطياته بشكل واضح، وهو ما يرضى به نفسه وجمهوره الجديد، دون توقف طويل عند القيم الموروثة. كل ما هنالك أن ثمة ولاءً عجز شعراء العصر عن الخلاص منه إزاء الموروث الجاهلى، فسجَّلوا ذلك الولاء من خلال تمسكهم بالشكل الفنى فى بعض الأحيان، وإن تجاوزوه - كما رأينا - فى محتوى القصائد حين أخذت منحى إسلامياً خالصاً أزاح الأثر السلوكى الجاهلى المستهجن أمام ما استحسنه الإسلام ودعا إليه على نهجه القويم.

وعلى هذا النحو استطاعت القصيدة لدى شعراء عصر صدر الإسلام أن تستوعب من القيم الاجتماعية والسلوكية الأخلاقية ما أضاف إليها الجديد، وما كشف عن صدق الشعراء فيما أخذوه من مادة ذلك المعجم بدقة ظهر فيها طابع الحرص والتمكن، مع صدق الولاء للدين الإسلامى على النحو الذى رأيناه فى دعوة الشعراء لمبادئ الدين، ومحاولة نشرها بين أقوامهم ، وما طبع به شعر الكثيرين منهم من طابع حكمى عام استمدوا معطياته ومقوماته مما ثقفوه من المصادر الإسلامية مضافاً إليها خلاصة احتكاكهم بالحياة، واستخلاصهم للتجارب وتجدد صيغ السلوك التى مالوا إليها.

وضمن خلاصة الموقف هنا حول رؤية جوانب هذا المعجم الإسلامى لهذا العصر بالتحديد ، نستطيع أن نناقش طبيعة المؤثرات من خلال ما ورد منها كثرة وشيوعاً، تلك التى يسقط معها ما انتهى إليه (جرونباوم) فى قوله « الخطوة الحاسمة فى رسالة النبى هى نقض الأساس الاجتماعى الذى قام عليه الشعر الجاهلى مما أدى إلى إضعاف الكثير من حوافز الشعر إن لم نقل إلى إزالتها جملة » [(٧٨)].

فليس من الدقة بمكان أن يربط المستشرق بين ثورة الإسلام على الكيان الاجتماعى للجاهلية ، وبين موقفه من الشعر على هذا النحو العدائى، فهو يعرض مقدمة صحيحة تقود إلى نتيجة ليست من جنسها، بل قد تحتاج إلى مراجعة ومعاودة نظر ، وإلا فأين موقف هذا القول من رصيد شعراء عصر الإسلام مما امتلأت به دواوينهم فى موضوعات الشعر المختلفة؟. وأين هو من تلك الروايات الكثيرة الموثقة حول إثبات الرؤية الإيجابية فى موقف الإسلام من الشعر كفن جمالى؟ وكيف يستطيع الزعم بأن الإسلام قد

(٧٨) جرونباوم : نشأة الشعر العربى وتطوره ، نشر فى كتاب (دراسات فى الأدب العربى ، ترجمة د. كمال اليازجى ، بيروت ص ١٤١ - ١٤٢) .

أزال دوافع الشعر جملة ؟ وأين نضع – آنذاك – ذلك الرصيد الضخم من القيم المعدلة والجديدة التى تقبلتها القصيدة العربية ؟ وأين يذهب شعر الفتوح وشعر الدعوة الإسلامية أمام هذا القول الغريب ؟! من هنا يصح اتهام هذه الرؤية الاستشراقية بعدم الدقة أو الموضوعية، طالما عجزت عن طرح إجابات حول أى من تلك التساؤلات، ذلك أن الأدلة على نقضها تبدو أكثر منها إقناعاً ، فقد كشف التأثير الإسلامى – الذى عرضنا منه صوراً – عن كثير من القيم السلبية التى وقف منها الإسلام موقفاً عدائياً فى مجتمع الجاهلية، حتى سار هذا الهجوم فى خط متوازٍ مع تشجيع الإسلام للقيم الموجبة فى الحياة، وطرح المزيد منها مما يتناغم مع الفطرة البشرية فى حالة من سلامتها وصحتها. ومن هنا كان تنفير الإسلام مما قد يتناقض مع تلك الفطرة القويمة على نحو ما كان من تحريم الخمر التى تذهب بملكة العقل وتعطل الوعى البشرى الذى لا تكتمل إنسانية الإنسان إلا به ، وكذلك تعطيل العاطفة البشرية فى أسمى مظاهرها فى علاقة الأبوة والبنوة من خلال ما ارتكبه بعض الجاهليين من وأد البنات بلا جريرة ، وكذا كان ضياع الكثير من القيم الاجتماعية فى خضم اللهو والعربدة التى شاعت فى مجالس المنادمة والمياسرة.. أليس من حق الإسلام أن يوقف هذا التيار السلبى ليعدل القيم ويزلزلها؟ ولينتقى أفضل ما فيها دون أن يعنى هذا بالضرورة إيقاف حركة الشعر أو حتى نموها وتطورها ؟!.

من هنا بدا قول جرونباوم – وإلى مثله ذهب أخرون [(٧٩)] – مجافياً للموضوعية لأنه تناسى واقعية الأحداث التى تعلق بها شعراء العصر، ومن خلالها أضافوا الكثير إلى قيم الفن الموروث، وعندئذ بدا المعجم الإسلامى بمثابة الرافد الأول لتلك الإضافات على مستوى اللفظ والصورة. وتبقى غير مفهومة – بعد ذلك طبيعة ذلك الأذى المزعوم الذى انتهى إليه المستشرق، فكيف نوفق بين ما أكده من إيذاء الشعر ، وبين إكثار الشعراء من النظم والانخراط فى حقول التجديد تبعاً لما أفادوه من ذلك المعجم الجديد، وأين هذا كله من قول جرونباوم عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وقد أصابت نمو الشعر الطبيعى بشديد الأذى فى قوله « ومع أننا لا نستطيع أن نتجاهل أن الشعر التقليدى كاد يستكمل شوطه عند ظهور النبى محمد، فإنه يتعذر علينا أن نتغاضى عن القول بأن رسالته الدينية

---

(٧٩) تراجع فى مصادرنا القديمة أقوال ابن سلام والأصمعى وابن خلدون حول ضعف الشعر العربى فى صدر الإسلام ، وفى هذه الدراسات المعاصرة آراء بعض الباحثين على طريقة الدكتور يحيى الجبورى فى الشعراء المخضرمين ، والدكتور عبدالعزيز الكفراوى فى الشعر العربى بين الجمود والتطور .

قد أصابت الشعر الطبيعي بشديد الأذى» [٨٠] . فمع تطرف هذا القول ومع مجافاته لموضوعية الرؤية، يكاد جرونباوم يزداد تشبثاً بموقفه ، خاصة حين يعاود عرضه بشكل أكثر عمومية ليقول « وقف الدين سدا دون الإيمان بقدرة الإنسان على الخلق، ومما أيده في ذلك عجز الناس عن أن يميزوا على وجه اليقين بين الخلق الفني والعقلي والخلق من العدم » [٨١].

وهو تصور تجانبه الدقة العلمية وسلامة الرؤية، فليس من البساطة بمكان أن يعجز فصحاء الجاهلية وبلغاؤها عن تبين حقيقة الخلق حين يرتبط بالذات الإلهية، وبين طبيعة الإبداع حين ترتبط بتعاملهم مع لغة لها سياقها الاجتماعي العام من خلال تملك المجتمع البشرى لها كوسيلة للتفاهم، وصورة من صور التفاصح، لبيان الفروق الفردية بين المبدع والآخر حين يتخذها أداة له في إبداعه، كل ما هنالك أن الإبداع الفنى من خلال اللغة ظل معلقاً بذلك السياق الخاص المتميز حين يأتى عليه الشعر بما لديه من إلهام وطاقات خاصة، أو – على أكثر تقدير– ربطوا الظاهرة بما تصوروه وَهْمًا فى (وادى عبقر) و(شياطين الشعر) التى تساعدهم على الإبداع على نحو ما عكسه قول جبلة ابن الأيهم مفاخراً بشيطانه على شياطين غيره من الشعراء :

إنى وكل شـــاعـــر من البـــشـــر

شـــيطانه أنثى وشـــيطانى ذكـــر

وقد أعجز القرآن الكريم الناس عن الخلق بالمعنى الدينى، وما أكثر الأدلة فيه على ذلك، ولكنه لم يعجزهم عن خلق الشعر، ولو شاء ذلك لحرمه عليهم، ولأورد فى ذلك نصاً صريحاً، ولكنه ترك للشعراء مجالات النظم مطروحة مشروطة بمنطق الالتزام فى سياق القيم الجديدة التى تقترب بهم من درجات الإيمان – أو – على الأقل – لا تتنافر معه ولا تعاديه، على النحو الذى سجله الاستثناء فى الآية الكريمة ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [٨٢] . فهى إذن صفات فريق حسُن إيمانه، وحسن شعره فى آن واحد.

(٨٠) نشأة الشعر العربى وتطوره ١٤١ .

(٨١) الأسس الجمالية فى الأدب العربى ، ترجمة البحث فى كتاب جرونباوم ، دراسات فى الأدب العربى، بيروت ١٩٥٩م ترجمة إحسان عباس .

(٨٢) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

ولا شك أن تلك الفئة هى التى أضافت الكثير من معالم المعجم الإسلامى إلى القصيدة الموروثة، مما زادها ثراءً وغنى، وحقق لها اتساقاً واضحاً مع روح العصر وقيمه، وقد استغل شعراؤها رخصة الإسلام فى فتح باب الاجتهاد أمام العقل البشرى، بل تكررت دعوة العقل مراراً إلى مزيد من التأمل فى جوانب الكون، والتدبُّر فى مقوماته وإعجاز خلقه، لتنتهى الدعوة إلى تعريف البشر بمصادر الخير والجمال فى مخلوقات الله ، فهل كان الفن الشعرى إلا ترجمة لجوانب من هذا الجمال فى صياغة جمالية؟ وهل كان الشعراء يستمدون صورهم ومعطيات فنهم إلا من معطيات ذلك الواقع الكونى المتجدد الذى كثر عنه حديث القرآن الكريم؟ فلا شك أن الموقف - بهذا الشكل - يسقط طبيعة الهجوم على الإسلام من خلال القول بأنه أوقف حركة الشعر، إذ كان طبيعياً أن تتحول قيم الفن تبعاً لتحول قيم الحياة ودستورها ، ولا ندرى لماذا يُحْجَر على الشعر أو الشعراء بالذات إمكانية تبنى القيم الرفيعة من الحق والخير والجمال ، مما لا يتنافى - مطلقاً - مع المواقف الوجدانية ، بقدر ما يؤكدها، ولماذا يتردد التأكيد على أن الشعر لا ينبت إلا فى النكد والشر (٨٣) وكأنه رمز سيئ من رموز السلوك البشرى؟.

ولعل الاقتراب من الحقيقة هنا يدفع إلى التسليم بأن الإسلام قد تعمق حياة العربى شاعراً كان أو غير شاعر، مما ينفى - أيضاً - ما سجله قول بروكلمان من نفس المنطق الهجومى « لم يؤثر الإسلام تأثيراً عميقاً فى شعراء العرب كما يريد النقاد أن يقنعونا بذلك، فقد سلك شعراء العصر الأموى دون مبالاة مسالك أسلافهم الجاهليين» (٨٤) وكأن بروكلمان ينسى - بدوره - الدوافع التى تكشف عن طابع المبالاة لدى الفريق الذى يقصده من شعراء بنى أمية، ممن راحوا يلبون مطالب الخليفة على الصعيد السياسى، ويسهمون فى تنفيذ مخططه من خلال استعادة العصبية القبلية، لاتخاذ موقف مضاد لتدخل الموالى، وازدياد نفوذهم فى الدولة، بالإضافة إلى تيار العنف الذى سارت فيه الدولة لضمان تأديب الأحزاب السياسية المناوئة لها. وثمة فروق مؤكدة بين المؤثر الإسلامى فى عصر المبعث، وبينه فى عصر بنى أمية ، وخاصة حين تتعقد مشكلات العصر، ويكثر فيه الجدل ، وتتعدد فيه الصراعات، وتكاد المصلحة السياسية العليا للخليفة

---

(٨٣) هذه المقولة للأصمعى فى فحولة الشعراء ، ومردود عليها ببساطة من خلال قصور الأصمعى نفسه فى فهم مقاييس ضعف الشعر أو لينه أو خشونته .

(٨٤) تاريخ الأدب العربى ١٥٦/١ .

تطغى على كل ما سواها ، فهو عصر إحياء للتراث الجاهلى لا يصح للمستشرق أن يتخذ منه شاهداً، وإلا كان نتيجة لغير المقدمة التى بنى على أساس منها رؤيته.

ويستمر بروكلمان فى تبنى نظرته عبر وقائع التاريخ وعصوره المختلفة، فيمتد عنده النظر لينفى سيادة روح الإسلام إلا بعد ظهور العباسيين « وهذه الروح الإسلامية لم تقصر اتجاهها- حينئذ - على محاربة تهاون العرب الدينى فحسب، بل قاومت كذلك طبيعة العصبية القومية نفسها، فإن العباسيين قد استعانوا على العرب بالموالى وخصوصاً بمن أسلم من أهل خراسان ، واعتمدت دولتهم على العجم، وإن استقامت نخوة العرب فى خراسان، وهكذا نما فى عهد العباسيين أدب إسلامى بلسان عربى » (٨٥) .

وكأن بروكلمان بمقولته هذه يتجاهل حقائق كثيرة جداً، منها ما كان من انتشار التيار الإسلامى وسيادته فى الشعر الأموى (٨٦) ومن قبله - بالطبع - فى شعر صدر الإسلام بأفضل مما شهده العصر العباسى ، وكأنه تناقض مع نفسه حين أغفل ما سجله من إعجابه بشاعرية كعب بن زهير، وما قدّره من مكانة بردته المشهورة فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ما سجله من فضل انتشار شعر (حسان) شاعر النبى فى الأزمنة المتأخرة من بعده، وما برر به لذلك من غرضه العظيم الأهمية وهو مدح النبى صلى الله عليه وسلم.

ومع هذه التناقضات يتناسى بروكلمان أيضاً ما كان من أمر (الزندقة) فى العصر العباسى على مستوى الانتشار والشيوع إلى درجة الفساد الأخلاقى والدينى بشكل راح يمثل خطراً على شباب العصر. أضف إليها انتشار فلسفة الإرجاء وإباحة الفوضى السلوكية والانحلال الأخلاقى، والمجاهرة بالآثام والدعوة إلى ارتكابها مما لا يساير روح الإسلام ، ولم يشهد العصر إلا قلة من الزهاد قبعوا فى المساجد يصوغون فلسفة للزهد الإسلامى، ولا أظن المستشرق يضع هؤلاء الزهاد فى اعتباره وهو بصدد طرح مقولته الغريبة.

وخلاصة الرؤية هنا أن طبيعة الشعر فى عصر صدر الإسلام أو ما تلاه من عصر الأمويين أو العباسيين إنما تكشف عن حقيقة هامة مؤداها أن المعجم الإسلامى بدا قويا

(٨٥) تاريخ الأدب العربى ٣/١٥٦ .

(٨٦) انظر كتابنا (أشكال الصراع فى القصيدة العربية) الجزء الثانى .

شديد التأثير والانتشار فى نفوس الشعراء، ومن ثم كانت انعكاساته فى شعرهم، فلم نشهد له خفوتا ولا انسحابا إلا حين ينتكس الشاعر عقائدياً ليتخلى عن أي من مقومات إسلامه، فيبدو – حينذاك – نشازا فى قياس البيئة ، ليدور فى عالم الردة فى العصر الأول ، أو فى عالم الزندقة أو الإلحاد فيما تلاه من العصور. وباستثناء هذه المواقف تتأكد لنا الحقيقة ومعها يزداد حجم المؤثرات الإسلامية وضوحاً وبروزاً ، مما قد تكشفه الجوانب التالية من هذه الدراسة، ومما تسجله أيضاً – تلك الرواية التى أوردها ابن رشيق وأسند القول فيها إلى ابن عباس رضي الله عنهما . « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب . وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا » (٨٧) .

وبذا تنتفى شبهة إيقاف الإسلام لحركة الشعر منذ عصره الأول : بل استمرت حركته المتجددة التى تقبلت ملامح تجديدية أضافت إليه واستوحت منه ، بما يحوِّله من شعر جاهلى إلى شعر إسلامى يواكب طبائع الأحداث وحركة التطور المتميزة مع بداية الدعوة إلى الإسلام ، أو ظهور الوعظ ومنطق الإرشاد ، أو بدايات الزهد والتقشف ، أو الحكمة، أو تصوير الغزوات الإسلامية الكبرى ، أو الفتوح الإسلامية، على نحو ما يفرضه الحدث الجديد من تجديد حتمى فى قياس ذلك المعجم الذى رأينا منه شواهد ربما تشير إلى سيادة الظاهرة بما يكفى للاطمئنان إلى رصدها من خلال مادة العصر ونصوص شعره (٨٨).



(٨٧) العمدة ١/ ٣٠ .

(٨٨) تراجع دراسات العصر الإسلامي للدكتور شوقى ضيف ، تاريخ الشعر الإسلامى للدكتور يوسف خليف ، الشعراء المخضرمون للدكتور يحيى الجبورى ، شعراء إسلاميون للدكتور نورى القيسى ، الشعراء المخضرمون للدكتور عبدالحليم حفنى .



الفصل الثانى

تحول صيغ المعالجة فى عصر بنى أمية

(١) التنوع والتجديد .

(٢) المعجم وسياسة العصر .

(٣) مصادر المادة .

(٤) خصائص المعجم .

(١)

تعددت الأحزاب المناوئة للخلافة الأموية ، حيث راح كل حزب يضرب فى اتجاه خاص منذ راح يطرح نظريته السياسية التى تبدو بالضرورة معادية لبنى أمية على نحو ما صنع الزبيريون والخوارج والشيعة ، ومن ثم تبينت ضرورة استعانة الدولة بشعرائها الكبار للدفاع عن كيانها وتأكيد شرعيتها ؛ وإفحام خصومها من شعراء الأحزاب المعارضة ، وبذا أصبح من أغلى ممتلكات شاعر الخلافة ، وكذلك شعراء الأحزاب المضادة توظيف المعانى والقيم الدينية التى يصدر عنها كل منهم زيادة فى الإقناع بقضيته ، واطمئنانا إلى انتصاره لها ، وتفنيد أدلة خصمه ، وضمان تغلغل شعره فى نفوس المسلمين وسيرورته بين الرعية .

ذلك أن المجتمع المسلم ، شغله التعبير بالإخلال بالقيم الدينية حتى بدا أمرا موجعا إلى حد كبير ، على عكس ما كان من شعراء عصر صدر الإسلام من أمر مشركى مكة ، ممن بدا تأثرهم واهيا بتلك القيم ، حتى إذا تم فتح مكة ودخلوا الإسلام ظهر تألمهم كلما تذكروها ، ويبقى أن نتبين انتشار فن الهجاء أو « النقيضة » الأموية بين الشعراء لتزجية الفراغ - أو بمعنى أكثر دقة وحدَّة - قطع الطريق على الجمهور إيقافا له عن المشاركات السياسية، وعندئذ يتحول الفن الهجائى إلى مباريات لسانية فنية يفتعلها فحول العصر ، وكل منهم يحتاج إلى مبررات الفخر أو الهجاء من واقع أمجاد قومه ومثالب قوم خصمه ، الأمر الذى جعلهم يتخذون من القيم الدينية صورة أو - على الأقل - عنصرا من عناصر هذا الفخر ، أو التعيير والهجاء ، عن طريق إثباتها لأنفسهم ، أو سلبها عن خصومهم على السواء .

وعلى هذا النحو اتجهت الحياة الأموية - على تنوع موضوعات شعرها - إلى الصدور عن المصدر الإسلامى ، تسليماً من الشعراء بضرورة توظيفه فى الفن الشعرى ، وقصداً إلى شيوعه فيه وسيطرته عليه ، باعتباره واحداً من الجداول الكبرى للثقافة الأموية، مما تغلغل بعمق فى عقول الشعراء ، فانعكست مواقفهم من واقع استغلالهم ذلك التيار

الذى استوعبوه جيدا ووعوه فى إطار هذا التوظيف ، حتى رصدوا لفنهم معجما إسلاميا يستقون منه الصور والمعانى على غرار ما كان لدى الجيل السابق من ناحية ، وعلى نحو يتسق مع طبيعة الحياة السياسية الجديدة من ناحية أخرى ، إذ يكفى أن نشير إلى أسماء الفرق لندرك حجم تلك الحاجة إلى المعجم الديني ، فلدينا شعراء للخلافة كحزب سياسى ، وشعراء للزبيريين فى الحجاز ، وأخرون للشيعة التى تمركزت فى الكوفة ، ثم غيرهم للخوارج الذين استقروا فى البصرة ، على التعداد الداخلى للفروع المكونة لكل حزب منها على حدة ، وكذلك كانت الفرق الدينية من الجبرية إلى القدرية إلى المرجئة إلى المعتزلة ، وجميعها فرضت على الشعراء ضربا من التخصص الفنى فى شعره السياسى الذي يدعمه بالمعانى الدينية تأكيدا لحجته ، وضربا من الالتزام الذى يدين فيه الشاعر بالولاء لفرقته فى مقابل نيله من الأحزاب الأخرى (١) .

وربما كان من الأدق أن نعرض لملامح ذلك المعجم قبل إصدار الأحكام ، أو استخلاص الملامح المميزة له . وهو ما يأتى نتيجة التأمل والتعرف على طبيعته ، وما أصابه من تطور أو تحوُّل يفصل بينه وبين المعجم الإسلامى لدى شعراء عصر صدر الإسلام بحكم تحول ظروف الحياة ذاتها على المستويات السياسية والحضارية والفكرية .

وقد بدت معانى الآيات القرآنية الكريمة معينا مشتركا أمام الشعراء يتبارون فى الإفادة منه والتناص معه ، ومنها وردت مؤثرات كثيرة ازدحمت بها أبيات الشعر ، بعضها يرتد إلى دلالات بعض الآيات دون تضمينها الصريح فى شعرهم بنصها ، إذ راح الشاعر منهم يكتفى بمعنى الآية إلى حيث يريد من مدلولها على نحو ما نجده فى قول الفرزدق :

تلَقَّتْ به فى لَيلة كان فَضْلُها
على الليل ألفاً من شُهور مُقَدَّرا (٢)

أو فى قول جرير أيضا فى بيت له :

فما أحصنَتْه بالصُّعود لِمَالك
ولا ولَدْتهُ أمُّهُ ليلةَ القَدْرِ (٣)

(١) تراجع دراسات الشعر الأموى فى : شعر الفرق للنعمان القاضى، وأدب السياسة للدكتور الحوفى، التطور والتجديد للدكتور شوقى ضيف، فى الأدب الإسلامى والأموى للدكتور عبد القادر القط، وأشكال الصراع جـ٢ للمؤلف.

(٢) ديوان الفرزدق ٢٤٢/١.

(٣) ديوان جرير ٤٢٥/١.

إذ يبدو التأثر واضحاً فى كلا الموقفين بقوله تعالى :

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ ﴾[4] .

وكذا يرد فى قول الفرزدق فى مشهد حربى يرسمه لخصوم الخلافة :

كـــأن على دَيْر الجَـــمـــاجم منهمُ

حـصـائدُ أو أعْـجـاز نَخْلٍ تَقَـعَّـرا[5]

حيث لا يخفى تأثره الواضح بقوله تعالى ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝ ﴾[6].

ثم يأتى قول الفرزدق أيضاً :

بشهباءَ لم تَشْرَبْ نفاقاً قلوبُهم

شآميةً تتلوُ الكتابَ المُنشَرَا[7]

حيث يبدو تأثره بالآية الكريمة ﴿ وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۝ ﴾[8] .

أو قوله تعالى ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝ ﴾[9] .

إلى جانب تناوله لفكرة النفاق ، وكيف أشربتها قلوبهم على لغة النص القرآنى فى الهجوم على المنافقين .

كما يتردد أيضا فى قول جميل :

فـــفـــاتينى إلى حَكَـم مِـــنَ اَهْـــلى

وأهلك لا يَحِـــيفُ ولا يمـــيلُ[10]

---

(٤) سورة القدر.

(٥) ديوان الفرزدق ١/٢٤٢

(٦) سورة القمر.

(٧) ديوان الفرزدق ١/٢٤٣.

(٨) سورة الطور ٣.

(٩) سورة الإسراء ١٣.

(١٠) ديوان جميل ١٠٠.

حيث يستوحى المعنى بصورة غير مباشرة من الآية الكريمة ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ (١١) .

وعلى غرار تلك البساطة أتى قول جرير :

فـمــا يســتـوى داعى الضـلالة والهُـدى

ولا حُـجَّـةُ الخَـصْـمَـيْن حقٌّ وباطِلُ (١٢)

حيث يبدو تأثره بالحس الإسلامى العام ، ثم الخاص من قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ (١٣) .

وعلى نفس النهج قال مالك بن الريب مصوِّرا حاله بين صعلوك ثم مجاهد إسلامى :

أَلَمْ تَرَنِــى بِعْــتُ الضَّـــلاَلَة بالهُـدَى

وأصبَحْتُ فى جَيْش ابن عَفَّانَ غَازِياً (١٤)

متأثرا فى ذلك بمدلول الآية الكريمة وقد أخذ عكس الدلالة حين استعمل البيع بدلا من الشراء من قوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ (١٥) .

ومن أشباه تلك المؤثرات أيضاً ما تطرحه الصورة التى رسمها ابن قيس الرقيات شاعر عبد الله ومصعب والحزب الزبيرى فى قوله :

أيـهـا المُسْتَحل لَحْمِىَ كُلَّهُ   من ورائِى ومن وراكَ الحِسابُ (١٦)

حيث يستمد مقومات الصورة من قوله تعالى ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (١٧) .

كما يقول ابن قيس أيضا :

هَلْ تَرى من مخلَّد غيرَ أن اللّـ   ـه يَبْقَىَ وتذهبَ الأشياء (١٨)

---

(١١) سورة النساء ٣٥.

(١٢) ديوان جرير ٤٠٣/١.

(١٣) سورة فاطر ١٩.

(١٤) شعراء أمويون ٤٢/١.

(١٥) سورة البقرة ١٧٥.

(١٦) ديوان ابن قيس ١٨٦.

(١٧) سورة الحجرات ١٢.

(١٨) ديوان ابن قيس ٨٨.

من قوله تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) ﴾[١٩] .

وكأن الموقف يبدو قاسما مشتركا مطروحاً بين الشعراء فى زحام ذلك التنوع البيئى بين شعراء الشام وشعراء العراق ، وكذا شعراء الحجاز بين أهل المدن وأبناء البوادى ، إلى جانب ذلك التعدد المذهبى الذى تبدَّى جلياً سواء على المستوي السياسى أو الدينى ، وإذا بالفرزدق أيضا يعكس بُعْداً آخر لهذا التأثر فى الصياغة فى قوله :

ولستَ بمأخوذٍ بلَهْوٍ تقولُه

إذا لم تُعمَّد عاقداتِ العَزائم [٢٠]

من معنى الآية الكريمة ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ ﴾ [٢١] .

وهو ما يتردد له نظير أيضا فى قوله وقد استوحى مادته من مشاهد القيامة التى رسمتها الآيات القرآنية ، فيقول :

بُقُوةِ اللَّه الذى هو باعثٌ

عباداً له من خلقه حين نَشَّرا

عصائبُ كانت في القُبور فبُعْثِرَتْ

وعادَ ترابا خلقُه حين قدَّرا [٢٢]

من قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) ﴾ [٢٣]

أو قوله تعالى :﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) ﴾ [٢٤].

أو قوله تعالى عن النشور ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [٢٥].

---

(١٩) سورة الرحمن ٢٦/٢٧.
(٢٠) ديوان الفرزدق ٢/٣٠٧.
(٢١) سورة المائدة ٨٩.
(٢٢) ديوان الفرزدق ١/٥٨٤.
(٢٣) سورة العاديات ٩.
(٢٤) سورة الانفطار ٤.
(٢٥) سورة الملك ١٥.

وفى صورة من فخره القرشى والحزبى معا يقول ابن قيس الرقيات :

ليس للّه حُرْمَة مثلُ بَيْتٍ
نحنُ حُجّابهُ علينا المُلاءُ
خصَّه الله بالكرامة فالبَا
دونَ والعاكفون فيه سَواءُ [٢٦]

من قول الله تعالى : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [٢٧]. ومن مثل ذلك التأثر قول جرير وإن مال إلى طرح غير مباشر بما تأثر به حيث يقول :

ماذا تَرَى فى عيال قد بَرِمْتُ بهم
لم تُحْصِ عِدَّتهم إلا بَعدَّاد
كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية
لولا رجاؤكُ قد قَتَّلْتُ أَوْلادى [٢٨]

فهو تأثر غير مباشر بالصياغة القرآنية : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [٢٩] . وفى قوله تعالى ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ [٣٠] أو صدى الآية الكريمة ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ . وفى قول ابن قيس ما يوحى بالتأثر حتى بالإيقاع الصوتى لبعض الآيات من مثل قوله :

جزىَ الله يوم المَرْج رَعْلاً وقُنْفذا
جزاءً كريما يوم تُبْلَىَ البَواطنُ [٣١]

إذ يستلهم الصياغة من إيقاع الآية الكريمة ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) ﴾ [٣٢] وكذا ترد الصورة التى رسمها قول جرير :

---

(٢٦) ديوان ابن قيس ٩٥.
(٢٧) سورة الحج ٢٥.
(٢٨) ديوان جرير ٢/٤٥.
(٢٩) سورة الجن ٢٤.
(٣٠) سورة الكهف ٢٥.
(٣١) ديوان ابن قيس ١٠٦.
(٣٢) سورة الطارق ٧.

ما زلتُ معتصماً بِحَبْل منكمُ

مَنْ حلَّ نجوتكم بأسباب نجا [٣٣]

إذ يستمدها من الصورة التى رسمتها الآية الكريمة ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ . فإذا قال الفرزدق عن أعداء ممدوحه :

رجوا من حرها أن يَسْتريحوا

وقد كان الصديد لهم شرابا [٣٤]

وجدناه يتأثر بالآية الكريمة ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [٣٥] .
وهو ما يزداد لديه انتشارا على مستوى اللوحة الفنية التى رسمها قوله :

إنى حَلَفْت ولم أحْلف على فَنَد

فناءَ بَيْت من الساعينَ مَعْمُورِ

فى غرفة الجنة العليا التى جعلت

لهم هناك بِسَعْيٍ كانَ مَشْكُورِ

فلَنْ تزال لكم والله أُثْبِتَها

فيكم إلى نفخة الرحمن فى الصُّورِ [٣٦]

إذ يستمد للصورة أركانها وزواياها من الآيات :

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ ﴾ [٣٧] ، وكذا من قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [٣٨] وقوله تعالى : ﴿قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ [٣٩] .

هذا إلى جانب تأثره الواضح بالمشاهد الدينية إزاء الأيمان الصادقة وغيرها ، أو مشهد السعى فى البيت المعمور كشعيرة دينية ، إلى مشاهد القيامة التى استوقفه منها نفخة الصور ، وغرف الجنة العليا التى أعدت للمؤمنين .

(٣٣) ديوان جرير ٢٤٤/١.
(٣٤) ديوان الفرزدق ١٠٤/١.
(٣٥) سورة إبراهيم ١٦.
(٣٦) ديوان الفرزدق ٢١٤/١.
(٣٧) سورة الطور ٤ .
(٣٨) سورة الإنسان ٢٢.
(٣٩) سورة الأنعام ٧٣.

ويقول الفرزدق أيضا على نفس المستوى من الأبيات المتناثرة :

ورواح مُـــعْـــصــفـــة وغُـــدْوَتـــهـــا

شـــــهـــــر تواصله إلىَ شَـــهْـــر [٤٠]

متأثرا بمعنى الآية الكريمة ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [٤١] .
كما يقول :

قـــد خنَقتْ تِسْـعــــيـن أو كَـــــربت

تـدنو لآخـــرَ أرذلَ الـعُـــــمُــــرِ [٤٢]

متأثرا بدلالة الآية الكريمة : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [٤٣] .

ومن ذلك قوله فى أكثر من مشهد معاً وكلها مرتبطة بقداسة الخلافة كما روج لها شعراؤها :

إذا يثـــورون أفـــواجـــاً كـــأنهــــمُ

جـرادُ ريـــح مـــن الأجـداث مَنْشُـــورُ

لـــو لَـمْ يبـشـر بـــه عـيسـى وبيَّنَـهُ

كنتَ النبيَّ الذى يدعـــوُ إلى النُّور [٤٤]

إذ يستعرض الصورة التى رسمـتها الآية الكريمة فى تصوير مشـاهد القيامة ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ ﴾ [٤٥] وكذا فى قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [٤٦] . إلى جانب حسه الدينى العام فى حديثه عن بشارة عيسى عليه السلام ، وبيان محمد صلى الله عليه وسلم وفصاحته، وما جاء به عن الفرقان الهادى إلى النور . ويدخل فى هذا الإطار أيضا ما رسمه الأحوص فى قوله من أبيات غزلية ينعكس فيها حسه الإسلامى :

(٤٠) ديوان الفرزدق ١/٢٦١.
(٤١) سورة سبأ ١٢.
(٤٢) ديوان الفرزدق ٢٦٦.
(٤٣) سورة الحج ٥.
(٤٤) الفرزدق ١/٢١٤.
(٤٥) سورة القمر ٧.
(٤٦) سورة الحديد ٩.

كـــأنّــى مــن هــواكِ أخـــوُ فِـراش

تُجَلْجِـلُ نفـــسُــه بيــن التَّــراقــى

حلَفْــتُ لــك الغَــداة فــصــدِّقــينى

بــربِّ البــيــت والســبــعِ الطِّبـاقِ

لأنْتِ إلـــى الفـــؤاد أشـــدُّ حُــبًّــا

من الـصـــادِى إلى الكأسِ الدِّهـاق [47]

وكأنه يجمع - قاصدا - أشتات مقومات الصـــورة مما استلهمه من دلالة الآيات ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ [48] ومن قوله تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [49] والآية الكريمة ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ [50] إلى جانب قسمه الدينى برب البيت .

وبذا يبدو من هذا الكم المتناثر فى دواوين الشعراء وأشباهه كثيرة كيف رحبوا بالمصدر الأول من المصادر الإسلامية ، وكيف تنافسوا فى الإفادة مما ورد فى الآيات الكريمة ، بشكل غير مباشر أو مباشر أحيانا ، ذلك أننا لا نتحدث عن التضمين عندهم ، بل نكتفى هنا بمجرد التأثر الذى يكشف عن صدى الآية الكريمة فى ذهن الشاعر ، وهو أمر طَبَعي لقرب أولئك الشعراء من القرآن من ناحية باعتباره امتدادا للعصر الأول ، ولأن العصر عصر تدوين يدعو إلى تأملهم ما يدور فى علوم التفسير وما دُوِّن منها من ناحية أخرى . ومع بقية المؤثرات بصورة أكثر منهجية وتوزيعا يمكن أن نستكمل هذا الحوار .

* * *

---

(٤٧) ديوان الأحوص ١٦٤.

(٤٨) سورة القيامة ٢٥.

(٤٩) سورة النبأ ٣٤.

(٥٠) سورة نوح ١٥.

(٢)

وقد بدا للقصص الديني رصيد ضخم ضمن مجالات التأثير في شعراء هذا العصر، وكأنهم راحوا يتبارون في الإفادة منه ، على نحو ما نجد من تأثير قصة نوح (عليه السلام) في لوحات كاملة للشعراء على غرار ما يقوله القطامي :

نرجُو البقاءَ ومَا مِنْ أُمَّة خُلِقَتْ
إلا سيُهلكها ما أهلَكَ الأمَما

أمَا سمعتِ بأن الريحَ مُرْسَلَةٌ
في الدهر كانت هلاكَ الحيِّ من إِرمَا

وقومَ نُوح وقد كانُوا يقولُ لهُمْ
يا قومِ لا تعبُدُوا الأوثانَ والصَّنمَا

فكذَّبوُا من دَعَا للخَيْر واجْتَنَبُوا
ما قالَ وامتلأتْ آذانُهُم صممًا

فَلا هُمُ رهبُوا ما قدْ أظلهُم
ولا نبيُّهم عمَّى ولا كتَمَا [٥١]

إذ يشكل الشاعر لوحته من مادة القصص القرآني بدءاً من تاريخ الأمم القديمة وصور هلاكها ودلالة ذلك الهلاك على عصيانها ، وسبل من مصائرها على طريقة دمار (إرم ذات العماد) عن طريق الريح (المرسلة) تعكس غضب الخالق عليهم ، أو ما كان من مكابرة قوم (نوح) وقد دعاهم فعموا وصموا وتجنبوا الخير الذى جاءهم به فحق عليهم انتقام الخالق منهم انتصارا لنبيه وكلمة الحق التي جاءهم بها .

---

(٥١) ديوان القطامى ١٠٠.

وفى لوحة ثانية للقطامى يقول متأثرا بنفس القصة فى معرض الإنذار والوعظ :

فَمَا مِنْ جِدَّةٍ إلا سَتَبلَى
ويبقى بعد جدتها الخَبَارُ

وأنذركُمْ مصائرَ قومِ نُوحٍ
وكانَتْ أُمَّةٌ فيها انتِشَارُ

وكانَ يُسَبِّحُ الرحمنَ شُكْراً
ولله المحامدُ والوَقَارُ

فلمَّا أن أرادَ الله أمراً
مضى والمشركونَ لهم جِوَارُ

ونادَى صاحبَ التَّنُورِ نوحا
وصبَّ عليهِمُ منهُ الوَبَارُ

وضجُّوا عن مَجِيئَتهِ إليهم
ولا يُنْجِى من القَدَرِ الحِذَارُ

وجاشَ الماءُ مُنْهَمِراً إليهم
كأنَّ غُثَاءَهُ خَرْقٌ نَشَارُ

وعامَتْ وهْىَ قاصِدَةٌ بإذْنٍ
ولولا اللهُ جَارَ بها الجِوَارُ

إلى الجوديِّ حَتَّى صار حِجْرا
وحانَ لتارك الغَمْر الخَسَارُ

فهذا فيه موعظةٌ وحُكْمٌ
ولكنىٌّ امرؤٌ فىَّ افتِخَارُ (٥٢)

---

(٥٢) ديوان القطامى ١٤٣.

هنا يأخذ التأثر بالمعجم القصصي القرآني أبعاداً أكثر تفصيلا وعمقا ، حيث عكف الشاعر على جوانب من القصة يحكيها ويوظفها في أبياته التي ختمها بصراحة موعظته وحكمه بعد أن قدم بحكمة أخرى تطابقها ، وبين الحكمتين الأولى والأخيرة راح يلتقط من مشاهد القصة ما كان من إنذار نوح عليه السلام لقومه وتسبيحه لربه شكرا وحمدا ، ورفض قومه لدعوته وقد ضجوا منه وضاقوا به ، حتى جاءهم الطوفان عقابا من ربهم ، ولم يكن لهم منه منجاة ولا حذر إلا من عصم الله ، فكانت نجاة نوح ومن معه في سفينته وقد استوت على الجودي ، وسارت باسم الله مجريها ومرساها .

وعلى نفس المستوى من القياس للمواقف التأثيرية كانت صور الفرزدق مع خصمه من خلال ما صوره موقف ابن نوح قائلاً :

فلمَّا عَتَا الجَحَّادُ حينَ طغَى به
غِنَى قال : إنى مُرتَقٍ فى السَّلاَلِم
فكانَ كما قال ابنُ نوح سَأرْتقى
إلى جَبَلٍ من خَشْيَةِ الماءِ عَاصِمِ (٥٣)

وكأنما استوقفه وجه الشبه المحدد بين عصيان الجحاد وبين عصيان ابن نوح لأبيه منذ نصحه « يا بنى اركب معنا ... » إلى رفضه النصح وما كان من مكابرته « قال سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء »ومن ذلك أيضاً قول جرير :

لو تعلمين الذى نَلْقىَ أوَيْتِ لنَا
أو تسمعين إلى ذِى العرش شَكْوَانا
كصاحبِ المَوْج إذ مَالَتْ سفينتُهُ
يدعُو إلى الله إسراراً وإعْلاَنَاَ
يا أيهَّا الراكب المُزْجى مَطِيتَّهُ
بلِّغْ تحيتَّنَا لُقِّيتَ حملاَنَا (٥٤)

---

(٥٣) ديوان الفرزدق ٢/٣٠٩.

(٥٤) ديوان جرير ١/٣٠١.

ومن مثله قوله أيضا :

ومــسلم جــرار الجــيــوش إلى العــدا
كــمــا قــاد أصــحــاب السـفـينة نُــوحُ
يداك يَـدٌ تســقــى السِّــمــام عَــدُوَّنا
وأخــرى بريات السَّــحَــاب تَفُــوحُ (٥٥)

فمن الواضح من واقع دلالة تلك الشواهد أن القصص الديني قد أصبح قاسما مشتركا يتعاوره شعراء العصر، راحوا ينهلون منه في الصياغة الجمالية لقصائدهم . ومن القصة القرآنية أفادوا ما هو واضح لديهم من توظيفها في مواطن العظة والاعتبار ، أو من التماس التشابه بين المواقف في عصرهم ، وبين أحداث القصص الديني تعلقا بتاريخ الأمم البائدة ، ولذا بدت الإفاضة واضحة في تفاصيل القصة - أحيانا - من قبيل تأكيد تلك العظة ، وبعث الاطمئنان إلى مواضع الاعتبار منها ، وإن كان يلاحظ - أيضا - أنها تنمو نموا تفصيليا تعرضه القصة الدينية ذاتها ، على نحو ما ظهر في حوارهم حول مقوماتها من السفينة ، وصاحبها ، وابنه ، وقومه ، ثم كان مما شغلهم حتى من أمر السفينة ذاتها : كيف صنعها ، وكيف سارت وكيف مالت ، كما سيطر عليهم من صورته كنبي كيف تبنَّى دعوة قومه إلى التوحيد ، وكيف عَصَوْه ورفضوها ، وكيف استمر في دعوته لعبادة الرحمن دهراً ، وهم ينكصون عن الاستجابة ، ويتحدون صاحب الرسالة ويخذلونه ، ومما زاده حزنا وأسفا ماكان من صورة ابنه وعصيانه ونصحه ، وكيف تصور إمكانية النجاة بصعوده إلى الجبل . وهي عناصر صاغتها القصة القرآنية في كثير من الآيات الكريمة من مثل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾(٥٦).

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ (٥٧).

فهؤلاء قوم نوح وهذه صفاتهم كما رصدها القرآن الكريم والتقطها من خلال آياته الشعراء ، وهم يدخلون في زمرتهم أمثالهم من الأقوام والأمم :

(٥٥) ديوان جرير ٣٨٨/٢.
(٥٦) سورة الذاريات / ٤٦.
(٥٧) سورة النجم ٥٢.

﴿ مثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾(٥٨).

وهاهو نوح – عليه السلام – منذ اصطفاه الله واختاره للرسالة ، إلى ماكان من موقفه من قومه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ﴾ (٥٩).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (٦٠).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٦١).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (٦٢).

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ (٦٣).

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ (٦٤).

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) ﴾ (٦٥).

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ (٦٦).

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) ﴾ (٦٧).

وها هو مشهد السفينة ، وموقفه من ابنه وقومه، وصورة الطوفان ، وكيف نجا عليه السلام ومن آمن معه :

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) ﴾ (٦٨).

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (٦٩).

﴿ إِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ (٧٠).

---

(٥٨) سورة غافر ٣١.
(٥٩) سورة آل عمران / ٣٣.
(٦٠) سورة الأعراف ٥٩.
(٦١) سورة هود ٢٥.
(٦٢) سورة العنكبوت / ١٤ .
(٦٣) سورة هود ٣٦.
(٦٤) سورة هود ٣٢.
(٦٥) سورة الشعراء / ١١٦.
(٦٦) سورة نوح ٢١.
(٦٧) سورة نوح ٢٦.
(٦٨) سورة الصافات.
(٦٩) سورة المؤمنون ٢٧.
(٧٠) سورة المؤمنون ٢٨.

﴿ ويَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ (71).

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) ﴾ (72).

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42) ﴾(73).

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾(74).

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾(75).

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ (76).

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ﴾ (77).

ومن واقع القصة بهذاالتعدد فى المشاهد ، وعلى هذا النحو من التناص مع الآيات، والإفادة الواضحة لدى الشعراء كان موضوع العظة ومواضع الاعتبار مرصوداً ومستخلصاً منها فى بعض آيات القرآن الكريم ذاتها:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) ﴾ (78).

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (79).

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (80).

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ (81).

---

(71) سورة هود 38.

(72) سورة الإسراء 3.

(73) سورة هود 42.

(74) سورة هود 45، 46.

(75) سورة هود 43.

(76) سورة هود 48.

(77) سورة الشعراء 119.

(78) سورة ق 12.

(79) سورة النساء 163.

(80) سورة الشورى 13.

(81) سورة الفرقان 37.

وقد يغلب على الشاعر ميله إلى الإطالة والتفصيل فى رسم اللوحة من خلال أرصدة القصص الدينى التى يتخذها أساسا لعرض موقفه الفنى، على نحو ما اصطنعه الفرزدق فى قصيدته الميمية المشهورة حول هجائه إبليس عليه لعنة الله وتصوير صراعه معه حتى انتصر عليه، حين بدا تائباً عن فسقه ومجونه فراح يقول له ساخراً متهكماً:

أَلَمْ تَرَنى عـاهَدْتُ رَبّى وأَنَّنى
لَبَيْنَ رِتَاجٍ قـائمٍ ومُـقَـامِ

على قَسَمٍ لا أَشْتُمُ الدهرَ مُسْلِماً
ولا خَارِجًا مِنْ فِيَّ سوءُ كَلام

أَلَمْ تَرَنى والشِعرُ أصبحَ بَيْنَنَا
دَرُوءٌ من الإسلام ذاتُ حَوام

وبعد استعراضه المواقف – بهذه الصورة – راح يعقد الموازنة قبل التوبة وبعدها فى بيتين متواليَيْن:

أَطَعْتُكَ يا إبليسُ سَبعينَ حِجَّةً
فلما انتهى شَيْبى وتمَّ تَمَامى

فَـرَرْتُ إِلىَ ربِّى وأَيْقَنْتُ أَننَّى
مُلاقٍ لأيَّامِ المَنونِ حِمَامِى

وكأنه يتخذ من الموقف مدخلاً يتجاوز قصته هو نفسه معه على مدار سبعين عاماً مضت من عمره ، ليؤكد القرائن من خلال قصص دينى يؤكد مقولته حول إضلال البشر من لدن آدم عليه السلام . وعندئذ يتناول الشاعر ما كان من قصة بدء الخليقة ومشهد صراع إبليس مع آدم – عليه السلام – حتى وسوس له فأساء إليه :

وآدمَ قـد أَخْرَجْتَهُ وهو سَاكِنٌ
وزوجَتُهُ ، من خير دارِ مُقَام

وأقسمتَ يا إبليسُ أنَّكَ ناصحٌ
له ولها، إقسامَ غير أثام

وكلما تعمق الصورة ازداد ضيقاً به وبوسوسته التى راح يرفضها مراراً وخاصة كلما تذكر بعضا من قصصه، فإذا هو يردف قصته مع آدم عليه السلام بقوله :

ومـــا أنتَ يا إبليسُ بالمــرءِ أَبْتَــغى
رضـــــاه، ولا يقـــتـــادُنى بِزِمَـــام

فكَمْ من قُرون قد أطاعُوكَ أَصْبَحُوا
أحـــاديثَ كـــانُوا فى ظَلام غَــمَـــام

ومن الواضح أن أطراف القصة متكاملة قد تركت آثارها واضحة فى إبداع الشعراء - كما رأينا - عبر كثير من مواقفهم الفنية، فتكرر رجوعهم إليها من مصدرها الدينى، فأخذوا منها ما أخذوه فى مواطن العظة والاعتبار، أو عرضوا منها ما عرضوه وجهاً للشبه من خلال قضية العصيان، أو الجزاء الذى حل بالقوم فى أى منها.

ولعل مجال القصص الدينى بدا من أوسع المجالات اتساعاً أمام الشعراء، ومعه تعدَّدت الصور وتناثرت اللوحات الفنية، ودأب بعضهم على البحث والتقصِّى وراء هذا القصص حتى يستمد منه صوره، وحتى من قصة إبليس ظهر تأثر الشعراء، وبدا الموقف عندهم موزعاً بين إيجاز وتفصيل، وكأن إبليس - بهذا القياس - يصبح رابطاً مشتركاً لكثير من قصص الأقوام التى عصت الرسل، أو رفضت الدين وكابرت. وحول رصيد من هذه الأبيات نرى الموقف يزداد جلاءً من خلال الفرزدق أيضاً على سبيل الإيجاز:

وقــد كنتَ ضَــرَّاباً لهــا يا ابنَ يُوسف
جـمـاجمَ من عَــادَى الإمــامَ وشَــيَّـعــا

جـمـاجمَ قــومٍ ناكـثـِين جـرَىَ لهم
إلىَ الغى إبليسُ النِّفــاق وأوضـــعـــا [٨٢]

كما يرد له أيضاً فى دائرة الإيجاز قوله :

لقـد ضـرب الحجـاجُ ضـربةَ حَـازم
كـبـا جندُ إبليس لهـا وتَضَـعْـضَـعُـوا

(٨٢) ديوان الفرزدق ٣٩٩/١.

أضـــاءَ لهـــا مـــا بين شَـــرْق ومَـــغْـــرِب

بِنُور مُـــــضـــيءٍ والأسِنَّةُ شُـــــرَّعُ

وخَـــرَّت شـــيـــاطينُ البـــلادِ كـــأنَّهـــا

مـــخـــافـــةَ أخـــرى فى الأزِمَّـــةِ خُـــضَّعُ [٨٣]

بل يتمنى لو استطاع أن ينتقم لنفسه منه ، وأن يجزيه من سوءات ما أحله به من قبل :

ســـأجْـزِيكَ من سَـوْءَات مـــا كنتَ سُـقْـتَنى

إليــــه جـــرُوحـــا فـــيكَ ذاتُ كِـــلاَمِ

وإلى جانب قصة آدم ينتقل إلى قصته مع (أهل الحجر) فى موقفهم من ناقة نبى الله صالح ، وما كان من قدار حين عقر الناقة، وقد أمروا أن يتركوها فعصوا أمر ربهم :

ألم تأتِ أهلَ الحِـــجْـــر والحـــجـــرُ أهلُهُ

بأنْـعَم عـــــيشٍ فى بُيُـــــوت رُخَـــــام

فـــقلتَ : اعـــقِـــروا هذى اللقـــوحَ فـــإنَّهـــا

لكم، أو تنيـــــخـــــوها لَقُـــــوحُ غَـــرَام

فلمَّـــــا أناخـــــوها تبـــــرأتَ مِنْهُـمُ

وكنتَ نَكُـوصـــــا عندَ كلِّ ذِمَـــــامِ

وكأنه راح يجمع أشتاتا من القصص الدينى الذى يجمعه سلوك إبليس بين إيقاع ضحاياه فى شَرَك الخديعة، ثم تنكره لهم وفراره منهم وهو ما صوره فى مشهد آخر من نفس القصيدة حين جعل فرعون أخاً له - أى إبليس- وقد صوَّر جانباً من مشهد غرقه وجيشه فى البحر حيث يقول:

يُبَـــــشِّـــــرُنـى أنْ لَنْ أمـــــوتَ وأنَّه

ســـــيُـــــخْلِدُنى فى جَنَّةٍ وسَـــــلاَم

---

(٨٣) ديوان الفرزدق ٤١٧/١.

فـــقلتُ له : هَلاَّ أُخَـــيُّك أخــــرجَتْ

يَمــينُك من خِـضـــر البُـــحــور طَوَامِ

رمـــــيْتَ به فى اليَمِّ لمَّـــا رأيتَـــهُ

كـــفِـــرْقَـــةِ طَوْدَىْ يَذْبُل وشـــمـــام

فلمَّـــا تلاقَى فـوقــه المــوجُ طامِــيــاً

نكَصْتَ، ولم تحــــتَلْ له بِمَــــرَامِ

وحين يريد الخلاص إلى العبرة يسجل موضع الاعتبار ليعمم مشهد الخديعة الذى تكرر عبر المشاهد الجزئية المتلاحقة.

وبذلك بدا القصص القرآنى مصدراً ثرًا لدى شعراء العصر، يستمدون من جوانبه المختلفة حوارهم ويستمدون صورهم ، ويطرحون تفاصيلها أو يوجزون فيها ، على نحو ما رأينا فى مواقف الفرزدق. وما زال الشعراء يدورون حول ذلك القصص، فيستخدمون تأثيرات مكررة من قصة يوسف عليه السلام ، مما نجد له صدًى واضحاً عند جرير فى مدحه أيوب بن سليمان بن عبد الملك حيث يقول :

اللـه أعطـاكمُ مـن عِلـمِــــــه بكـمُ

حُكْمــاً ومـــا بعــدَ حُكْمِ الله تعــقــيبُ

أنتَ الخليـــفــةُ للرحـــمن يعـــرفـــهُ

أهـلُ الزَّبـور وفى التـــوراةِ مكتُـــوب

كـــونوا كـــيــوسُفَ لمَّـــا جـاء إخــوتُه

واستَـعْـرَفُوا، قـال: مـا فى اليـوم تثـريب

اللّـهُ فــــضَّله والله وَفَّـــــقَــــهُ

توفــيقَ يوسفَ إذ وصَّـــاهُ يَعْـــقُــوب (٨٤)

حيث يستمد من القصة القرآنية وصية يعقوب – عليه السلام – ، وكيف كانت مكانة

---

(٨٤) ديوان جرير ٣٤٩/١.

يوسف – عليه السلام – وقد اجتباه ربه ، وكيف عفا عن إخوته حين أتوه وتعرفوا عليه، كما برز تأثره من القصة بحلم الملك وفكرة السبع العجاف فى قوله :

وأنــتَ لا تــوردُ بــالأجْـــــــــــــــوَاف
غــيــــرَ ثمـــانى أيْنقٍ عِـــجـــافِ [85]

لتبقى أمامنا كل العناصر التى عكف عليها الشاعر دالة على ما أفادته على سبيل التناص مع آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ [86] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ [87] .

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ [88] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ [89] .

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) ﴾ [90] .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ [91] .

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ [92] .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ [93] .

﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [94] .

على أننا لا نزعم فى رصد مواد المعجم القصصى أن الشاعر قد التزم بكل عناصر القصة التى استوقفته . إذ يظل مؤكداً أنه أقام تأثره بها على الاختيار، فهو إنما يختار من

---

(٨٥) ديوان جرير ٢/٧٣٣.

(٨٦) سورة يوسف ٤-٥.

(٨٧) سورة يوسف ٢١.

(٨٨) سورة يوسف ٤٦.

(٨٩) سورة يوسف ٥٦.

(٩٠) سورة يوسف ٥٨.

(٩١) سورة يوسف ٦٩.

(٩٢) سورة يوسف ٩٠.

(٩٣) سورة يوسف ٩٩.

(٩٤) سورة يوسف ٩٢.

عناصر القصة ما يبدو متسقاً مع موضوعه، ومع ما يمكن أن يطرحه فيما يرمى إليه من تأكيد للموقف التقريرى فى حديث العظة والاعتبار ، أو التصويرى فى المدح أو فى الهجاء، وكأنما أفسح الشاعر لنفسه مجالاً لطرح بعض مما أفاده من القصص القرآنى اتساقاً مع المواقف المتعددة، كما حدث فى موقفه من قصة (السامرى) على نحو من قول جرير :

يا آلَ بارقَ لو تقدَّمَ ناصحٌ

لِلبارقىِّ فإنَّهُ مَغْرُورُ

كالسامرىِّ غَداةَ ضلَّ بِقَوْمِهِ

والعِجلُ يعكفُ حولَهُ ويَخُورُ (٩٥)

ويبدو أنه لم تشغله من قصة (السامرى) إلا دلالتها على ذلك الضلال الذى ردّده حتى جعله مثلاً وموضعاً للاعتبار :

ولما دَعَوْتَ العنبرىَّ بَبلْدَة

إلى غير ماءٍ لا قريبٍ ولاَ أَهْلِ

ضَلَلْتَ ضلالَ السَّامرىِّ وقومِه

دعاهُمْ فظلُّوا عاكِفينَ على عِجْلِ (٩٦)

وكأنه يستوحى معانيه مما ورد من آيات قرآنية حول قصة السامرى من مثل قوله تعالى :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ (٩٧)

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ (٩٨)

﴿ قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (٩٩)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (١٠٠)

﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١٠١)

---

(٩٥) ديوان جرير ١/٢٦٦.
(٩٦) ديوان جرير ٢/٩٥٢.
(٩٧) سورة الأعراف ١٤٨.
(٩٨) سورة طه ٨٨.
(٩٩) سورة هود ٦٩.
(١٠٠) سورة الأعراف ١٥٢.
(١٠١) سورة البقرة ٩٢.

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ (١٠٢)

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (١٠٣)

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ (١٠٤)

وغالباً ما يستهدف الشاعر من القصص الدينى – كما قلنا مراراً – الاعتبار والعظة، وبدا من حقه أن يجمع كمًّا من هذاالقصص فى مساق فنه، فهو لا يحكى قصة بعينها، ولا هو يقف عند التأصيل لعناصرها وموادها الفنية، بقدر ما يأخذ ما يتراءى له من هذا وذاك بما يتسق وطبيعة المواقف، مادام هدفه منها هو الاستشهاد على ما يقول وتوكيده. على نحو ماكان من الفرزدق حين راح يجمع فى مدح سليمان بن عبد الملك بين كثير من قصص الرسل فى قوله:

جُعِلْتَ لأهْل الأرض أَمْنًا ورَحْمَةً
وبُرْءاً لآثَار القُروح الكَوَالِمِ

كما بعثَ اللهُ النبيَّ مُحَمَّدًا
علَى فَتْرَةَ والناسُ مثلُ البَهائِمِ

فلما عتَا الجحاد حين طغى به
غِنًى قال : إنى مُرتق فى السَّلالِمِ

فكانَ كما قال ابنُ نوحٍ سأَرْتَقى
إلى جَبَل من خَشْيَةِ الماءِ عَاصِمِ

رمىَ الله فى جُثمانه مثلَ ما رَمَى
عن القِبلة البيضاءِ ذاتِ المَحَارِمِ

جُنُوداً تسوق الخيلَ حتَّى أعادَها
هباء وكانُوا مُطْرَخِمِّى الطَّرَاخِمِ

---

(١٠٢) سورة البقرة ٥٤.
(١٠٣) سورة البقرة ٩٣.
(١٠٤) سورة طه ٨٥.

نُصِرْتَ كَنصْرِ البيت إذ ساقَ فِيلَهُ

إليه عظيمُ المشركين الأعَاجِمِ [١٠٥]

فهو يوظف صورته من خلال رصيد دينى من قصص القرآن الكريم، سجَّلته الآيات حول قصة (أهل الفيل) وقصة (ابن نوح) ثم بعثة رسول الله محمد ﷺ :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [١٠٦]

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [١٠٧]

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [١٠٨]

ويبقى عند جرير أيضاً رصيد بارز من تأثره بقصص الأنبياء التى سجلها فى ثنايا أبيات متوالية، على النهج السابق للفرزدق على غرار ما يقوله فى قصيدته فى مدح ابن أحور المازنى، حيث يذكر أبناء إسماعيل مفتخراً من خلالهم بصفاء الأنساب وامتدادها الطاهر:

أبُونَا أبو إسْحَاق يجمعُ بَيْنَنَا

أبٌ كان مَهْدِيًا نَبِيًّا مُطَهَّرا

ومنَّا سليمانُ النبىُّ الذى دعا

فأُعْطِىَ بُنْيَاناً ومُلْكًا مُسَنحرا

وموسىَ وعيسىَ والذى خرَّ ساجدا

فأنْبَت زرعاً دمعُ عَيْنَيْهِ أخْضَرا

ويعقوبُ منا زاده الله رِفْعَةً

وكان ابنُ يَعقُوبٍ أميناً مُصَوَّرًا

فيجمعنا والغرُّ أبناءَ سَارَةَ

أبٌ لا نُبالى بعدَهُ من تَغَدَّرا

---

(١٠٥) ديوان الفرزدق ٣/ ٣٠.

(١٠٦) سورة المائدة ١٩.

(١٠٧) سورة هود ٤٣.

(١٠٨) سورة الفيل.

أبـونـا خـلـيـلُ الـلــه والـلــهُ ربُّـنــا
رضِـيــنـا بمــا أعْطَى الإلهُ وقَــدَّرا
بَنَى قِــبْلةَ اللّه التى يُهْـتَــدَى بهــا
فــأورَثنَا عِــزًّا ومُلْكًا مُــعَــمَّــرا (١٠٩)

فهو يعتمد على ذلك السرد المتدفق الذى يستعرض من خلاله قصص الأنبياء فى معرض حواره حول عراقة الأنساب وقياس شرفها من لدن إبراهيم أبى الأنبياء عليه السلام ، إلى إسحاق، وسليمان، ويعقوب ، وموسى ، وعيسى ويوسف عليهم السلام، كما يشير إلى الكعبة التى بناها إبراهيم وإسماعيل لتكون للناس قبلة طهورا، وكأنًّا به يستمد ذلك كله من الآيات القرآنية حول قصص هؤلاء الأنبياء أيضاً :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) ﴾ (١١٠)

﴿ ووَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ (١١١)

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) ﴾ (١١٢)

﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ (١١٣)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (١١٤)

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ (١١٥)

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾ (١١٦)

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ (١١٧)

(١٠٩) ديوان جرير ٤٧٣/١.
(١١٠) سورة مريم ٤١.
(١١١) سورة مريم ٤٩.
(١١٢) سورة مريم ٥١.
(١١٣) سورة آل عمران ٨٤.
(١١٤) سورة العنكبوت ٢٧.
(١١٥) سورة البقرة ١٢٧.
(١١٦) سورة الحج ٢٦.
(١١٧) سورة النساء ١٦٣.

﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (١١٨)

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ (١١٩)

وربما اكتفى الشعراء باللمح السريع، أو توقفوا عند الإشارة الخاطفة إلى القصة القرآنية ، مما نجد منه صورا عند جرير حين يعرض للإفادة من قصة هود عليه السلام ، أو قصة سليمان وداود عليهما السلام فى قوله فى قصائد له مختلفة :

رأى الحَجَّاجُ عافيةً ونَحَّوْا
على رَغْم المنافق والحَسُود
دعاَ أهلُ العراق دعاءَ هُود
وقد ضلوُّا ضلالةَ قومِ هُود (١٢٠)

كما يشير إلى قصة داود عليه السلام فى قوله :

فى آل يربوعَ يُلاقى المصْدَقا
ونسجُ داوود علينا حَلَقَا (١٢١)

وقريب من ذلك قول الفرزدق:

ورثت أباكَ المُلْكَ تَجرى بسَمْتِه
كذلكَ خوطُ النبعِ ينبتُ فى الأصْلِ
كداوُدَ إذ وليَّ سليمانَ بعدَهُ
خلافتَهُ نَحْلا من اللّهِ ذيِ الفَضْلِ (١٢٢)

فكلاهما يفيد من الآيات القرآنية التى وردت حول هذا القصص الدينى ﴿ أَلا إنَّ

---

(١١٨) سورة البقرة ٨٧.
(١١٩) سورة ص ٤٥.
(١٢٠) ديوان جرير ٢/٧٢٧.
(١٢١) ديوان جرير ٢/٧٩٣.
(١٢٢) ديوان الفرزدق ٢/١٤٥ قوله ورثت أباك الملك : أراد ورثت عن أبيك الملك . السمت : القصد. الخوط : الغصن . النبع : ضرب من الشجر.

عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (١٢٣) ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ (١٢٤) ، ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ (١٢٥) .

ويأتى ضمن ما ردده الشعراء على ذلك النحو من سرعة الأداء والاستشهاد ما أنشده الفرزدق متأثراً بقصة أبى البشر آدم عليه السلام فى غير قصة إبليس السابقة، فى قوله:

وكــــانَتْ جنَّتى فـــخــــرَجْتُ منهــــا
كــــآدمَ حــــين لَجَّ به الضِّـــــرَارُ (١٢٦)

تأثراً بالحس القرآنى من مثل قوله تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (١٢٧) ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ (١٢٨) .

ومن قبيل هذا التأثر السريع أيضا قول جرير من قصة ثمود، وهو بصدد هجاء الفرزدق :

وشـــبَّـــهتَ نفـــسَكَ أشْـــقَى ثَمُـــودَ
فـــقـــالوا ضَلَلْتَ ولمْ تَهـــتَـــدِ
وقــــد أُجِّلوا حــــينَ حلَّ العَـــذَابُ
ثلاثَ ليــــالٍ إلىَ المَــــوْعِـــدِ (١٢٩)

وكذا كان قوله :

ونبــئتُ أشْــقَى جَــعْــفــرٍ هاجَ شِــقْـوَةً
عليــهَــا كــمــا أشْــقى ثمــودَ مُــبِــيــرُهَا
يُصبِــحُــون يَسْـتَـسـقُـونه حـين أنْضَـجَتْ
عليـهم من الشِّـعـرى التُّـرابَ حـرُورُها (١٣٠)

---

(١٢٣) سورة هود ٦٠.
(١٢٤) سورة النمل ١٥.
(١٢٥) سورة النمل ١٦.
(١٢٦) ديوان الفرزدق ٩٤/١.
(١٢٧) سورة البقرة / ٣٥.
(١٢٨) سورة الأعراف ٢٧.
(١٢٩) ديوان جرير ٨٤٢/٢.
(١٣٠) ديوان جرير ٣٦٩/١.

ومن قصة ثمود أيضاً راح الفرزدق ينسج قوله :

إنْ نحنُ لم نَمْنَعْ بطاعتِنَا
والحبُّ للمَهْديِّ والشُّكْرِ

فغَدَتْ علينَا فى منَازِلِنا
رُسْلُ العَذاب برَغْوةِ البَكْرِ

أشْقَى ثمودٍ حين وَلَّهَهُ
عَنْ أُمِّهِ المشئومِ بالعَقْرِ

لما رَغَا هَمَدوا كأنهُم
هابِي رمادٍ مُؤْثَفِ القَدْرِ (١٣١)

وقد رصدنا من قبل الآيات التى أفاد منها هنا ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ (١٣٢) ، ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾(١٣٣) . وكذلك الحال فى الموقف من قصة يونس عليه السلام، إذ يقول الفرزدق تأثراً بمحتواها :

دعوتُ الذى ناداهُ يونسُ بعد ما
ثوىَ فى ثلاثٍ مُظْلماتٍ فَفَرَّجا (١٣٤)

حيث يستوحى المعنى من الآية الكريمة من غير القصة ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ (١٣٥) أو من القصة القرآنية ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١٣٦) . ومن قصة يوسف عليه السلام أيضاً ترد الإشارة السريعة عند الفرزدق من خلال صفح يوسف عن إخوته – كما رأينا من قبل – حيث يتكرر التأثر فى

(١٣١) ديوان الفرزدق ٢٦٣/١. رغوة البكر : أى بكر ناقة صالح إذ رغا على قوم ثمود فأهلكوا . أشقى ثمود: هو الذى عقر الناقة .

(١٣٢) سورة هود / ٦٥.

(١٣٣) سورة القمر ٢٩.

(١٣٤) ديوان الفرزدق ١١٣/١.

(١٣٥) سورة الزمر ٦.

(١٣٦) سورة الأنبياء ١٧.

معرض المدح بفعل الأمر الذى يخفِّف من حدته هنا منطق الاستعانة بالقصص القرآنى :

كُنْ مــــثلَ يُوسُفَ لمــــا كَـــادَ إخـــوتُهُ

سلَّ الضَّـغـائِنَ حـتى مـاتت الحِـقَـدُ (١٢٧)

ومن قصة ثمود أيضاً تراه يردد على نحو من السرعة:

فــصــاروا كـمَنْ قــد كـان خــالفَ قَـبْلَهُمْ

ومِنْ قــبلهم عــادٌ عَــصَتْ وثَمُــودُهَا(١٢٨)

وقريباً منها جاء قوله :

أبــارَ بــكــمُ عــن ديــنــه كـلُّ نَــاكـث

كــمَــا الأُممُ الأوْلى أُبِيــرَتْ ثَمُــودُهَا(١٢٩)

ومن ذلك قوله أيضاً :

وكـــانَ لـهم كَـــبَكْرِ ثَمُـــودَ لَمَّـــا

رغَــا ظُهْــراً فــدمَّــرَهُم دَمَــارَا(١٤٠)

ومن قصة داوود عليه السلام أيضاً:

فـــأنتَ أحقُّ الناس بـالعَــدْلِ والتُّــقَى

وأنتَ ترَى الأرضَ الحــيَــا وطَهــورُهَا

فــأصــبــحــتُــمــا فــينا كــداوودَ وابنهُ

على سُنَّة يُهْـدَى بهــا من يَسِــيـرُهَا(١٤١)

وكذلك كان ما ورد فى قوله جمعاً بين تأثره بقصة داود وقصة يأجوج ومأجوج:

بنيتَ الذى أحــيَــا سليــمــانُ وابنُهُ

وداوودُ والجنُّ الذى كـــانَ سَـــخَّـــرَا

---

(١٢٧) ديوان الفرزدق ١/٩٣.

(١٢٨) نفسه ١/١٧١.

(١٢٩) نفسه ١/١٥١.

(١٤٠) الفرزدق ١/٣٥٠.

(١٤١) نفسه / ٣٤٧.

فـــأصـــبحَ جِـــسْـــراً خَـــالدا ويدكُّـــهُ

إذا دُكَّ عن يـأجـــوجَ رَدْمـــاً فنَشَّـــرا (١٤٢)

وقوله :

ومَنْ سَـــمَكَ الســـمـــاءَ لَهُ فـــقَـــامَتْ

ووســـخَّـــر لابنِ داوودُ الشَّـــمَـــالا (١٤٣)

إذ يتضح تأثره المباشر بالآيات ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ (١٤٤) ومن قوله تعالى أيضاً :﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١٤٥) والآية الكريمة ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ (١٤٦) .

وهكذا تطّرد الظاهرة ، ومن خلالها يبدو كبار شعراء العصر أشد حرصاً على الاستقصاء، والتعرض لأطراف شتى من هذا القصص القرآنى، فمن قصة قوم « تُبَّع » أيضاً يستمد الفرزدق قوله :

على ابنك وابن الأم إذ أدركَـــتْـــهُـــمـــا

المنايا وقـــد أفنين عـــاداً وتُبـــعـــا (١٤٧)

وقوله :

ليـــدرك مـــســـعـــاه الكرام ولم يكن

ليـــدركـــهـــا حـــتى يكلم تُبَّـــعـــا (١٤٨)

حيث يتأثر بما أوردته الآيات ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ (١٤٩) ، ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (١٥٠) .

ومن قصة « ذى القَرْنين» أيضاً يعرض قوله :

أتيتَ بنى الشَّـــرقى تحـــسب عـــزَّهم

على عـهد ذي القرنين كان تضعضعا (١٥١)

---

(١٤٢) نفسه / ٣٤٨.
(١٤٣) نفسه / ٧٠.
(١٤٤) الأنبياء : ٧٩.
(١٤٥) ص : ٣٦.
(١٤٦) النمل : ٣٩.
(١٤٧) ديوان الفرزدق ١/٤٠٢
(١٤٨) نفسه ١/٣٩٧.
(١٤٩) سورة الدخان ٣٧.
(١٥٠) سورة ق: ١٤.
(١٥١) ديوان الفرزدق ١/٤٠١.

وقوله :

على عـهـد ذى القَـرْنَيْن كـانت سـيـوفُـهم

عـمـائمَ هـامـاتِ الملوكِ البطارقِ [١٥٢]

ولعله يتأثر فى ذلك كله بفحوى الآيات الدالة على القصة ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾ [١٥٣]، ومن قوله تعالى ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ [١٥٤].

ومن قصة (نوح) عليه السلام ترد الإشارة الموجزة عند الفرزدق أيضاً فى قوله :

ومن نجى من الغَـمَـرات نُوحًـا

وأرسْى فى مـواضِـعـهـا الجِـبَـالا [١٥٥]

وقد رأينا تفاصيل القصة كما عرض لها القرآن الكريم بنص الآيات وهو ما يبدو واضح التأثير هنا أيضاً ربطاً بنتائجها من قوله تعالى ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ [١٥٦].

وعلى هذا النحو وما يشبهه بدا القصص القرآنى مصدر ثراء لفن الشعر لدى شعراء بنى أمية، ووجدوا فيه مجالاً فى مجالات عديدة لم يقتصر فيها على حديث المدح، بل ورد أيضاً فى سياق أحاديث الهجاء؛ الأمر الذى يدل على طبيعة استيعاب الشعراء لهذا القصص من ناحية، وحرصهم على الصدور عنه فى جل موضوعات شعرهم من ناحية أخرى.

وتظل المعالجة الفنية من خلال القصص الدينى واضحة الدلالة على طبيعة ذلك الاستقراء الذى مال إليه الشعراء لكشف وعيهم به ولعلهم وجدوا من فسحة الوقت والنظم المتأنى الهادئ مما لم يتهيأ للجيل السابق، ولعلهم اكتفوا من هذا التأثر باعتباره مادة ثقافية أو مجرد جدول من جداول الفكر بما لا يشير إلى تدين الشاعر منهم من عدمه، بدليل ما نجده من أرصدة نفس المؤشرات عند شاعر مثل الأخطل النصرانى فى تحديه للشعراء المسلمين من أصحاب النقائض .

(١٥٢) نفسه ١/٥١.

(١٥٣) سورة الكهف ٨٣ – ٨٤.

(١٥٤) سورة الكهف ٨٦ – ٨٤.

(١٥٥) ديوان الفرزدق ١/٧٠.

(١٥٦) سورة العنكبوت ١٥.

❋ ❋ ❋

(٣)

فإذا أضفنا إلى هذه المواقف أن الفرق الكلامية قد بدأت حوارها وكثر جدلها حول قضايا دينية، تبين لنا أن أولئك الشعراء قد حرصوا على ألا يتخلفوا عن تلك الثقافات، بل راحوا ينهلون منها، وكأنما آثروا الرجوع إلى المصادر الدينية الأولى بدءا من القرآن الكريم، فكانت المؤثرات أقرب إلى مادة النص المقدس منها إلى ما يدور حوله من تفسير أو جدل ، ولنا مع هذا الموقف بقية حوار بعد استكمال جزئيات المعجم الإسلامي بفروعه المتعددة التى أفاد منها شعراء العصر من خلال صور أخرى ازدحمت فيها بعض الأبيات بعديد من المصطلحات ، والمعانى الإسلامية ، التى تأتى - بدورها - وليدة المعجم الدينى، ولا علاقة لها بصيغ الأداء الجاهلى التى رأينا الشعراء يحرصون عليها فى العصر باعتباره عصر إحياء للعصبية الجاهلية ودوران حول أحساب العرب وأيامهم الأولى، وقد راح بعض الشعراء يستقى بعض مصطلحاته من واقع حسه الدينى فحسب، على نحو ما نجد في بعض نماذج من شعرهم، إذ يتحدث الفرزدق عن الإسلام والإلحاد قائلاً لممدوحه وهو يقرن الإسلام بالمصحف باعتباره المصدر الأول المقدس للعقيدة :

أبَرْتَ زُحُوفَ المُسلمين وكدتَهُم

بمستنصر يتلو كتابَ المصَاحِفِ (١٥٧)

وقول جرير عن الإلحاد:

دعوت المُلْحِدين أبا خُبَيْبٍ

جِماحا هل شُفِيتَ من الجِمَاحِ(١٥٨)

وقول الفرزدق عن الإسلام والأذان :

رأوْا جبلا دقَّ الجبال إذا التقت

رؤوس كبيرهن يَنْتَظِمَانِ

(١٥٧) ديوان الفرزدق ٢/١٥.

(١٥٨) ديوان جرير ١/٤٩٠.

رجـــالاً عن الإســـلام إذ جـــاءَ جَـــالدُوا

ذوى النكث حـــتى أوْدَحُـــوا بِهَـــوَان

وحـــتىً ســـعىَ فى سُـــور كل مـــدينة

مناد ينادى فـــوقـــهـــا بأذَان(١٥٩)

حيث يقرن حواره حول الإسلام ومن يجالدون دونه بالمؤذن حين ينادى المسلمين إلى الصلاة ، ثم يقول عن الإسلام والحق ومعاداة الباطل :

فـــمـــا الناسُ إلاّ فى ســبـيلَينْ منهـمـــا

ســـبـــيلٌ لحقٍّ أو ســـبـــيلٌ لِبَـــاطِلِ(١٦٠)

وعن الحق والباطل أيضاً وصراعهما الدائب فى الحياة :

ألا تَفْـــتَـــرى إِذْ لـم يجد لك مَـــفْـــخَـــراً

ألا ربمـــــا يجـــــرى مع الـحقِّ باطِلهُ (١٦١)

وعن مقاييس الفضيلة والرذيلة أو صراع الخير والشر عبر تناقضات الحياة وسلوكيات البشر يقول :

فـــقـــد كنتُ ناراً يصطليـــهـــا عـــدُوكم

وحِـــرْزاً لمــــا ألجْـــأتُمُ من وَرَائِيَـــا

وَباسِطَ خـــيـــرٍ فـــيكمُ بيَـــمِـــينِه

وقـــابضَ شـــرٍّ عنكم بشِـــمـــالِيَـــا (١٦٢)

وعن الحول والقوة باعتبار أصداء الصيغة الدينية فى ذاكرة الشاعر يأتى قوله :

وهُـمْ ليلةَ الأهْـوَاز حـــين تَتَـــابَعُـــوا

وهُـمْ بِجُـنـودٍ من عـــــدوٍّ وخَـــــاذِلِ

كـــفـــاكَ بحـــول من عـــزيز وقُـــوَّة

وأعطى رجـــالا حظَّهم بالشَّـــمـــائلِ (١٦٣)

---

(١٥٩) ديوان الفرزدق ٢/٣٣٤.

(١٦٠) نفسه ٢/٣٣٨.

(١٦١) نفسه ٢/١٧٤.

(١٦٢) ديوان جرير ١/٨٤

(١٦٣) ديوان الفرزدق ٢/١٣٨.

وعن الحق والباطل ربطاً بالحوار حول الضلالة والهدى وكأن المؤثر يسير على نسق واحد حيث يقول :

لَقَـدْ جـرَّدَ الحَـجَّـاجُ بالحق سَـيْـفَـهُ
لَكُم فـاسـتـقـيـمـوا لا يَمِـيلَنَّ مـائِلُ

فـمـا يَسْـتـوى داعِى الضَّـلالة والهُـدى
ولا حـجـةُ الخَـصْـمَـيْن حقٌ وبَاطِلُ (١٦٤)

فإن مال إلى الحوار حول الرشد والغواية فمن نفس المنظور أيضاً على نحو من قوله:

إذا خُـيِّـرَ السَّـيـدىُّ بين غـوايةٍ
ورُشْـد أتى السَّـيـدىُّ مـا كـان غـاوياً (١٦٥)

كما تظهر أطراف من لوحة الجهاد الإسلامى فى معتركه مع معسكر الشرك وما بينهما من صور الصراع :

عـاداتُ خـيلِكَ أن يَبِـتْنَ عَـوَابِسًـا
بـالـدَّارعِـيـن ولا تـراهـا رودَا

مـا إن نزَلْتَ بمـشـركـين بربِّـهم
إلا تركتَ عظيـمَـهم مُـسْـتَـعْـبـداَ (١٦٦)

وحول الجهاد أيضاً وطابعه الدينى من قبل نصرة دين الله سبحانه وتعالى يأتى حواره :

فَـجَـرِّدْ لهم سـيفَ الجِـهـاد فـإنَّمـا
نَحَـرْتَ بتـفـويضٍ إلى ذِى الفـواضِلِ (١٦٧)

وعن شهادة المسلمين كتعبير جديد عند عبيد الله بن الحر يرد بديلاً لما كان من أمر شيوع الشهادة القبلية نجده يقول :

---

(١٦٤) ديوان جرير ٤٠٣/١.

(١٦٥) ديوان الفرزدق ٣٥٩/٢.

(١٦٦) ديوان جرير ٣٨٣/١.

(١٦٧) ديوان الفرزدق ١٣٨/٢.

فـــإنْ لَمْ أُصَــبِّحْ شَـــاكِــراً بكَتـــيـــبـــة

فــــعــــالجْتُ بـالكفَّـــيْن غلَّ حَــــدِيد

هـمُ هَـدمـــــوا دارى وقــــــادُوا حَليلـتِى

إلى ســجنهم والمــسلمُــون شُــهــودى (١٦٨)

وعن مطلب الاسْتشهاد فى القتال باعتباره موضع فخر لأهل الشهيد وهو ما كان موضع تنافس ومزاحمة لدى قادة الخوارج وشعرائهم وخطبائهم نجد صدى المؤثر وارداً عبر حوارات سريعة للشعراء من مثل قول الشاعر :

إذا مــــا قُـــرِّبَ الشُّـــهَـــدَاءُ يَوْمـــاً

فـمَـا للتَّــيْمِ يومــئــذٍ شَــهِـيــدُ (١٦٩)

وعن الأنفْال أيضاً يرد قوله فى هجاء الأخطل وتعيير التغلبيين :

لولا الـجِـــزَى قُــسِـم السَّــوادُ وتغلبٌ

فى المــســلمـــين فكنـتُم أنْفَـــالاَ (١٧٠)

وعن المؤمنين يأتى قياس الاعتداد والتميز فى قول الآخر :

فـــدًى لكَ أُمِّى اجـعَلْ عليـــهم عَـــلاَمَـــةً

وحــــرِّم عليـــهم صــــالحـــاتِ الحَـــلاَئل

تـزايـل بـيـن الـمـــــــؤمـنـيـن وبـيـنـهُـم

إذا دخلوُا الأسْــواقَ وَسْطَ المَــحَــافل (١٧١)

وعن الملائكة وجبريل عليه السلام وعن المدد الإلهى للمسلمين بهم جندا فى القتال من أجل نصرة دين الله يرد قول الشاعر أيضاً :

إلـىَ بـاعـثِ المَـــــوْلى ليُنْزلَ نَـصْــــرَهُ

فــــأنزلَ للحَـــجَّـــاجِ نَـصْـــراً مُــــؤَزَّرا

---

(١٦٨) شعراء أميون ١/١٠٢.

(١٦٩) ديوان جرير ١/٣٣٠.

(١٧٠) ديوان جرير ١/٤٩٠.

(١٧١) ديوان الفرزدق ٢/١٣٩.

مــــلائكةٌ من يجـــعل اللهُ نصـــرَهُمْ

له يكُ أعْلى فى القِــتَـــالِ وأصْـــبَـــرا

رأَوْا جــبــرائيلَ فـــيــــهمُ إذْ لَقُــوهُمُ

وأمـــثـــالَهُ من ذِى جناحَـــيْن أظْهَـــرا (١٧٢)

وعن الملائكة والمصطَفَيْن الأخيار فى موضع الشهادة يأتى قوله أيضاً :

قـــالَ المـــلائكةُ الَّذين تُخُـــيِّـــروُا

والمــــصطفَـــوْن لدينه الأخْـــيَـــارُ

كـــانَتْ منافـــقـــةَ الحـيــاة ومـــوتَهـــا

خـــزىٌ عـــلانيـــةٌ عليكَ وعَـــارُ (١٧٣)

ومن ليلة القدر وتفضيلها على بقية أيام الزمن ولياليه يظهر ما صاغه الشاعر تأثراً بهذا القياس الدينى فى قوله :

لقــد فُـضِّلَتْ حُـسْناً على الناس مِـثْلَمــا

على ألف شـــهـــر فُـــضِّلَتْ ليلةُ القَـــدْرِ

عليـــهَـــا ســـلامُ الله من ذى صَـــبَـــابةٍ

وصبٌّ مُـــعَنَّى بالوســـاوسِ والفِكْرِ (١٧٤)

وفى نفس الإطار أيضاً جاء صوت جرير إلى جانب ما شغله مشهد من القبر والعذاب :

لعلكَ ترجُـــو أن تَنفَّسَ بعـــدمــــا

غـمَـمْتَ كــمـا غُمَّ المُـعَـذَّبُ فى القَـبْـرِ

فــمـــا أحــصنتــه بالسُّـعــود لمـــالك

ولا وَلَدْتـه أمُّــــــه ليلـةَ القَـــــدْرِ (١٧٥)

---

(١٧٢) ديوان الفرزدق ١/٢٤٢.

(١٧٣) ديوان الفرزدق ١/٣٧٤.

(١٧٤) ديوان جميل ٥٨.

(١٧٥) ديوان جرير ١/٤٢٥.

وحول (المشيئة الإلهية) يأتى طرح عمر بن أبى ربيعة فى قوله:

مُـــقـــيمٌ بإذن الله ليسَ ببـــارحٍ

مكانَ الثُّـــرَيا قـــاهـرٍ كُلَّ مَنزِلِ [176]

وعن القدر الإلهى عند الفرزدق :

ولكن أتونى آمناً لا أخـــافـــهم

نهـــارا وكـــان الله مـــا شـــاءَ قَـــدَّرا [177]

وعندَ جميل :

فـقلت له : فـيــهـــا قَـضَى الله مـــا تَرَى

عَلىَّ وهل فِـيـمـــا قـضَى اللهُ من رَدِّ؟ [178]

وعند عبيد الله بن الحر :

فـــعـــســَى اللـهُ أن يُدافِـعَ عَنِّى

رِيْبَ مـــا تحـــذرين حـــتى أؤوبَا

ليسَ شـىءٌ يشـــاؤه ذوُ المَـــعَـــالى

بِعَـــزيز عليـه فـــادْعِى المُـجِـيـبَــا

أنـا فـى قَـــبْـــضَـــةِ الإله إذ كنـــ

ـــتُ بعـيـــداً أو كنت منكِ قَـرِيبَـا [179]

وعن ميثاق الله وعهده يقول جميل كاشفاً عن عذريته وعفة غزله:

فـقـــد جـدَّ مـيـثـــاقُ الإله بحـبِّـهـــا

ومـــا للذى لا يتـــقّى اللهَ مِن عَـــهْـــدِ [180]

وعلى هذا النحو تكررت الشواهد - وهى كثيرة جدا- عند الشعراء . وفى كثير من الأبيات نجد صدى التأثير الإسلامى من خلال اعتماد الشاعر على الإشاره إلى تلك المصطلحات والمسميات الإسلامية، التى استوحاها كشفا بذلك عما استوعبه من المعجم الدينى، يقول كعب بن معدان الأشقرى :

---

(١٧٦) ديوان عمر ١٧٣.

(١٧٧) ديوان الفرزدق ١/٢٩٥.

(١٧٨) ديوان جميل ٥٥.

(١٧٩) شعراء أمويون ٣/٢٥.

(١٨٠) ديوان جميل ٥٥.

خَلَتْ إيادُ وَمَــــا يَرُدُّ ضَــــلالَهـــا

داعِي الرَّشـــاد ومـــا لهـــا من زَاجِـــرِ [181]

ويقول جميل :

فـــإن كـــان رُشْـــداً حـــبُّــهـــا أو غـــوَايةً

فـقـد جـئـتـهُ مـا كـانَ منى على عَـمْـدِ

لقـــد لجَّ مـــيـــثـــاقٌ من اللَّه بَيْنَنَا

وليس لِمَنْ لم يُوفِ للَّه من عَـــهْـــدِ [182]

ويقول مالك بن الريب قريباً من نفس السياق وإن اختلف الموقف بقياس تحوله من صعلوك إلى مجاهد إسلامى فى إقليم ناءٍ :

أَلَمْ تَرَنِى بِعْتُ الضَّـــلالَةَ بالـهُـــدَى

وأصـبَـحْتُ فى جَـيْش ابن عَـفَّان غـازِياً [183]

وعلى هذا النحو نستطيع أن نقف على رصيد ضخم من المؤثرات الإسلامية إذا ما سرنا على هذه الوتيرة من محاولة استقراء دواوين شعراء العصر ، ليظل الموقف شاهداً مؤكِّدا طبيعة الانتماء إلى هذا المعجم الإسلامى، مع شدة الحرص على الأخذ منه أكثر مما أخذوا من معجم حضارة العصر ذاته، أو حتى من تيار البداوة. ومع صورة أخرى من محاولة صياغة الأفكار والمعانى الإسلامية التى تداولوها قد يزداد الموقف توكيداً ووضوحاً.

❄ ❄ ❄

(١٨١) شعراء أمويون ٣/٤٠٧.

(١٨٢) ديوان جميل ٤٣.

(١٨٣) شعراء أمويون ١/٤٢.

(٤)

وتبدو الأفكار والمعانى الإسلامية أكثر عمقاً فى تأثيرها فى الشعراء وحركة الشعر، لأن مجرد الإفادة من المصطلح وإعادة عرضه قد لا تصل بالشاعر إلى هذه الدرجة من عمق الأداء فى الترويج لفكرة دينية ، أو معنى إسلامي مما قد يفتح مجالاً من مجالات الفلسفة أو الجدل. ولذلك قد يلتقى مع الفرق الكلامية التى شهدها العصر على سبيل الاتفاق أو التعارض، ويظل التأثير من هذا النوع جامعاً بين أفكار إسلامية خالصة طبقاً لصفاء مصادرها الأولى وأخرى بدأت تدخل فى دائرة الفلسفة ، وتتبلور من خلال منطق الجدل العقلى الذى دأبت عليه بيئات المتكلمين كجزء من ثقافة العصر ذاته.

ومن هذه الشواهد التى استوقفت الشعراء ما نجده مطروحاً حول قضية الفكر الغيبى عند الفرزدق، حين يعرض لقضية (خلود النفس) والروح وغيرها من قضايا ميتافيزيقية، وكأنما ارتبطت هذه المعانى فى جانب منها بدور المسلم فى الدفاع عن دينه، وطبيعة سلوكه المنضبط من هذا المنطلق ، ويصبح هذا الدفاع مضرب المثل للشعراء، فيقول الفرزدق :

فَزِدْ خَالداً مِثْلَ الَّذى فى يمينه

تجِدْهُ عن الإسلام من خيرِ ذائد (١٨٤)

وعندئذ ينسب الجند إلى (دين الله) والسيف إلى (جند الله) فى قوله :

جنودٌ لِدين اللّه نضربُ مَنْ طَغَى

ومُسْلِمةُ السَّيف الحُسَامِ يَقُودُها (١٨٥)

ويصبح المروق من الدين صيغة واردة فى مجال التعبير والهجاء على طريقة ابن قيس الرقيات فى قوله :

---

(١٨٤) ديوان الفرزدقى ١٣٢/١.

(١٨٥) ديوان الفرزدق ١١٧/١.

إذاً نحنُ شئنا ضاربَتْنا كَتيبةٌ

حَروُرِيَةٌ أمسَتْ مِنَ الدين مَارِقَه [١٨٦]

وهى اللغة التى سار عليها شعراء الأحزاب السياسية والفرق الدينية فكفَّر بعضهم بعضاً على هذا النحو.

وهكذا لم تقف المصطلحات عند المسلك الحربى أو القتالى بقدر ما تجاوزته لتشمل سلوك المسلم فى حياته اليومية، وكيف ينطلق من واقع الأفكار الدينية التى رسخها الإسلام، فكثر حديث الشعراء حول صلة الأرحام وما كان من قطعها فى قول ابن قيس :

تُذَكّرُنى قَتْلَى بحَرَّةِ وَاقِمٍ

أُصِيبَتْ وأرْحَاماً قَطَعْنَ شَوَابكا

فَقُطّعَ أَرْحَامٌ وفُضَّتْ جَمَاعَةٌ

وعَادَتْ رَوَايا الحِلْمِ بَعْدُ رَكَائِكَا [١٨٧]

ويقول أيضاً على نفس النسق :

وأقْطَعُ للأَرْحَامِ لم يرقُبُوا بها

من الله إلاَّ يومَ ذَاكَ وأَيْصُراَ [١٨٨]

ومن حواره حول الحلال ، والحرام ، والعدل ، يقول الفرزدق وإن كان يستغل المعانى فى صورة غزلية :

فيمَ باللّه تَقْتُلين مُحِبّاً

لكِ بالوصل مُخلصاً بَذَّالاَ

ولعمْرِى لئِنْ هَمَمْتِ بِقَتْلى

لِبَما قد قَتَلْتِ قَبْلِي الرِّجَالاَ

حدثينى عن هَجركم ووِصَالى

أَحَرامَاً تَرَيْنَهُ أمْ حَلاَلا

---

(١٨٦) ديوان ابن قيس الرقيات ١٩٢.

(١٨٧) ديوان ابن قيس ١٢٩ – ١٣٠.

(١٨٨) نفسه ١٣٩.

فـــــاحكُمِى بَيْنَنَا وقُـــولى بِعَـــدْل

هل جـــــزاءُ المــــحب إلا الوِصَـــــالاَ [189]

إذ يظل الشاعر فيها متعلقاً بألفاظ إسلامية مصدرها حسه العام الذى يجسده أسلوب القسم بالمولى عز وجل ، ثم حديثه عن الإخلاص والبذل والإيثار كسلوك دينى ، إلى جانب حواره حول الحلال والحرام والعدل فى الحكم مما يعنى أن الشعراء دأبوا على تحويل المصطلحات إلى كل موضوعاتهم، وحتى فى هذا الموقف الغزلى لم ينس الشاعر أن يصدر عما اكتسبه من تلك الأفكار ، بالمحرم وغير المحرم فى مثل قوله عن الحمى أيضاً:

أباحُـوا حِمىً قـد كانَ قِدْمـاً مُـحَـرَّمًا

فـأضْـحَى علَى شـيـبـانَ غـيـرَ مُـحَـرَّم[190]

وكذلك كان قوله حول مراعاة المحارم كسلوك دينى قويم تدعو إليه العقيدة:

وقـــد علِمـــوُا أنِّى أنَا الشَّـــاعِرُ الَّذى

يُراعى لبَكْر كلِّهـــــا كلَّ مَـــــحْـــرَم[191]

وإنِّـى لِمَنْ عَـــــادُوا عَـــــدُوٌّ وإنَّنـى

لَهُمْ شَـاكِـرٌ مـــا حـالَفْت رِيقَـتِى فَـمِى[192]

وعن صلات الأرحام أيضاً كما ردَّدها ابن قيس من قبل يقول الفرزدق محذِّرا من قطعها ومغبة تجاهلها:

ولا تقْطَعـــوُا الأرْحـــام َمنَّا فـــإنها

ذُنُوبٌ مِنَ الأعْـــمَـــال يُخْـــشَى إثَامُـــهـــا

فـــتَـــرْعى قـــريشٌ من تَمــيم قَـرَابَةً

وتَجْـزِىَ أيَّامـا كـريمًـا مُـقَـامُـهـا [193]

(١٨٩) ديوان الفرزدق ١٦١/١.

(١٩٠) ديوان الفرزدق ١٩٤/٢.

(١٩١) نفسه١١٩/٢.

(١٩٢) نفسه ٢٤١/٢

(١٩٣) ديوان الأخطل ٨٥/١

وعن الرجس والطهارة يقول جرير :

لا يدخُلَنَّ عليكَ إنَّ دُخُولَهم

رِجْسٌ وإنَّ خُروُجَهُم تَطهِيرُ [(١٩٤)]

وعند الأخطل :

أمعشرَ قَيْس لم يُمَتَّع أخُوكُمُ

عُمَيْرُ بأكْفَانٍ ولا بِطَهُورِ [(١٩٥)]

وعن الدعوة لصالح الأعمال يقول الأخطل فى شكل حكمى عام :

والناس همُّهمُ الحياةُ وما أرَى

طولَ الحياة يزيدُ غيرَ خبال

وإذا افتقرتَ إلى الذَّخائر لم تجد

ذُخْرا يكون كصالح الأعمال [(١٩٦)]

ولا شك أنه يتجاوز بهذا المنطق ما عرفناه عن شكوى الشعراء الجاهليين السأم من طول أعمارهم على طريقة لبيد فى قوله :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

أو قوله :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس : كيف لبيد

وهو ما عرف أيضا فى قول زهير بن أبى سلمى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

وعن إقامة الحدود يقول جرير عن منظور دينى أيضاً يدير حواره حول إقامة الحد استناداً إلى شرع الكتاب :

فقد حلَّتْ يمينُك إنْ إمَامٌ

أقامَ الحَدَّ واتَّبعَ الكِتَابَا [(١٩٧)]

---

(١٩٤) ديوان جرير ٣٦٦/١.

(١٩٥) ديوان الأخطل ٦٦/١.

(١٩٦) ديوان الأخطل ١٤٠/١.

(١٩٧) ديوان جرير ٦٥٢/١.

ومنها القصاص الذى يورده جميل فى موطن الفخر :

وكنَّا إذا مـا مَـعْـشَـرٌ نَصَـبُـوا لَنَا
ومَــرَّتْ جــوار طيــفــهم وتعــيَّــفُــوا

وضَـعْنا لهم صَـاعَ القِـصَـاص رَهِينَةً
ونحنُ نُوَفِّــيــهــا إذا الناسُ طفَّــفُــوا (١٩٨)

وعن الموقف من المغتاب والمرائى، وهى الصورة التى نفَّر منها الإسلام يقول ابن قيس:

أيُّهَــا المُــسْــتَــحِلُّ لَحْــمِيَ كُلَّهُ
مِن وَرَائِــي ومِـن وَرَاك الحِــســـاب

اســتَــفِــيــقَنْ فليسَ عِنْدَك عِلْمٌ
لا تَـنَـامَنَّ أيُّـهـــا المُـــغْـــتَــابُ

تَخْــتِلُ الناسَ بالكِتَــاب فَــهَــلاَّ
حــينَ تَغـتَــابُني نَهــاكَ الكِتَــابُ (١٩٩)

إذ يضيف إلى استنكار السلوك على المستوى الاجتماعى ما ورد بشأنه فى الكتاب نهيا وزجرا وتهديدا بما يكون من صور العقاب يوم الحساب.

وعن الغيبة والنميمة أيضاً يقول جرير :

أَعُنَّابا تجــــاوزَ حـــيـن أجْنَتْ
نـخـــيـلُ أجـــــأً وأعْـنَـزَهُ الـرِّبَـابـا

أصــابُوا الجــارَ ليلةَ غــابَ عَنْهُمْ
فـبـئـسَ القــومُ إِذْ شَــهِـدوُا وغَــابَا (٢٠٠)

وعن النفاق وجزاء المنافق يتردد القول عند جرير فى أكثر من موقف ، فيقول راسماً من الموقف لوحة فنية عرضها ضمن مدحته :

(١٩٨) ديوان جميل ٨٥ نصبوا لنا : عادونا . الصاع : مكيال . طفَّفوا : نقصوا المكيال . تعيَّفوا : زجروا الطير ليتفاءلوا أو يتشاءموا بطيرانها.

(١٩٩) ديوان ابن قيس ٨٤.

(٢٠٠) ديوان جرير ٢/٦٥٢.

مَنْ سَـــدَّ مُطَّلَعَ النِّفَـــاقِ عليـــهِمُ

أَمْ مَنْ يصـــولُ كَـــصَـــوْلَةِ الحَـــجَّـــاجِ

فـــإذا رأيتَ منافــقــينَ تَخَــيَّــروا

سُــبُلَ الحِــجَــاجِ أَقَــمْتَ كلَّ ضِــجَــاجِ

داوَيْتَــهمُ وشــفَــيتَــهمُ من فِــتْنَةٍ

غـــــبـــــراءَ ذاتِ دَوَاخِنٍ وأُجَـــاجِ

ولقـــد كَـــسَـــرْتَ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقٍ

ولقـــد منعْتَ حـــقـــائبَ الحُـــجَّـــاجِ [٢٠١]

كما يقول محذرا من استمراء الرعية للنفاق :

هو الخليفـةُ فـارضَـوْا مـا قَـضَى لكُمُ

بالحقِّ يَصْـــدَع مـــا فـي قـــوله جَنَفُ

يقضى القضاءَ الذى يشفى النفاقَ به

فـاسـتْبشَـرَ الناسُ بالحقِّ الذى عَرَفـوا [٢٠٢]

وهو ما يطرح له نظيراً حين يتوعد من ينافق بانكشاف أمره ليلقى مصير المنافقين قبله :

تَشَــــــدَّ فـــــلا تُكَذِّب يومَ زَحْفٍ

إذاَ الغَـــمَـــرَاتُ زَعْـــزعَتِ العِـــقَـــابَا

عــفـــاريتُ النِّفـــاق شُــفِــيتَ مِنهم

فــأمْـسَـوْا خــاضِــعِـين لكَ الرِّقــابا [٢٠٣]

ثم يؤكد جزاء المنافقين من خلال منطق واحد يحسمه حد السيف :

عــبــد العــزيز الذى ســارَتْ بِرايتــه

تلكَ الزُّحُــوفُ إلى الأجْنَاد فــاصْطَرَمــوُا

---

(٢٠١) ديوان جرير ١/١٣٧-١٣٨.

(٢٠٢) نفسه ١/٢٤٤.

(٢٠٣) نفسه ١/١٧٥.

مـــا كـــانَ مِنْ بَلدٍ يَعْلُو النِّفَـــاقُ بِهِ

إلا لأسـيـــافِكُم مـــمَّنْ عَـــصَى لَحِمُ [٢٠٤]

وغالباً ما يرتبط عنده النفاق بالفتنة على نحو قوله :

فـــحكمك يا مـــهـــاجـــر حُكمُ عـــدل

ولَـوْ كَـــــــرِهَ الـمنـافـقُ والـمُـــــــريـبُ

إذاَ مَـــرِضَتْ قلوبُهم شَـــفَـــاهُمْ

نِـطَـاسِـيٌّ بِـدائِـهِـمُ طَـبِـيـــــيـبُ [٢٠٥]

وفى نفس الأطر تقريباً نظم قوله قارناً بينهما :

واطفـــأْتَ نيـــرانَ النِّفَـــاق وأهْلَهُ

وقـــد حـــاوَلُوا فى فـــتنةٍ أن تَشَـــعَّـــرا

فلم تُبق منهُم رايةٌ يرفَـــعُـــونَهـــا

ولـم تـبـق مـن آل الـمـلـهـب عَـــسْـكَـرا [٢٠٦]

وكم تحدث القرآن الكريم عن النفاق والمنافقين ، وآخذهم على سلوكهم ووصفته الآيات ووصفتهم، وتوعدتهم مراراً ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [٢٠٧] . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [٢٠٨] إلى غير ذلك من توصيف القرآن لتلك الفئة وما ينتظرها من صور العقاب والعذاب ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾ بحكم ما ظهر منها من خطر على الدعوة فى عصر المبعث، وقد استمر خطرهم على مدار عصور الخلافة الإسلامية ، فتناول الشعراء سلوكهم بالتجريح من هذا المنطق الدينى إلى جانب المنطق الاجتماعى والأخلاقى أيضاً .

(٢٠٤) نفسه ١/١٢٩.

(٢٠٥) ديوان جرير ١/٤١٠.

(٢٠٦) ديوان جرير ١/٤٧١.

(٢٠٧) سورة الحشر ١١.

(٢٠٨) سورة المجادلة ١٤.

وحول رفض النفاق على إطلاقه فى أى من صوره يقول جميل فى صياغة حكمية عامة :

ومَنْ هُوَ ذو وجـــهـــين ليسَ بِدائِمٍ

علىَ العـــهـــد حـــلاَّف بكل يَمِـــينِ (٢٠٩)

ثم تأتى تحية الإسلام صورة جوهرية من صور الكشف عن جانب من الحس الدينى للشاعر، يقول جرير :

حَــيَّــيْتُ وجــهَك بالسَّــلام تَحِــيَّــةً

وعـــــرَفْتُ ضَـــرْبَ كـــــريمـــــةٍ لِكَريمِ

واللهُ فــــضَّل والديْك فــــأنْجَـــبَـــا

وعـــدَدْتَ خـــيـــرَ خُـــؤولة وعُـــمُـــومِ (٢١٠)

وعن الاستعاذة بالله يقول أيضاً من المنطلق الدينى :

أعـــوذُ بالله الـعـــزيز الغَـــفَّـــار

وبالإمـــام الـعـــدل غـــيـــر الجـــبَّـــار

من ظلم حـــمـــان وتحـــويل الدار

فـــاســـآل بنى صـــحب ورهط الجـــزَّار (٢١١)

ليميل فى نفس الحوار إلى التعيير بعدم قراءة القرآن الكريم ، أو الانصراف عن محاولة تدبر آياته :

إن البَـــعـــيث وعـــبـــدَ آلِ مُـــقَـــاعِسٍ

لا يقـــرأن بسُـــورة الأحْـــبَـــار (٢١٢)

وهو يقصد بذلك أنهم لا يقرأون القرآن، ولا يعكفون على تلاوته كمسلمين. وعن اللغو فى اليمين والعزم يقول الفرزدق من المنظور الإسلامى أيضاً :

ولستَ بمـــأخـــوذ بِلَغْـــوٍ تَقُـــولُه

إذا لم تَعَـــمَّـــد عـــاقـــداتِ العَـــزَائمِ (٢١٣)

---

(٢٠٩) ديوان جميل ١٢٦.

(٢١٠) ديوان جرير ٦٥٨/٢.

(٢١١) نفسه ٤٤٥/١.

(٢١٢) نفسه ٨٩٧/٢.

(٢١٣) ديوان الفرزدق ٣٠٧/٢.

وعن الحق والضلال يقول الأخطل :

وقـــد كـــان يومـــاً راهـط من ضَــلالكم

فنـاءً لأقــــوام وخطبًـــــا من الخطيب [٢١٤]

وهو ما مال به إلى منعطف سياسى واضح الدلالة تجلى فى مدحه لعبد الملك وتحليل موقف الأحزاب المعارضة فى قوله :

وتستبين لأقوام ضلالتهم ويستقيم الذى فى خده صعر

كما يقول فى سياق حديثه عن الحق من المنظور السياسى :

كـــانُوا مَـــوالِىَ حَقٍّ يطلبــونَ به

فـــأدركـــوهُ ومـــا ملُّوا ولا لَغِــبُــوا

إنْ كـــان للحقِّ أسبـــابٌ يُمَـــدُّ بهـــا

فـــفى أكــفِّـــهِمُ الأرْسَـــانُ والسَّــبَبُ [٢١٥]

أما عن علاقة الدين بالدنيا فقد انطلق شعراء العصر يعرضون المواقف ويرسمون المشاهد على غرار قول الفرزدق حول جزاء الخائن فى الدنيا والآخرة :

ولا شىءَ شَـــرٌّ من شَـــرِيَرة خَـــائِنٍ

يجىءُ بهـــا يوم ابتـــلاءِ المَـــحَـــاصِلِ

هُوَ العَـــارُ فى الدُّنيـــا عليـــه وبَيْـــتُـــهُ

به يوم يَلْقَى اللهَ شَـــــرٌّ المـــــدَاخل [٢١٦]

ولعل خير ما يتصوَّره الفرزدق ما يعكسه التقاء الدنيا فى صلاح الأعمال مع الجهاد فى سبيل الله مع التديُّن حيث يقول :

جُنُودٌ لدين الله تَضْـــــربُ مَنْ طَغَى

ومـــسلمـــةُ السَّـــيفِ الحُـــســـامُ يَقُـــودُهـا

---

(٢١٤) ديوان الأخطل ١/٤٩.

(٢١٥) نفسه ١/٨٥ الموالى : الأصحاب . الحق هنا هو حق عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٢١٦) ديوان الفرزدق ١/١٣٨.

أَبَـارَ لَـكُـمْ عَـنْ دِيـنِـه كـلُّ نَـاكِـثٍ

كـــمَـــا الأممُ الأوُلى أُبِيُـــرَتْ ثَمُـــودُها

أرَى الدِّين والدُّنيـا بكم جُـمِـعَـا لَكُمْ

إذاَ اجـتـمـعـت للعـامِلينَ جُـدُودُهَا [٢١٧]

وهنا تكتمل صورة الفضيلة في شخص ممدوحه ، وخاصة إذا ما غلب عليه ذلك الطابع الدينى وقد تعددت أبعاده وبانت ملامحه.

كما ردَّد شعراء العصر بعضًا من الأفكار الغيبية التى طرحوها من منظور دينى محض، فشغلهم مشهد القيامة بما فيه من موت ونشور ، وبعث وحساب واحتلَّ حيزاً واضحاً من أذهانهم أسقطوه في فضاء مساحة كبيرة من الشعر، مما نجد منه لدى الفرزدق فى صورة الموت والقبور وكأنه يفلسف موقفه الخاص من زيارة القبور :

إنَّ الزيـارةَ فى الحـيـاة ولا أرَى

مَـيْـتـاً إذاَ دَخلَ القُـبُـورَ يُزَارُ [٢١٨]

وعن الموت والنشور يقول جرير :

دعَـا وهو حيٌّ مـثل مـيت فـإنْ يَحِنْ

فـهـذا له بعـد المَـمَـات نشُـورُ [٢١٩]

وعن الموت أيضاً يقول الفرزدق فى قصائد مختلفة على نحو ما جاء فى هجائه لجرير:

فَـهْل أحَـدٌ يا ابنَ المَـراغَـةِ هَارِبُ

من المـوت إنَّ المـوتَ لابُدَّ نَائِلُهْ [٢٢٠]

أو قوله على المستوى الحكمى العام :

فـهـوِّنَ وَجْـدى أنَّ كلَّ أبِى امْـرئٍ

سـيُـشْكَلُ أو يَلقـاهُ منهـا لِزَامُـهـا [٢٢١]

(٢١٧) ديوان الفرزدق ١/١٧١.
(٢١٨) نفسه ١/ ٣٧٥.
(٢١٩) ديوان جرير ٢/٨٧٧.
(٢٢٠) ديوان الفرزدق ٢/١٧١.
(٢٢١) نفسه ٢/١٩٣ اللزام : الموت .

وقوله فى استقراء البعد الإنسانى الشامل للموقف الغيبى إزاء الموت:

أرىَ كلَّ حَيٍّ لا يزالُ طَليعةً
عليه المنَايَا من فُروُجِ المَخَارم
ومَا أَحَدٌ كلُّ المنَايَا وراءَهُ
ولو عاش أيامَاً طِوَالاً بِسَالِمِ (٢٢٢)

وقوله:

مَا مَاتَ بعدَ ابن عفَّانَ الذّى قَتَلوُا
وبعد مَرْوَانَ للإسلام والحُرَمِ (٢٢٣)

ثم قوله :

مثلُ ابن مَرْوان والأَجَالُ لاَقِيَةٌ
بِحَتْفِها كلَّ مَنْ يَمشِى على قَدَمِ (٢٢٤)

وإذا كان حديث الموت غير مغرق فى بعده الدينى، فهو يزداد عمقاً حين يمزجه الشعراء بمشاهد القيامة، على نحو ما يقول الفرزدق حول الساعة وأشراطها:

إن القيامةَ قَدْ دَنَتْ أَشْرَاطُهَا
حتىّ أمُيةُ عن فَزَارةَ تَنْزِعُ (٢٢٥)

كما يقول جرير مفاخرًا وهاجياً فى آن واحد :

لنَا الفضل فى الدُّنيا وأنفُك رَاغِمُ
ونحنُ لَكم يومَ القيامة أفْضَلُ (٢٢٦)

وعند الفرزدق نجده فى رسم المشهد حيث يقول :

تمنَّى المستزيدةُ لِى المَنَايَا
وهُنَّ وراءَ مُرْتَقِبِ الجَذُورِ

---

(٢٢٢) نفسه ٢/٢٠٦.
(٢٢٣) نفسه ٢/٢١٠.
(٢٢٤) نفسه ٢/٢٢٤.
(٢٢٥) ديوان الفرزدق ١/٤٠٨.
(٢٢٦) ديوان جرير ١/١٤٣.

فَـــلاَ وأبِى لمـــا أخْـــشَى وَرَائى

من الأحــداث والفَــزعِ الكَبـــيـــرِ

أجـلَّ عـلـىَّ مُــــــرْزِئَـةً وأدْنَـى

إلى يومِ القِـــيَـــامـــةِ والنُّشُــور

من البـــقَـــر الذين رُزِئتَ خَلُّوا

علىَّ المـــضْلِعــاتِ من الأمـــور [٢٢٧]

أما عن مشهد البعث وأحداثه المرتقبة فيقول الفرزدق أيضاً من خلال تصوره الغيبى :

لقــد خــابَ من أولاد دارم مَنْ مَـشَى

إلى النار مـــشـــدودَ الخُناقَـــةِ أزْرَقَـــا

إذا جــاءَنى يومَ القــيــامــة قَــائِدٌ

عنيفٌ وســـوَّاقٌ يَسُـــوق الفَـــرزَدْقَـــاَ

أخــافُ وراءَ القَــبْــر إن لم يُعــافنى

أشَــدُّ من القــبــر الْتِـهَــاباً وأضْــيَـقَــا

إذاَ شَـربوا فـيــهـا الصَّـديد رأيتَـهُم

يذوبُون من حَـــرِّ الصَّـــديد تَمــزُّقَـــا [٢٢٨]

وهنا تتعدد لديه جزئيات الصورة، وتزداد دلالتها ويشتد وضوحها ابتداء من الشد إلى النار ، إلى القائد العنيف الذى يسوق العباد يوم الحساب، إلى مخاوف القبر وما بعده من صور الحساب وخاصة منها ما يترصد الكفار من ضروب العقاب، وقد استوقفه منها ما يشربونه من حر الصديد وهو يمزق أمعاءهم تمزيقا.

وحول استسلامه لأطراف المشهد يقول فى شكل حكمى عام :

فـصــبْــراً تمــيمُ إنَّمــا المـوتُ مَنْهَلٌ

يصـــيـــرُ إليـــه صَـــابِرٌ وجَـــزُوعُ [٢٢٩]

---

(٢٢٧) ديوان الفرزدق ٣٩/٢ . مرتقب الجدور : أراد نفسه أى أنه يرقب الموت .

(٢٢٨) ديوان الفرزدق ٣٩/٢.　　(٢٢٩) نفسه ٤٠٩/١.

كما يقول على نفس الوتيرة الموروثة :

بنيَّ بأعْلاَم الجزيرة صُرِّعُوا

وكل امرئٍ يوماً سيأخذ مَضْجَعا (٢٣٠)

ولعله مال في تأثره بالحس الأدبي الموروث منذ صنف أبو ذؤيب الهذلي عينيته، ومطلعها:

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وأيضاً يرد حسه الديني العام في قوله :

أتعدلُ أحساباً لِئاما أدِقَّةً

بأحسابِنا؟ إنيِّ إلىَ اللّه راجعُ (٢٣١)

وعن نشر الموتي يقول جرير على نفس الوتيرة على لغة التشبيه لما يتصوره من الفزع في صورة نشر الموتي :

كانَتْ وقائعُ قُلنا لن تُرَى أبَداً

من تَغْلِبٍ بَعْدها عَيْنٌ ولاَ أَثَرُ

حتى سَمِعْتُ بخنزير طَفَا جَزَعًا

منهم فقلتُ أرىَ الأمواتَ قَدْ نُشِرُوا (٢٣٢)

ويقول في باب الهجاء وهو يحاول أن يسقط حق خصمه في الفخر بقومه في دنيا أو آخرة :

تُخْزِيكَ أحياءُ تيم إن فَخَرَت بهم

والخِزْيُ أمواتُ تَيْمٍ إنْ هُمُ نُشِرُوا (٢٣٣)

وعن (عذاب القبر) يقول جرير عن معاناة المعذب من أهوال ما يراه وما يحسه:

لعلكَ ترجو أن تنفسَ بعدما

غمَمْتَ كما غُمَّ المُعَذَّبُ في القَبْر (٢٣٤)

---

(٢٣٠) نفسه ٤١٠/١.

(٢٣١) نفسه ٤٢٠/١.

(٢٣٢) ديوان جرير ١٥٧/١.

(٢٣٣) ديوان الفرزدق ٢٤٧/٢.

(٢٣٤) ديوان جرير ٢١٦/١.

ويقول الفرزدق مصوراً الموقف حول العذاب المرسل الكامن فى بعض هجائياته:

إذا غـابَ كـعبُ بَنى جُـعَـيْلٍ عنْهمُ
وتنَمَّـرَ الشُّـعَـراءُ بعـدَ الأخْطَلِ
يتـبـاشَـرونَ بمَـوْتِه ووراءَهُم
مِنىِّ لهُم قِطَعُ العَـذَاب المُـرْسَلِ [٢٣٥]

وعن عذاب النار – أيضاً – يقول الفرزدق متخذاً منه مادته التصويرية:

وإن تبـعثُونى بعد سَبْعين حِجَّةً
أكُنْ كَـعَـذاب النار ذاتِ الجَـحَـائِم [٢٣٦]

كما يقول عن الجحيم والسعير من منطلق الاستغراق فى تصوير مشاهد القيامة والموت وتخصيص المشهد بما يصيب خصومه تشبيها:

أقـامَ علَى حىِّ المـزُونِ قـيـامـةً
من المـوت إلا أنَّهـا هىَ أشْـهَـرُ
وقـد ضـاقَ ذَرْعـا مُـصْطَلوها بَحـرِّها
وعـادَتْ جـحـيـمـا نارُهاَ تَتَـسَـعَّـرُ [٢٣٧]

وعن جهنم وعذابها يقول الفرزدق أيضاً :

ومـا زِلْتُ حـتى فـرَّق اللهُ بَيْنَنَا
له الحـمـد منى فى أذًى وَجِـهَـادِ
تُجـدِّدُ لِى الذكـرى عـذابَ جَـهَنَّم
ثَلاثاً تُمَـسِّى مَنْ بهـا وتُغَـادِى [٢٣٨]

وعن حديث العقاب والحساب يقول عمر وهو يستغل المشهد فى سياق الغزل كعادته إذ يخشى القصاص الإلهى من فتاته إذا أثمت بقتله فى هواها دون أن تترفق به أو تشفق عليه :

(٢٣٥) ديوان الفرزدق ١/ ٢٦٠.
(٢٣٦) ديوان جرير ١/٤٢٥.
(٢٣٧) ديوان الفرزدق ٢/١٤٩.
(٢٣٨) نفسه ١/١٠٨.

لا تَقْـــتُلِينى يا عُـــثَـــيْمَ فــإنَّنى

أخـــشَى عليكِ عـــقـــابَ ربِّكِ فـى دَمِى

إنْ لَمْ يكُنْ لك رحـــمـــةٌ وتَعَطُّف

فَـــتَـــحـــرَّجِى من قَـــتْلِنا أنْ تأثَمى [٢٣٩]

كما يكثر ورود الذنب والتوبة والغفران عند الشعراء الغزلين ، إذا أخذنا منهم بمنطق جميل :

أبوءُ بذَنْبِى إنَّنى قَـــدْ ظَلَمْـــتُـــهـــا

وإنِّى ببـــاقى ســـرِّهـا غـــيـــرُ بَائِحِ [٢٤٠]

ويتمنى عمر وقوع الغفران الدنيوى فى عالمه الغزلى فيقول :

أهَـجَـــــرْتِـنـا ثـم اعـــــتلَلْت لنَا

ولقَـــــدْ تَرَىْ أنْ مَـــــا لَنَا ذَنْبُ [٢٤١]

ثم يتحاور بين العذر وبين غفران الذنب :

فَـــاعْـــذُرِينى إنْ كنتُ صـــاحبَ عُـــذْرٍ

واغـــفـــرى لى إن كنتُ أذْنَبْتُ ذَنْبَـــا [٢٤٢]

كما يشغل حيزاً من فكره منطق الصفح والرحمة وعلاقتهما بالذنب والغفران:

وأعـوذُ منكِ بكِ الغَـدَاة لتَـصْـفَـحى

عـــمَّـــا جَنَيْتُ من الذُّنوب وتَرْحَـــمِى [٢٤٣]

ومنه ما يقترب كثيراً من عالم الغزل موزِّعاً بين الواشى والجرم والذنب :

وسَـــمِـــعْتَ بى قَـــولَ الوُشَـــاةِ بلا

ذنْـــبٍ أتـــيـــتُ بـه ولا جُـــــــــــرْمِ [٢٤٤]

---

(٢٣٩) ديوان عمر بن أبى ربيعة ١٩٠.

(٢٤٠) ديوان جميل ٣٠.

(٢٤١) ديوان عمر ١٥.

(٢٤٢) نفسه ٣٧.

(٢٤٣) نفسه ٤٥

(٢٤٤) نفسه١٩١.

ثم يميل إلى إسناد مشكلته إلى القضاء والقدر فيقول قانعاً به وراضياً بحظه منه :

لـكـنَّ ربِّـي كـــــــانَ قَـــــــدَّرَهُ

فـــقـــضـــاءُ ربى أفـــضلُ الحُكْمِ [٢٤٥]

وهو المنطق الذى وجدناه سائداً عند شعراء المدح الكبار فى نفس العصر من خلال توظيف محدد وواضح لفكرة الجبر والقدر الإلهى على نحو من قول جرير:

الله قَدّر أن تكـــون خليفــة   والله ليس لما قضى تبديل

وعن التوبة فى الموقف الغزلى يقول أيضاً - شاعر الغزل :

أبِينِى لَنَـا إنْ كَـــانَ هـذا تجنُّبـــاً

لصـرم فــتــصــريحُ الصَّــريمَــةِ أَجْـمَلُ

وإن كـــانَ إنكاراً لأمْـــرِ كَـــرِهْتِـــه

فَـــــرابَك إنى تَـائِبٌ مُـــــتَـنَصِّلُ [٢٤٦]

وعن الإساءة والتوبة معاً عند الأحوص يقول فى نفس الإطار الغزلى :

هـبـينِى امـرءًا إمـا بريئـاً ظلمـتـه

وإمَّـا مُـسِـيـئـاً مُـذْنبـاً فَـيـتُـوبُ [٢٤٧]

كما يقول حول الظلم والذنب والبراءة والإساءة والإنابة والعتبى:

أقـولُ التـمـاسَ العُـذر لمَّـا ظَلَمْـتِنى

وحـــمَّلْتِنى ذَنْبـــاً ومـــا كنت مُـــذْنِبَـــا

هـبـينِى امـرءًا إمـا بريئـاً ظلمـتـه

وإمَّـا مـسـيـئـا قـد أنَابَ وأعْـتَـبـا [٢٤٨]

ويحسن هنا أن نسجل أنَّ تعرض شعراء الغزل للتيار الدينى بهذا الشكل إنما يكشف عن سيادة تأثيره وتغلغله حتى فى أبعد الموضوعات عنه. ولكن الشعراء استغلوا

(٢٤٥) نفسه ٢٠٠.   (٢٤٦) نفسه ١٥٨.

(٢٤٧) ديوان الأحوص ٨٧.   (٢٤٨) نفسه ٨١.

معطيات التصوير ومواده من واقع الإفادة من المعجم الإسلامي بأى من الأشكال باعتباره جدولاً ثقافياً تكتمل به الهيئة الفكرية التي راحوا يصدرون عنها . ليبقى فى هذا الجانب الغيبى من المؤثرات حديث الشعراء من واقع ما أداروه حول فكرة (الخلود) تأثراً بالدين ومشاهد الغيب ، على نحو ما يصوره الفرزدق من خلود النفس والروح فى قوله من منطق حكمى ارتدى فيه ثوب الواعظ والمرشد الموجِّه :

تَزَوَّد فَمَا نفسٌ بِعَامِلَةٍ لَهَا
إذا ما أتاها بالمَنَايا حَدِيدُها
فيوشِكُ نَفْسٌ أنْ تَكون حَيَاتُها
وإن مسَّها موت طويل خُلودُها
وسوف تَرَى النفسُ التى اكتدحت لها
إذا النفسُ لم تَنْطق ومَاتَ وَرِيدُها [٢٤٩]

* * *

---

(٢٤٩) ديوان الفرزدق ١/ ١٥٠.

(٥)

وعلى هذا النحو وجدت الأفكار الإسلامية والمعانى سُبُلها إلى مختلف موضوعات الشعر فى كل البيئات ، فلم تخضع للتخصص الفنى الذى شهدته كل بيئة منها على حدة، بقدر ما بدت قاسماً مشتركاً بين كل الشعراء ، وما زالت المشاهد الأخروية تسيطر عليهم بما يُنتظر فيها من غفران وعفو إلهى ، كما يقول المرار بن سعيد :

وقد لَعِبْتُ معَ الفِتْيان ما لَعِبُوا
وقد أحدُّ وقد أغْنَى وأفْتَقِرُ

أستغفر الله من جِدِّى ومن لَعِبى
وِزْرى فكل امرئٍ لابُدَّ مُتَّزِرُ

وإنَّما لِىَ يومٌ لستُ سَابِقَهُ
حتى يجىء وإن أوْدَى بِهِ العُمُرُ [٢٥٠]

وهو يقترب بفكرته من عالم المرجئة والقائلين بشمولية العفو الإلهى . وإن لم يسرف على نفسه فى سلوكه هذا إسراف متطرفى الإرجاء .

وعن الثواب المرتقب من الخالق – سبحانه -- يقول الفرزدق جامعاً بينه وبين عظمة الخالق ومصورا اختبار العبد وخشوعه.

تهونُ عليكَ نفسُكَ وهو أدْنَى
لنفسكَ عند خالقها ثَوَابَا

فمَنْ يمنُنْ عليكَ النَّصْرَ يَكْذِبْ
سِوَى الله الذى رفع السَّحَابا

(٢٥٠) شعراء أمويون ٤٤٦/١.

تفـــــرَّدَ بـالبَــــلاءِ عليكَ رَبٌّ

إذا ناداه مُـــخْــتَـــشِعٌ أجَــابَا [٢٥١]

وعن التوبة بعيداً عن عالم الغزل يقول جرير :

لعَـمْـرى لنِعْمَ النَّحْىُ كـانَ لِقَـوْمِـهِ

عَـشِـيَّـةَ غَبَّ البَـيْعُ نَحْىَ جِـمَـامِ

بتَــوْبَةِ عــبـدٍ قــد أنَابَ فُــؤَادُه

ومـا كـانَ يُعطى الناسَ غيـرَ ظَلَام [٢٥٢]

وعلى هذا القياس كان شيوع الأفكار الإسلامية بين الشعراء، خاصة منها ما يرتبط بقضايا الغيب ، حيث أفسحوا لها مكانها – بل أماكنها – فى مسارات مختلفة حسب طبيعة الموضوعات ، فكان منهم من أفاد منها علىَ حقيقة الدلالة، وقصد إلى رصدها فى شعره ، ومنهم من الغزلين – بصفة خاصة – من راح يتعامل معها من خلال معالجة غزلية، تنم عن استيعابه تلك المعانى، وصدوره عنها بطريقته الخاصة فى التحاور معها ، وربما عمدنا – هنا – إلى تكثيف الشواهد التى تكفل بعد ذلك طرح الرؤية التحليلية لها وصولاً إلى الفصل فى الموقف الفنى للشعراء بشكل عام .

وقد وصل الأمر بالشعراء إلى حد تتبع الإيقاع الصوتى لبعض الآيات القرآنية تأثراً بها ، فراحوا يترنمون بنفس الإيقاع فى قصائدهم على نحو ما يمكن أن نرصده منْ خلال بعض الشواهد من شعرهم ، على طريقة ابن قيس الرقيات فى قوله :

إن هذَا الليلَ قَــدْ غَـــسَـــقَـــا

واشـــتكيْتُ الهمَّ والأرقَـــا [٢٥٣]

إذ يتأثر لفظياً بالآية الكريمة ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ [٢٥٤]
كما يقول: وكـــادَ نِســاؤُهُـم يلَقْــينَ غَـيًّــا

تركن وفـــرٌ عنهنَّ البـــعُـــول [٢٥٥]

---

(٢٥١) ديوان الفرزدق ٨٣/١.
(٢٥٢) ديوان جرير ٢١٣/١. غب البيع : تم البيع .
(٢٥٣) ديوان ابن قيس ١٨٧.
(٢٥٤) سورة الإسراء ٧٨.
(٢٥٥) ديوان ابن قيس ١٣٤.

تأثراً بإيقاع الآية الكريمة ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [٢٥٦]

وفى نفس الاتجاه يقول كعب بن معدان الأشقرى :

عَلى بصـــائرَ كلٌّ غـــيــرُ تَاركــهـــا
كِـلاَ الفـريقــين تُتلَى فـيــهمُ السُّـوَرُ
يمـــشُــون فى البـــيض والأبدَان إذ وَرَدُوا
مَــشْىَ الزَّوامل تُهْـدى صَـــفَّــهم زُمَــرُ
إنَّا اعــتَــصَـْمنَا بحـبل الله إذ جَـحَـدواُ
بالمُـحْكَمـات ولَمْ نَكْفُـرْ كَـمَـا كَـفَـرُوا
جــارُوا عن القَـصْـد والإسْــلام واتَّبَـعُـوا
ديناً يُخَـــالِفُ مـــا جـــاءَتْ بِهِ النُّذُر [٢٥٧]

فهو يأخذ الأنساق اللفظية والتعبيرية على المستوى الإيقاعى من الآيات القرآنية ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠ ﴾ [٢٥٨] أو من قوله تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [٢٥٩] . أو قوله تعالى ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢٦٠] .

ويقول كعب أيضاً :

قَــتْلَى بقَــتْلَى قِــصَــاصٌ يُسْــتَـفَــادُ بهــا
تَشْـــفى صُـــدُورَ رجـــال طالَمـــا وَقَـــروا
فى مَــعْــرَكٍ تحـسَبُ القَـتْلى بسَـاحَـتِــه
أعــجـازُ نَخْل زَفَـتْــهُ الرِّيحُ يَنْقَـعِــرُ [٢٦١]

(٢٥٦) سورة مريم ٥٩.
(٢٥٧) شعراء أمويون ٢/٣٨٢.
(٢٥٨) سورة الجاثية ٢٠.
(٢٥٩) سورة آل عمران ١٠٣.
(٢٦٠) سورة يونس ١٠١.
(٢٦١) شعراء أمويون ٢/٤٠٢.

إذ يهتدى فى إيقاع ألفاظه ودلالتها أيضاً بما ورد فى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ (٢٦٢) . وفى الآية الكريمة ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) ﴾ (٢٦٣) وفى نفس النسق - تقريباً - من التأثر اللفظى والصوتى يقول جميل فى غزله، وهو ما وردت أشباهه لديه فى أكثر من موضع :

فـإنْ كـانَ رُشْـداً حـبُّـهـا أو غَـوَايةً
فـقـد جـئـتُـه مـا كـانَ منِّى على عَـمْـدِ

لقَـدْ لَجَّ مـيـثـاقٌ منَ اللّه بَيْننا
وليسَ لمنْ لم يُوفِ للهِ من عَـهْـدِ (٢٦٤)

إذ ربما أفاد فيها من قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) ﴾ (٢٦٥) أو من ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٢٦٦) أو قوله ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ (٢٦٧)

أو الآية ﴿ أوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾ (٢٦٨) .

ومن نفس الدرجة من التأثير يرد قول الشمردل اليربوعى :

مِنْ صَـوْب سَـارِيَةٍ كـأنَّ بمَـتْنَه
منهَـا الجُـمـان ولؤلؤاً مَنثُـوراً (٢٦٩)

من الآية الكريمة ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ (٢٧٠) .

وعند جرير يقول فى فخره الدينى بقومه وموجهاً هجاءه من نفس المنطلق إلى قوم الأخطل .

---

(٢٦٢) سورة البقرة ١٧٨.
(٢٦٣) سورة القمر ٢٠.
(٢٦٤) ديوان جميل.
(٢٦٥) سورة الجن.
(٢٦٦) سورة البقرة : ٢٥٦
(٢٦٧) سورة الرعد : ٢٣١.
(٢٦٨) سورة البقرة :٤٠.
(٢٦٩) شعراء أمويون ٢/٥٣.
(٢٧٠) سورة الإنسان ١٩.

تغشى الملائكةُ الكرامُ وفاتَنا

والتغلبِّى جنازةُ الشَّيْطَان

يُعْطَى كتابَ حِسَابه بشِمَاله

وكتابُنا بأكفِّنا الأيْمَانِ [(٢٧١)]

تأثراً بقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾[(٢٧٢)] .

والآية الكريمة ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) ﴾[(٢٧٣)].

كما يقول فى باب الرثاء :

فهَدَّ الأرضَ مصرعُهُ فمَادَتْ

رواسيها ونُضِّبَتِ البحُور [(٢٧٤)]

متأثراً بالآية الكريمة ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً ﴾ [(٢٧٥)]

وهو يقول أيضاً :

حُمِدْتُم وبَشَّرْنا بفَضْل نَداكُمُ

وكانَ كشىءٍ قد أَحَطْنَا بهِ خُبْراً [(٢٧٦)]

من ألفاظ الآية الكريمة ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴾ [(٢٧٧)]

أو من قوله تعالى ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) ﴾ [(٢٧٨)]

فإذا ما قال :

من يَهْدِهِ اللَّهُ يَهْتَدِ لا مُضِلَّ لَهُ

ومَنْ أضلَّ فما يهْديه من هَادِ

(٢٧١) ديوان جرير ٢/١٠١٥.

(٢٧٢) سورة الحاقة ٢٥.

(٢٧٣) سورة الحاقة .

(٢٧٤) ديوان جرير ٢/١٩٤.

(٢٧٥) سورة النحل ١٥.

(٢٧٦) ديوان جرير ٢/٧٠٨.

(٢٧٧) سورة الكهف ٩١.

(٢٧٨) سورة الكهف ٦٨.

فـــيــــهــم مـــلائكةُ الرحــْـمنَ مـــا لَهمُ

سِـــوَى التـــوكُّل والتــــســـبـــيحِ مِنْ زَادِ

أنصــــارُ حق على بُلْقٍ مُــــسَــــوَّمـــة

أمـــدادُ ربِّك كـــانوا خــيـــرَ أَمْـــدَادِ (٢٧٩)

بدا عمق التأثراللفظى بالآيات القرآنية ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾ (٢٨٠)

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ (٢٨١)

﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) ﴾ (٢٨٢)

فإذا ما قال جرير أيضاً :

مِن آل مَـــرْوان مـــا ارتَدَّت بصَـــائِرُهُمْ

مِن خَـــوْف قَـــوْم ولا هَمُّـــوا بإِلْحَـــادِ

حـــتَّى أتَتْك مُلوكُ الرُّوم ضَـــاغِـــرَةً

مُـــقَـــرَّنين بـأغْـــلاَلٍ وأصْـــفَـــادِ (٢٨٣)

بدا قـريبـاً من إيقـاع الآية الكريمـة ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) ﴾ (٢٨٤)

وفى قوله :

دَعَتْ أُمُّك العـــمـــيـــاءُ ليلةَ مِنْقَـــر

ثُبُـــوراً لقـــد زلَّت وطَالَ ثُبُـــورُها (٢٨٥)

متأثرا بالآية الكريمة ﴿ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) ﴾ (٢٨٦)

---

(٢٧٩) ديوان جرير ٧٤٣/٢.

(٢٨٠) سورة الزمر ٣٧.

(٢٨١) سورة الشورى ٥.

(٢٨٢) سورة آل عمران ١٢٤.

(٢٨٣) ديوان جرير ٧٤٥/٢.

(٢٨٤) سورة إبراهيم ٤٩.

(٢٨٥) ديوان جرير ٨٨٣/٢.

(٢٨٦) سورة الفرقان ١٤.

وعند الفرزدق أيضاً نجده يتحاور في دائرة الغزلين في مقدماته قائلاً :

فلئِنْ سفَكْتَ دَماً بغَيْرِ جَريرة

لتُخلَدَنَّ مع العَذاب الآلَم [287]

تأثرا بمشهد العذاب المبشر به على لغة السخرية والتهكم في الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) ﴾ [288] .

ثم يقول الفرزدق أيضاً :

بمدَّرِعينَ الليلَ ممَّا وَرَاءَها

بأنْفُسِ قَوْمٍ قد بَلَغْنَ التَّراقِيَا [289]

من إيقاع الآية الكريمة ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) ﴾ [290] وكذا يقول القطامي:

فإنْ قَدَرْتَ على شَيْء جُزِيتَ به

والله يجعلُ أقواماً بأرْصَادِ [291]

من الآية الكريمة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14) ﴾ [292] . ويقول عبيد الله بن الحر :

ألم يَجْعَل اللّهُ قَلْبى حينَ ينزلُ بى

همٌّ تضيِّفنى ضَيْقاً ولا حَرجَا [293]

تأثراً بألفاظ الآية الكريمة ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ﴾ [294]

ثم يقول عبد الله بن الحر أيضا مطمئنا نفسه إلى حتمية القدر والاستعداد لتقبل الموت باعتباره حتماً مقضياً :

---

(287) ديوان الفرزدق 2/227.

(288) سورة آل عمران 21.

(289) ديوان الفرزدق 2/353.

(290) سورة القيامة 26.

(291) ديوان القطامى 87 .

(292) سورة الفجر 14.

(293) شعراء أمويون 1/98.

(294) سورة الأنعام 125.

يا نفسُ لا تَجْــزَعى إنِّى إلى أَمَــدٍ

وكلُّ نفس إلى يومٍ ومِــقْــدَارِ

إنى إلى أجل إن كنتِ عــالمــةً

إليــه مــا منتــهى عِلمى وآثارى[٢٩٥]

تأثراً بقوله تعالى ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [٢٩٦] .

ويقول الأحوص :

كلُّ الحــبــالِ حــبــالِ الناس من شَــعــر

وحــبلُهــا وَسْطَ أهلِ النَّار من مَــسَــد[٢٩٧].

من الآية الكريمة إيقاعاً وتصويرا ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [٢٩٨] .

ثم يقول الأحوص أيضاً :

ستَبْقَى لها فى مُضْمَر القلب والحَشَا

ســريرةُ وُدٌّ يومَ تُبْلَى السَّــرَائِرُ [٢٩٩].

من الآية الكريمة: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ ﴾ [٣٠٠] .

وعند الأحوص – أيضاً – فى غير الغزل يقول وهو بصدد تصوير ممدوحه :

يمــانيَّــةٌ شطَّتْ فــأصْــبَح نفــعُــهــا

رجــاءً وظنًّا بالمــغــيب مُــرَجَّــمــا

تخــيَّـــره ربُّ العــبــاد لخَلْقِــه

وليّــا وكــانَ اللهُ بالنَّاس أَعْلَمــا[٣٠١] .

---

(٢٩٥) شعراء أمويون ١/٢٧٤.

(٢٩٦) سورة الرعد ٨.

(٢٩٧) ديوان الأحوص ١١١.

(٢٩٨) سورة المسد ٥.

(٢٩٩) ديوان الأحوص ١١٨.

(٣٠٠) سورة الطارق .

(٣٠١) ديوان الأحوص ١٩٦.

من قوله تعالى ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ (٣٠٢) ومن الآية الكريمة ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٣٠٣) . ومن هذا القبيل أيضاً يرد قول عمر بن أبى ربيعة :

اقـتُليـهِ قَـتْـلاً سَـريحًـا مُـريحًـا
لا تكُونـى عليـه سَـوْطَ عَـذَاب
أو أقِـيـدى فـإنَّمـا النفس بالنـ
فس قـضـاءُ مُـفَـصَّـلا فى الكِتـاب (٣٠٤)

من الآية الكريمة وبإشارة أكثر عمقاً ومباشرة ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعا ﴾ (٣٠٥) والآية ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑬ ﴾ (٣٠٦). ومن ذلك أيضاً قول عمر فى عرض إحدى لوحاته الغزلية.

يا ليـتَنى مِتُّ إنْ لم ألْقَ مِن كَلَفى
مُـفَـرَّجًـا وشـآنى نحـوَها النَّظَرُ
تقـولُ إذ أيقنَتْ أنِّى مُـفَـارِقـهـا
ياليـتَنى مِتُّ قـبلَ اليـومِ يا عُـمَـرُ (٣٠٧)

حيث يستوحى اللفظ من إيقاع الآية الكريمة على تباعد ما بين الصورتَيْن والموقفين ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ㉓ ﴾ (٣٠٨) . ومن قول عمر أيضاً :

قُلت مـا جـشَّـمْـتِنا مِن حُـبِّكم
يا ابنة الخَـيْـرَيْـنِ أدْهَى وأمَـرّْ (٣٠٩)

على نسق الإيقاع الوارد فى الآية الكريمة ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ㊻ ﴾ (٣١٠) . ولعمر أيضاً قوله :

(٣٠٢) سورة الكهف.
(٣٠٣) سورة الإسراء ٥٥.
(٣٠٤) ديوان عمر.
(٣٠٥) سورة المائدة ٣٢.
(٣٠٦) سورة الفجر ١٣.
(٣٠٧) ديوان عمر ٧٢ ٧٦.
(٣٠٨) سورة مريم ٢٣.
(٣٠٩) ديوان عمر ٩١.
(٣١٠) سورة القمـر ٤٦.

صَـــدَقْت ومن يَعْلَم فــيكتُمْ شَـــهَـــادةً

على نفـســـهِ أو غــيـــره فـــهـــو أظْلَمُ

فـــلا تصـــرمـــينى إن تَـرَيْنى أحِـــبُّكُمْ

أبُـــوءُ بـــذنـبـى إنــنــى أنَــا أظْــلَــمُ [٣١١]

تأثراً بدلالة الآية الكريمة ﴿ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾[٣١٢] والآية ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [٣١٣] .

ثم يقول عمر فى سياق غزلى أخر :

إن الوشـــاةَ كـــثـــيـــرٌ إنْ أطَعْـــتِـــهِمُ

لا يرقُـــبـــون بنا إلاَّ ولا ذِمَـــمَـــا [٣١٤]

تأثرا بألفاظ الآية الكريمة ومعناها ﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً ﴾ [٣١٥] ثم يتكرر هذا التأثر عنده فى مثل قوله :

صـــدَّ عـــمـــداً فـــبـــاءَ إذْ صَـــدَّ عَنىِّ

يـا خـلـيـلِى بـإثـمِـــــــهِ وبـإثْـمِـى

ومن مثل هذه الصيغ القرآنية ما أورده قيس لبنى تأثراً فى قوله :

لقـــد كنْتِ حَـــسْبَ النَّفس لو دامَ وصْلُنا

ولكنَّمـــا الدنيـــا مـــتـــاعُ غُـــرور [٣١٦]

تأثراً بالآية الكريمة ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [٣١٧]

---

(٣١١) ديوان عمر ١٨٥.

(٣١٢) سورة البقرة ٢٨٣.

(٣١٣) ديوان عمر ١٩٣.

(٣١٤) سورة المائدة ٢٩.

(٣١٥) سورة التوبة ١٠.

(٣١٦) شعر قيس لبنى.

(٣١٧) سورة الحديد ٢٠.

ويقول الفرزدق :

أحـــيـــا العـــراق وقـــد ثُلَّت دَعَـــائِمُـــهُ
عـــمـــيـــاءُ صـــمَّـــاءُ لا تُبْـــقِي ولا تَذَرُ [318]

تأثراً بألفاظ الآية الكريمة ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) ﴾ [319].

* * *

(٣١٨) ديوان الفرزدق ١/٣٤٩.

(٣١٩) سورة المدثر ٢٨.

(٦)

وعلى هذا النحو تتعدد الشواهد وتكثر صورها مع شعراء العصر، وكأن ثمة سبقاً فنياً راحوا يحققونه من خلال تنافسهم حول مواد المعجم الإسلامى ، مما يظل دالاً بعمق على أن هذا التيار قد ظل صاعداً متنامياً بقوته ورسوخه فى نفوس الشعراء، على الرغم من تعدد التيارات الحضارية والثقافية الوافدة من خلال تعرب الأمم المفتوحة. بل لعله راح يهيئ للعصر - إلى حد كبير - بعضاً مما افتقد شعراؤه من سلوك دينى قويم، إذ كانوا يتجاهلون رحلة القيم فى عصر صدر الإسلام ، ليقفزوا قفزاً فى حركة ارتداد واندفاع إلى الجاهلية على لغة العصبية والفحش والإقذاع، خاصة منهم شعراء النقائض الذين أهدروا كل القيم الدينية أمام إحياء المادة الجاهلية ، فإن بقى لهم منها موجب ظل ماثلاً فى المادة المرصودة من واقع المعجم الإسلامى فحسب .

ومما يلفت النظر فى هذا المعجم أيضاً أن التنافس قد ظهر بين الشعراء حول كثير من أنماط المؤثرات الإسلامية التى حاولنا توزيعها هنا تسهيلاً لتناولها، ومحاولة لحصرها - نسبياً - دخولاً إلى الموقف التحليلى لها، ومحاولة استخلاص النتائج من خلالها، فإذا بها تجتاح كل الموضوعات من شعر المديح إلى الهجاء، إلى الرثاء ، إلى شعر السياسة، حتى فن الغزل الذى يمكن أن نتصوره بمنأى عن هذا المؤثر وجدناه يستوعب منه الكثير لدى شعراء الحضر والبدو على السواء . وعلى هذا يكشف المعجم أول ما يكشف - عن حجم المؤثرات الإسلامية وقد تحولت إلى ظاهرة فنية تسود بين الشعراء ، فتشمل شعر العصر كله بكثير من صورها وعمق ملامحها ، فلم تفرق بين شاعر متدين وآخر رقيق العقيدة، بل لعلها لم تفرق بين مسلم ونصرانى إذا وضعنا فى اعتبارنا - وهذا ضرورى - صدى هذا المعجم باعتباره مجرد بعد معرفى أو واحداً من جداول الفكر والثقافة وليس سلوكاً لدى شاعر كالأخطل انتصر لنصرانيته كثيراً.

ولكنه لم يتردد فى أن ينهل من هذا المعجم خاصة أمام ممدوحيه من خلفاء المسلمين . وتكفى رائيته فى عبد الملك على ذلك شاهداً دالاً منذ قوله فيه مصوراً مرة خلافته لله فى المسلمين على لغة القداسة التى اصطنعها شعراء الخلافة:

الخـائِض الغَـمْـر والمـيـمـون طَائِرُهُ
خليـفـةُ الله يُسْتَسقَى به المَطَرُ

ومن ثم راحَ يدعُو له دعاء إسلامياً بنصر مؤزَّر من الله تعالى :

إلـى امـرِئٍ لا تُعَـدِّينا نـوافِلُـهُ
أظفـرُه اللَّهُ فليـهْنَـأُ لـه الظَّفَـرُ

وهو ما يعود إلى تصويره في إمارته للمؤمنين :

فـهْـوَ فـداءُ أمـيـر المُـؤْمنين إذَا
أبدىَ الـنواجِـذ يومٌ بَاسِلٌ ذَكَـرُ

بل يتحدث الأخطل عن الضلالة وكأنما أدرك أبعادها، فيعرضها من منظور سياسي مشوب بطابع دينى أيضاً :

وتسـتـبـينُ لأقْـوَامٍ ضَـلالَتُـهُمْ
ويسـتـقـيم الَّذى فى خَـدِّه صَـعَـرُ

فإذا ما مال إلى تعميم الصورة المدحية نسب جَدَّ الأمويين إلى الله - سبحانه - كما كان فى تصويره لعبد الملك نفسه :

أعطاهُم اللَّهُ جَـدّاً يُنْصَـرونَ بِهِ
لا جَـدَّ إلاَّ صَـغِـيـرٌ بعـدُ مُـحْـتَـقَـرُ

وإن كانت هنا سمة واضحة تظل شديدة الواقعية حول بقاء الفواصل الكبرى بارزة بين الأخطل وبقية شعراء العصر، إذ نجد ندرة واضحة فى توقفه عند آيات بعينها، وكيف يأتي بذلك وهو لا يقف عندها إلا من خلال ما يترامى إلى مسامعه منها، ولذا بدا المعجم الإسلامى لديه أقرب إلى طرح ما وجده متناوَلاً ومطروقاً على ألسنة الشعراء، وبقي له منه فى صميم شعره ما طرحه حول العبادات الإسلامية من هجاء إما لينتصر لنصرانيته، أو ليدفع عنها ضد من هجاه بها من شعراء النقائض خاصة منهم جرير والفرزدق والراعى النميرى .

وعودا إلى هذا المعجم فيما عدا الأخطل تتراءى لنا صورته وقد كشف عما يدور فى أذهان الشعراء من تأثر بالعبادات، والتوحيد، والبعث والحساب ، وغيرها من صور الفكر الدينى التى ظهرت جلية فى شعر المرحلة بعامة . ولم يقف شعراؤها عند حدود المعانى أو الدلالة، بقدر ما وصل من الأمر ببعضهم إلى حد التقاط ألفاظ أو صور أو مواقف معينة، ترصدها آيات قرآنية ليستعين بها الشاعر فى تزيين شعره أو توجُّه دلالته، الأمر الذى وجدناه شائعاً عبر كثير من الاتجاهات على وجه التقريب .

فإذا ما عدنا إلى معجم الشعر الإسلامى فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والراشدين من بعده تبين لنا أن شعراء تلك الفترة قد استمدوا من المعجم الكثير فى موضوعات بعينها، وهو ما يتسق مع واقعية الفن الملتزم أخلاقياً واجتماعياً ، وخاصة حين أخذ مادته من معطيات عصره، وبهذا تميز المعجم الإسلامى لدى شعراء الدعوة فى كثرة ما كان من حديثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مدحاً له ، أو دفاعاً عنه، أو رداً على هجاء أصابه، كما ظهرت الصور المتعددة حول نصرة الدعوة الإسلامية، وقهر شعراء مكة، وكلها أمور تُرَدُّ بوضوح إلى طابع العصر ومتطلب المرحلة، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موجودا بين صفوف المسلمين. مما يجعل دوران المعجم الشعرى حول شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته أمراً مبرراً، يتسق مع طبيعة الظروف الزمنية للجيل السابق من الشعراء ، بالإضافة إلى قدر واضح من الحرج عند شعراء العصر حتى فى التناص مع الآيات القرآنية ، أو الإسراف فى الإشارة إليها، فى فترة لم يدون فيها القرآن الكريم أو السنة الشريفة ، مما انعكس - بدوره - على الشعراء فى ندرة التأثيرات النصية المستمدة من تلك الأصول الدينية ، خشية اختلاطها امتزاجاً بالنص الشعرى . فإذا أضفنا إلى هذا أن ثمة ازدواجية قد تأكدت فى قسمة جمهور المتلقين فى عصر صدر الإسلام بين مسلم ومشرك، أدركنا طبيعة المؤثرات الإسلامية فى مساق ظهورها على ذلك القدر المحدود - أحياناً - مع انتشار المؤثرات الجاهلية التى لم تمت بين عشية وضحاها من النفوس بقدر ما ظلَّت بقاياها قادرة على أن تطل برؤوسها بين حين وآخر فى مواد الإبداع .

أما معجم شعراء بنى أمية فقد صحبه اختلاف فى طبيعته من حيث كم التأثير ونوعيته عما رأيناه فى عصر صدر الإسلام ، ربما لأن جمهور الشاعر قد اختلفت طبيعته أيضاً، ذلك أن ثمة أحزابا سياسية متعددة راحت تتربص بالخلافة ، وبعضها يريد أن

ينتزع الحكم، وقد يصل الأمر ببعض منها إلى تكفير الحاكم باعتباره مغتصبا ما ليس بحق، وهنا تبدأ نيران المعارك تتأجج بين الشعراء ، بين ثناء ومدح من قبل مؤيدى كل حزب منذ تحولت عاصمة الخلافة إلى منطقة جذب يلتقى فيها الشعراء حول الخليفة مؤيدين ومدافعين عن شرعية الحكم فى أسرته ، ومن ثم ظهرت حدة المواجهة للخلافة من قبل شعراء الأحزاب الأخرى، وكذلك كان الموقف من قبل شعراء الخلافة أنفسهم ضد دعاة تلك الأحزاب.

وانطلاقاً من هذا التصور بدا شاعر العصر الأموى فى صورته الاجتماعية أكثر اختلافاً من ناحية جمهوره، عما كانت عليه حال الشاعر فى صدر الإسلام بين مسلم ومشرك عكسته بلورة مدرستى مكة والمدينة بين أقطاب كبار هنا أو هناك ، لتظل الفجوة بينهما كبيرة جداً لتعكس معركة التوحيدية مع الوثنية، وهى الصورة التى تختفى من واقع الجمهور الأموى بعد نهاية عصر الوثنية وبعد وحدة الجمهور - إلى حد واضح - على المستوى الدينى ، باستثناء النصارى من تغلب وغيرها مما تزعم شعراؤهم تفجير تلك الصراعات فى خضم نقائضهم .

من هنا راح الشاعر الأموى ينتقى من المعجم الإسلامى ما يستطيع أن يدعم به قصيدته ، ويؤكد به أفكاره ويثرى صورها ومعانيها وموسيقاها، بعيداً عن منطق الخوف أو الحذر الذى سيطر على شعراء ما قبل التدوين للنصين المقدسين ، أما وقد دُوِّن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، واطمأن المسلمون إلى سلامة رحلتهما ، فلا ضير إذن من التناص مع نصوص أى منهما فى سياق الأعمال الشعرية زيادة فى قيمتها وضماناً لأداء دورها لدى الجمهور المسلم .

ومن هنا راح شاعر بنى أمية يدعم شعره بالنصوص المقدسة - كما رأينا - على كل المستويات ، سواء عن طريق التضمين المباشر أو الدوران حول الصياغة غير المباشرة، حيث يستوحى المعنى ، أو من خلال ما قد يفيده من معانى الآيات القرآنية لفظاً وصياغة ، أو تصويراً ومعنى .

ويبدو واضحاً طبيعة ما أصاب ذلك المعجم الإسلامى من تطور مع تنوع صوره وأشكاله كما ظهر لدى شعراء العصر ، منذ حاولوا صياغة كل ما استوعبوه ، وقصدوا إلى

طرح ما استقر فى أذهانهم من معالم الحس الدينى سواء على مستوى الآيات معنى أو إيقاعاً ، أو حتى من خلال الأفكار والقيم الإسلامية التى ظلت أرصدتها بارزة حول الشعراء ، فأفسحوا لها المجال لتظهر فى قصائدهم ومقطوعاتهم .

ولعل فى انتشار فن المدح وتوجيهه وجهة سياسية جديدة لصالح الحزب الأموى أو الأحزاب المناوئة له، ما شجع الشعراء على مزيد من العودة إلى المعجم الإسلامى ، وعلى التنويع فى مصادر الأخذ منه كلما سمحت أمامهم فرصة للإفادة والتأثر، وبدأ الشعراء يزكون فنهم ومبادئ أحزابهم من خلال شواهد التاريخ مدعومة بشواهد وثيقة من القصص القرآنى ، حيث استغل معظمه فى مواضع العظة ، وبث العبرة ، وتأكيد الاعتبار .

وعلى هذا النحو ظل عطاء المعجم الإسلامى للقصيدة الأموية وشاعرها موزعاً بين الثبات والتغاير فى آن ، هو ثبات عناصر ورسوخ ملامح أرساها شعراء الدعوة فى العصر السابق ، ثم كان التغاير الذى استجاب من خلاله الشعراء لطبيعة جمهورهم ، مما سمحت لهم به أيضاً ظروف الإبداع ومنطق الاطمئنان والهدوء خاصة بعد تدوين النصين المقدسين، وهو الاطمئنان الذى امتد أيضاً إلى آفاق حركة الفتوح الإسلامية التى احتوت أمصاراً بعيدة شرقاً وغرباً ، ومعها اتسعت المساحة الجغرافية التى استوعب جمهورها مقومات هذا المعجم عبر الامبراطورية الإسلامية .

وربما بدت كثافة الحس الإسلامى وكثافة المعجم - بالصورة الى رأيناها - فى هذا العصر مؤشراً مؤكداً للدلالة على أن الموقف الحضارى للإسلام لم يكن أقل تأثيراً من تيارات أخرى كثيرة ، أسهمت فى تطور القصيدة الأموية وحركة تجديدها ، بل لعل كثافة المعجم تظل شاهداً - أيضاً - على أن الرافد الإسلامى ظل متماسكاً أمام زحام الروافد الحضارية، لتظل قدرته مؤكدة على الانتشار ، وتعمُّق نفوس المبدعين والمتلقين على السواء. ويبدو الحكم هنا موضوعياً إذا قيس بما رصدناه من صور كثيرة تؤكد هذه الحقيقة وتدل عليها، إضافة إلى ضخامته وكثافته أيضاً إذا قيس بأى مؤثر حضارى آخر ، قد نجده قليل الانتشار، أو نادر الهيمنة على القصيدة الأموية، أو ربما - على الأكثر - بدا قريباً منه أمام زحف الحس الحضارى والسياسى .

فإن أضفنا إلى المعجم الإسلامى ما شهده العصر من حركة الزهد التى بدأ فى إرساء قواعدها طائفة من زهاد المرحلة ممن اتخذوا من العبادة والتقشف مسلكاً فى

الحياة، كرد فعل لانصرافهم عن زخرف الدنيا ، إذا أضفنا هذا الجو الدينى - بمقياس انتشاره فى العصر - استطعنا أن نتعرف على طبيعة التيار الدينى الذي تدفق من واقع نفوس الشعراء ، فملأ دواوينهم ، وبدا طبيعياً لهم أن يصدروا عنها بتلك الكثافة . ويحسن هنا أن نسجل أن نزعة الزهد هذه لم تنشأ من فراغ، ولم تكن وليدة العصر وحده بقدر ما كانت امتداداً طيباً لتقشف جيل السلف ، وحرصهم على العمل للآخرة، كل ما هنالك أن الزهد قد بدأ يتبلور كفلسفة إسلامية تحاول أن تخلص لنفسها ، حتى لا تختلط بها صيغ أخرى من رهبنة المسيحية أو فكرتها حول التثليث أو الخطيئة أو تعذيب الجسد أو المطهر أو ما أشبه ذلك مما تضمنته أيضاً فلسفات الأمم المفتوحة ومذاهبها ، ومع استمرار نقاء الزهد الإسلامى تعمق التيار الدينى نفوس الشعراء ، فأمدها بتيار يدعم الجوانب الدينية التى سبق عرضها جملة وتفصيلاً، ولعل تجاوز شعر الزهد هنا فى الدراسة يظل علامة دالة على صدوره كاملاً من المعجم الإسلامي ، ولعل الرجوع إلى مظانه الأولى لدى الزهاد الأمويين تكفى دلالة على ذلك ، فمن باب أولى أن يظل جديراً بدراسة خاصة باعتباره هو نفسه معجماً إسلامياً له أصوله ومقوماته ، مما يجعل إضافته هنا فى زحام التيارات الأخرى الكثيرة ضرباً من السلب لحقه في درس مستقل يمكن الرجوع إليه فيما شغل به من دراسات متخصصة حول العصر الأموى (٣٢٠).

وربما ظل تعامل الشاعر الأموى مع مادة المعجم بهذا التنوع علامة دالة على رد الفعل لديه بما قد يكشف عدم تدينه إذا ما قارناه بمعجم الزهاد وما دار على لسان الحسن البصرى أو أبى الأسود الدؤلى أو النعمان بن بشير الأنصارى أو غيرهم ممن شغلوا بتدينهم سلوكاً وعملاً ودعوة وتنظيراً وتطبيقاً فى آن واحد.

أما ذلك الزحام الذى غصّت به دواوين الشعراء فى الغزل أو الهجاء بصفة خاصة فيظل بمثابة كشف عن ضرب من استقصاء جوانب الفكر، واستقراء مادته في جميع مصادره، فكان المعجم الإسلامى إلى جانب المعجم الجاهلى فى عصر الإحياء ، وإلى جانبهما معجم العصر الجديد بكل دلالاته السياسية والاجتماعية والحضارية المتنوعة.

---

(٣٢٠) راجع التطور والتجديد في الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف. ويمكن الاستعانة بما نظمه الزُّهَّاد على طريقة سابق البربرى وأبى الأسود الدؤلى والحسن البصرى والنعمان بن بشير الأنصارى وغيرهم ممن أصلوا لهذا الاتجاه أمام تيارات الفكر المتعددة.

وقياساً على هذا الفهم يمكن أن نعايش ديوان الشاعر الأموى وأن ندرس من المعجم الإسلامى لديه الكثير بشرط ألا نربط ذلك بتدينه من عدمه ، فقد وقعت المفارقة بين المعجم كفكر وثقافة وبين السلوك الذى طغت عليه معالم الحضارة، وإلا إذا اعتبرنا كل شعراء العصر زهاداً وهم ليسوا كذلك على الإطلاق .

بل ربما كان هذا الإلحاح على تكثيف مادة المعجم الإسلامى ضرباً من ردود الفعل لدى الشعراء ممن أدهشتهم المادة الجاهلية فى مرحلة إحيائهم إياها ، فكانت المادة أمامهم على قدر من التنوُّع الذى دفع بهم دفعاً إلى مثل هذا التركيز سواء فى لغة التصوير أو التقرير التى دعموا بها أشعارهم، وزحموا بها دواوينهم.

وعلى مستوى الدلالة التى يكشفها تعامل أولئك الشعراء - على كثرتهم - مع المعجم الإسلامى تظل المادة موزَّعة بين أبعاد مختلفة ، يبقى ظاهراً منها ومسيطراً تلك الدلالة النفسية التى دفعت بالشاعر الأموى إلى محاولة احتواء كل مصادر ثقافته لشق طريق الفحولة وإعلاء مكانته فى عصره ، أو ربما لم يقصد إلى التنافس حول تلك الفحولة فظل كاشفاً عما كمن فى وجدانه من حس تراثى بدا هذا المعجم جانباً منه لا يستطيع إلا أن يأخذ منه أخذا واعياً يكمل به مجمل مدركاته ومصادر فكره التى آن له أن يصدر عنها فى إبداعه .

أما على مستوى الدلالة السلوكية أو الموقف الأخلاقى فربما وجدنا المفارقة واردة بينه وبين ما تحكيه أخبار الشعراء وسيرهم، ثم ما تؤكده قصائدهم ودواوينهم التى تخصصت من أى من الفنون الشعرية حتى أصبح الشاعر فى إطار البلاط الأموى متزلفاً منافقاً إلى حد بعيد، وهو يدرك ذلك خاصة منهم من بالغ فى طرح قداسة الخلافة حتى جعلها تفويضاً إلهيا، ووظَّف فى هذا الاتجاه حسه الدينى حين استوقفه فكر الجبرية ليطوِّعه فى تأكيد الظاهرة حول شخص الخليفة الأموى ، فإن تجاوز عالم الممالأة ومنطق النفاق التقينا عنده بصيغ من الفحش ولغة من الإقذاع بما يعكس تخاذل الشاعر أمام القيم الإسلامية التى - وإن تغنى بها ، وحشا بها شعره وزيّنه - بدا منفصلاً عنها بشكل واضح . وربما كان خضوعه لإيقاع الخصومة والرغبة فى تصفيق الجمهور والاندفاع إلى تحقيق الفوز على الخصم، ربما كان هذا كله من وراء المفارقة السلوكية التى تعكسها مواقف الشعراء حتى ليكاد الشاعر منهم يضع نفسه فى مفترق الطرق فلا تكاد تحسم

أمره بين التدين ورقة العقيدة. ولدينا عند شعراء النقائض نصيب كبير يحسم الموقف من هذه الزاوية ، وخاصة حين غالى شاعر النقيضة فى المساس بالأعراض والتغنى بالعصبيات وتزييف الأنساب وتغيير الحقائق، ومن وراء هذا كله ضرب من التناسى المؤكد، أو التجاهل المقصود لكثير من تلك القيم التى استوقفته فى المعجم الإسلامى . وعند غير هؤلاء وأولئك تتعدد سلوكيات شعراء الغزل بما يكاد يضمها فى إطار سلوكي متشابه - وخاصة المدرسة العمرية - بما يكفى لأن تتلقى من ديوان الشاعر معجماً ، إسلامياً يفقد جوهر العلاقة الإيجابية بما يترجمه موقفه الدينى ، وما يعكسه منطقه السلوكي فى هذا الإطار .

أما فى عالم شعراء السياسة فقد شغلتهم قضية الالتزام الحزبى ودفعت بهم دفعًا إلى خوض ضروب من المبالغات حول نظرياتهم وأحزابهم ومبادئ فرقهم بما لا يطمئن - فى النهاية - إلى انعكاسات حقيقية لهذا المعجم فى سلوكهم ، إذ ما زال الشاعر قاصداً إلى توظيف محدد لشعره، يدفع به إلى تأويل الآيات وانتقاء المعانى التى يستطيع من خلالها النفاذ إلى حيث يريد ، بل حيث يريد منه حزبه، وقد رأينا موقف الأخطل السياسى من بنى أمية ، وكيف جرؤ على أن يمن على الخليفة بدوره فى نصرته حتى كاد يكفِّر كل الأحزاب الأخرى، وهى اللغة التى تداولها أيضاً شعراء تلك الأحزاب فى محاولة لتكفير الخلافة ورد مقولات شعرائها .

أما عن الدوافع السياسية والاجتماعية فتظل واردة من خلال هذا الركام النفسى والسلوكي على اختلاف تصانيف الشعراء ، وكذا كان تخصص البيئات المختلفة خاصة ما ظهر من أمر شعر المدح والسياسة فى الشام ، أو شعر النقائض والشعر السياسى فى العراق، ثم الشعر الغزلى العذرى والحضارى فى بوادى الحجاز ومدنه على السواء.

وتبقى السمات الفنية الواردة حول استخدام الشعراء لهذا المعجم رهناً بالطابع الغالب على أداء الشاعر الواحد، مما يؤكد استمرارية تجلى الفروق الفردية بين الشعراء ، أو لنقل الفروق الواضحة بين البيئات المختلفة، على نحو ما انتشر من الصيغ التقريرية المباشرة التى انسحب أمامها التصوير فى أدب السياسة وشعر الاحتجاج، وكذا فى المدح السياسى وقليل من الهجائيات . وقياساً على عكس ذلك تجد التصوير فى شعر الغزل، وفى كثير من شعر النقائض أيضاً؛ لأن الشاعر يبدو هادئاً أمام تجربته التى تمرس

طويلاً بتصوير نظائر لها حتى تحول الاتجاه الغزلى إلى مدرسة لها حدودها وخصائصها الفنية المتميزة، أو لأن الشاعر يبدو ملحاً على إظهار فحولته في عصر من عصور الجدل والصراعات الفكرية ، فكيف يظهرها إلا من خلال تداخل هذا الركام الفكرى فى القصيدة بما يدعم موقفه ويحوز به التفوق على خصمه حتى يفحمه.

بل ربما ظلت هذه السمات رهناً بانعكاسات مواقف الشعراء أنفسهم إزاء الفرق المتجادلة وقد اشتد صراع أفكارها، فأصبحت تلك الأفكار مشاعا بين الشعراء، ويظل للشاعر حق الاختيار للفرقة التى يأخذ بمبادئها، ومن ثَمَّ فهو يمارس حقه فى استغلال مصطلحاتها وتوجيهها فى شعره إلى حيث يريد ، ومن هنا كان تطويع الألفاظ مرة فى عالم الغزل، وأخرى فى الهجاء، وثالثة فى المدح ، ورابعة فى السياسة أو العصبية وهكذا... .

فإذا استطعنا أن نتلمس من هذا المعجم سمات الحياة الأموية من خلال شعرائها بدت الصورة واضحة جلية، ويبقى امتدادها الصحيح رهناً بانتقالنا إلى الحياة العباسية وتتبع مسارات المؤثر الإسلامى فى إبداع شعرائها .





الفصل الثالث

مستويات التأثير فى معجم الشاعر العباسى

١ - توجهات الحياة العباسية .

٢ - روميات الشعراء .

٣ - التاريخ الإسلامى .

٤ - المذاهب الفكرية .

٥ - الزهد والتصوف .

٦ - سمات المعجم .

(١)

و مع ما شهدته البيئة العباسية من تطور فى فنون الشعر ، ومع تعدد موضوعاته ومجالاته ظلت صلة شعراء العصر بالتراث الإسلامي وطيدة بشكل يلفت النظر ، وحين نقول يلفت النظر على الرغم من أنه موقف طبيعى على الصعيد التاريخي باعتبار العصر امتداداً طبيعيا للعصر الإسلامي ، فإنما نقصد بذلك إلى ما عرف عن البيئة العباسية من انتشار تيارات الفساد الاجتماعي ، والتحلل الأخلاقى ، وانهيار الكثير من القيم فى إطار عالم الزندقة والمجون واللهو ، إلى العبث بقضايا الغيب والمساس بأصول العقيدة لدى بعض كبار شعراء العصر ، إلى الإسراف والمجاهرة فى ممارسة المتعة المحرمة فى مجالس الندماء ، وشرب الخمر، وغيرها من صور العربدة والدعوة إلى التحلل من كثير من القيم . ويكفى شاهداً أن نتتبع الموقف الجغرافى للمجون العباسي في المدن المختلفة ، ثم في الأديرة خارج المدن ، ثم فى المتنزهات والرياض والحدائق ، ثم في دور الشعراء ومجالس الغناء ودور القيان ، بل حتى فى القصور العباسية ذاتها ، فماذا بقى إذن -جغرافياً - لغيرها من التيارات ؟

ووسط هذا الزحام من أصوات اللاهين والمجان وعربدة السكارى والمخمورين اللاهثين وراء اللذه المؤقتة شهد العصر نغمة إسلامية رفيعة المستوى ردَّدها الشعراء فى جُل موضوعات الشعر ، فلم يعرف المعجم الإسلامى سبيلا إلى الخفوت أو الأفول ، بل زاحم تيارات الحضارة ، وقاوم بعضا من سلبياتها ، واستمال الكثير من شعرائها ، وانتشر عبر كثير من الموضوعات التقليدية منها والمستحدثة على السواء .

ولعل من أكثر صور المعجم الإسلامى انتشارا ما ورد على ألسنة شعراء المدح ممن أداروا حوارات دينية مكررة حول فضائل ممدوحيهم ، فصوَّر فريق منهم حركة الجهاد الإسلامى ضد الروم وغيرهم من أعداء الإسلام ، وراحوا يترقبون حركة الخلافة فى نصرة الدين ، ومنطق الدفاع عن الرعايا حرصا منهم على توثيق الغزوات ، وتصوير الحروب من حيث دوافعها وأحداثها ونتائجها ، ورصد الانتصارات التى زادت أحداث التاريخ توثيقا ، بل ربما أضافت إليها من التفاصيل كثيرا من الصور فى عصر شهد استمرارية مكانة الشاعر وسيلة إعلامية يعتمد عليها مجتمعه كل الاعتماد .

(٢)

ومع قصيدة المدح بدا موضوعها أكثر قابلية للتطويع لاكتساب صور من هذا التيار الإسلامى ، واستيعاب كثير من صور معجمه وتقاريره . فقد اتسعت حدود دائرة الفضيلة فشملت وقائع وأحداثا جساما ، عاشها الخلفاء فى خضم حروب دامية مع أعداء الإسلام من الروم ، الأمر الذى جعل الممدوح العباسى يظهر كفارس مسلم يدافع عن الدين ، ويحتسب عند الله أجره قبل أى اعتبار آخر ، على النحو الذى رسخه قول أبى تمام فى دوافع المعتصم فى فتح عمورية وهو بصدد تصوير فرار تيوفيل :

هيــهــاتَ زُعــزِعَتِ الأرضُ الوَقُــورُ به

عن غـزو مـحـتـسب لا غـزو مكتـسب (١)

ثم دوافع تدبير ممدوحه للغزو :

تدبيــرُ مــعــتــصم بالله منتــقم

للّه مــــرتقب فى الله مــــرتغب

وهو ما طرحه فى صورة أكثر وضوحا ومباشرة :

يا فــارسَ الإســلام أنتَ حَـمَـيْـتَـهُ

وكـفَـيْـتـهُ كَلْبَ العَـدُوِّ المـعْـتَـدِى (٢)

وكذا على نحو ما صوَّره من شجاعته التى تمركزت فى حمايته ثغور الدولة ، فإذا هو يحمى حماها ، ويذود عن الإسلام خصومه :

أصــبحْتَ مِـفْـتَـاحَ الثُّـغـور وقُـفْلَهَـا

وســدادَ ثُلْمَــتِــهَـــا التى لَمْ تُـسْــدَدِ

---

(١) الديوان.

(٢) الديوان ١٣٨/٢ كلب العدو : أذاه وشره.

فهو يشكل الصورة - هنا - من منظور دينى محض ، رسخ فى ذهنه قياسا على ما عرضه فى لوحة عمورية ، حين كرر إسناد فتحها وتحطيم حصونها إلى الله سبحانه :

من بعد ما أشَّبوُها واثقين بها
والله فَتَّاح باب المعقل الأشب

وعندئذ تزداد صورة الخليفة إشراقًا وتجليا، وخاصة حين يغلفها الشاعر بذلك الطابع الدينى المحض ، لا من حيث الدوافع فحسب ، بل حتى من حيث التقدم الفعلى فى القتال ، على النحو الذى سجله أبو تمام أيضا حين نسب تقدُّم المعتصم إلى الإرادة الإلهية العليا لا إلى قدراته البطولية فى قوله :

رمىَ بكَ اللهُ بُرْجَيْها فَهدَّمَها
ولَوْ رَمىَ بكَ غيرُ اللّه لم تُصبِ

فلا مانع لدى الشاعر من أن يجعل ممدوحه البطل المسلم مجرد أداة يرمى بها الله خصوم دينه ، ولو كان الممدوح وسيلة من عند غير الله لكانت الهزيمة من نصيبه مهما كانت شجاعته ، وهو مانجده يتردد أيضا عند أشجع السلمى فى مثل قوله :

وليَهْنِكَ الفتْحُ والأيامُ مُقْبِلةٌ
إليكَ بالنَّصر معقودا نواصِيها
أمستْ هرقْلَةُ تَهْوى من جوانبها
وناصرُ اللهِ والإسلامِ يَرْميها
إن الخليفةَ سيفٌ لا يُجَرِّدُهُ
إلا الذى مَلَكَ الدنيا وما فِيها [٣]

وكأن كلا من الشاعرين راح يصوغ فى فنه معنى الآية الكريمة حول حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزواته ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا ﴾ [٤] .

---

(٣) الأغانى ١٨/١٧٤. (٤) سورة الأنفال ١٧.

ولذا ردَّد بعض شعراء الزهد ما راح ينطق بالربط بين أحداث التاريخ الإسلامى على هذا النحو الذى قاله عبدالله بن المبارك فى منطق الجهاد ، مؤكدا ما يذهب إليه بمنطق الكتاب الكريم ، وما ورد تأثرا برسول الله صلى الله عليه وسلم وتأسيا بقوله وإشاراته :

ولقد أتانا عن مقال نبينا
قولٌ صحيح صادقٌ لا يكذب
لا يستوى وغبارُ خيل الله فى
أنف امرئ ودخانُ نار يَلْهَبُ
هذا كتاب الله ينطق بيننا
ليس الشهيدُ بميِّت لا يكذب [٥]

وتتوالى الأحداث الجسام ، ومعها يزداد مدد المعجم الدينى ، وتشهد دائرة الفضيلة الإسلامية اتساعا وعمقاً ، حتى مع نتائج الحروب التى لم يستهدف منها الخلفاء غنائم ولا اكتساباً ، بقدر ما سيطر عليها من قداسة الرغبة فى نصرة الدين والحفاظ على رعاياه ، على غرار ذلك المنهج الذى عرضه أبو تمام أيضا فى ظلال المقارنة التى عقدها بين فتح عمورية وبين يوم بدر فى قوله :

إنْ كانَ بين صُروف الدَّهر من رَحم
موصولة أو ذِمام غير مُنْقَضِبِ
فبينَ أيَّامك اللاتى نُصرْتَ بها
وبين أيامِ «بدر» أقربُ النَّسَبِ

وكأن هذا الربط ما كان إلا نتاجا طبيعيا للمسلك الدينى القويم ، الذى خرج على أساسه الخليفة المعتصم غازيا ، وبذا كانت نتائج الفتح مجسَّدة فى تعبير السماء عن سعادتها به وبأخباره قبل الأرض والدنيا التى ازدانت من جرَّاء نتائجه :

---

(٥) النجوم الزاهرة ٢/١٠٣.

فـــتحٌ تَفـــتَّحُ أبوابُ السَّـــمـــاء له

وتبـــرزُ الأرضُ فى أثْوابِهـــا القُـــشُبِ

وهو ما سعد به الإسلام تصريحا فى قول أشجع فى خطابه للخليفة :

يُـثْـنِـى عـلـى أيّـامـك الإســــــلام

والشــــاهـدان : الحِلُّ والإحْـــرَام

وعلى عَـــدُوِّك يا ابنَ عَمِّ مـــحـــمـــد

رَصَـــدانِ : ضـــوءُ الصبح والإظْلاَمُ (٦)

وهو ما بدا شديد الوضوح أيضا فى مدح أبى تمام لأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى فى قوله :

يـومٌ به أخـــذَ الإســـلامُ زينتَـــهُ

بأسْـــرها واكـــتـــسى فـــخـــراً به الأبَدُ

يومٌ يجىء إذا قـــام الحـــســـابُ ولم

يذمُـــمْـــهُ «بدرٌ» ولم يُفْـــضَحْ به «أُحُـــد» (٧)

وإذا هو أيضا يصور الأرض المقدسة ضاحكة مستبشرة من منظور دينى كما أسعد به السماء :

ضـــحكَتْ له أحـــيـــاءُ مكةَ ضـــحكهـــا

فى يوم بدر والعُـــتـــاة الشُّـــهَّـــد (٨)

ولم يكن أبو تمام هو الفارس الوحيد الذى صور بلسانه روعة النصر الدينى فى «عمورية» أو غيرها من روميات الخلافة العباسية ، فقد شاركه فى ذلك على بن الجهم بنفس المستوى الانفعالى ، وقياس الصدق التصويرى فى عرض نفس الفتح أيضا وما كان من استحسان نتائجه على المستوى الدينى :

---

(٦) البيان والتبيين ٣/٣٢٥ .

(٧) ديوان أبى تمام ٢/١٢.

(٨) ديوان أبى تمام ٢/١٣٨ .

مـنـاظـرُ لا يَـزَالُ الـديـنُ مـنـهـــــــــا

عـــزيزَ النصـــر مـــمنوعَ المَـــرَام [٩]

وإذا بالنتائج تُبْنَى على نفس المقدمات الدينية على شاكلة قول أبى تمام :

وعـــمُّـــورِيَةُ ابتـــدرَتْ إليـــهـــا

بـوادرُ من عَـــزِيز ذى انْتِـــقَـــام

وإذا بالشرك يلْقَى مصرعه أمام جحافل المسلمين ، لتكون الحرب - فى جملتها - حرباً دينية ، وليكون الخروج إليها جهاداً إسلاميا يترجمه ما كان من تهاوى عمورية ، وما ستتبعه رفع راية الإسلام ، على نحو ما من صورة قول أبى تمام أيضا فى خطابه للمعتصم بالله :

حـتى تركْتَ عـمُـودَ الشِّـرك مُنْقَـعِـرا

ولـم تـعَـــــرِّج عـلـى الأوتـادِ والـطُّـنُب

ومن هنا كان تأكيد قوله فى حواره مع يوم عمورية :

أبقْـيتَ جَـدَّ بنى الإسْـلام فى صُـعُـدٍ

والمـشـركـين ودارَ الشِّـرك فى صَـبَبِ

أو فى نتائج المعركة فى ختام القصيدة ذاتها جامعًا كل أيام المعتصم مع الروم :

أبقَتْ بنِى الأصْـفَـر المِـمْراض كَـأسـمِـهمُ

صُـفْـرَ الوجـوه وجلَّتْ أوجـهُ العَـرَبِ

وهى صور كثر تداولها لدى الشعراء ، وتعاورتها ألسنتهم ، وتزاحمت عليها خواطرهم، فكانت قريبة منها أيضا صورة أبى الشيص حول هزيمة الشرك أمام الإسلام على نفس العمق التصويرى ، أو قريبا منه :

شَـدَدْتَ أمـيـرَ المـؤمنين قُـوَى المُلْك

صَـدَعْتَ بفَـتْح الرومِّ أفـئـدةَ التُّـرْكِ

---

(٩) ديوان على بن الجهم ٩.

فَـــرَيْتَ ســـيــــوفَ الله هـامَ عَــــدُوِّه
وطَأْطَـأْتَ للإســـلام نـاصـيــةَ الشِّــرْكِ [١٠]

وفي موازاة التحول الذي رأيناه وقد أصاب قصيدة المدح الأموية حين وزّعها شاعر العصر بين مدح تقليدي وبين لوحات السياسة الخالصة نجد القصيدة العباسية تأخذ نفس المنحى من القسمة على مستوى الشكل ، ولكن من منظور آخر ربما يعكس طابع التحول الذي أصاب العلاقات الخارجية والداخلية في الدولة ، فقد أخذت الخلافة بمبدأ القسوة والعنف مع أهل الفتن والمناوئين لها من بقايا الفرق السياسية ، حتى كادت - بذلك - تسكت أصوات المعارضة ، وعندها تهاوى الصوت السياسي الذي ارتفع فملأ الآذان في عصر بني أمية من قبل الشيعة والخوارج والزبيريين .

وفي مقابل هذا التهاوي ارتفعت أصوات أخرى تهاون معها خلفاء بني العباس ، ربما من قبيل المجاملة ، وربما من قبيل الخوف والحذر أو المهادنة ، وربما أخذ الخلفاء - آنئذ - درسًا أليما من وقائع الأحداث التي دالت لهم من بني أمية ، فأرادوا أن يضمنوا لسياستهم أنصارا من الأمم المفتوحة التي شاركت في إسقاط الحكم الأموي، وهو الأمر الذي نجم عنه توجيه معظم طاقات الخلفاء إلى السياسة الخارجية حول مناطق الثغور ، وترقب تحركات الروم التي قصدت إلى تهديد الدولة الإسلامية ، ومن ثم عرفت القصيدة المدحية قسمة جديدة لها على أساس من حركة تلك السياسة الخارجية فكانت معرضا للمدح والهجاء معا ، حيث راح الشاعر يتبنى قضايا الإسلام من منظور تعارضه مع قضايا الشرك ، على عكس ما تراءى لنا من صراعات الفرق الإسلامية وتكفير بعضها بعضا على نحو من الصراحة التي ترجمها مثل قول نصر في المرجئة :

إرجـــاؤكم لزَكُمْ والـشِّـــرْكَ في قَـــرَنٍ
فـــأنتمُ أهـلُ إشْـــرَاكٍ ومُـــرْجُـــونا

وبذا كان طرح هذه الصور على سبيل التناقض قاسما مشتركا بين كبار شعراء العصر على النحو الذي اصطنعه أبو تمام في بائيته في «عمورية» ، وعلى النحو الذي

---

(١٠) أشعار أبي الشيص ٨٥.

سارت فى إطاره حركة الجهاد الدينى على المستوى الداخلى أيضا فى مثل نهوض المعتصم بالله ضد قائد جيوشه (الأفشين) حين انكشف له أمره ، وتبينت خيانته ، وافتضحت نواياه التى جسدتها محاولته لإعادة مذاهب الفرس (المجوسية) ، وما تأكد حوله من أن قوما من الفرس كانوا يكاتبونه باسم (إله الآلهة) ، وأنه كان دائم التربص بالمسلمين حتى كشف الله للمعتصم أمره فصلبه ثم أحرقه (سنة ٢٢٥هـ) . [١١]

ووجد أبو تمام فرصته فى هذا الجو الغامض الكئيب ، ليطرح أبعاد الموقف من منظور دينى محض ، عرض فيه من لوحات الفن ما يعكس أثر المعجم الإسلامى فى نفسه، على نحو ما ردده فى قصيدته الرائية المشهورة ومطلعها :

الحقُّ أبْلَجُ والسيوفُ عَوَار

فحذارِ من ليث العرينِ حذار [١٢]

وفيها يقول موثقا صلة الخليفة بدينه وتمسكه به ودفاعه الدائم عنه :

مَلِكٌ غدا جَارَ الخلافة منكمُ

واللهُ قَدْ أوْصَى بحفظ الجَار

فلعله بذلك أشار إلى دلالة الآية الكريمة ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.[١٣]

أو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» .

وهو يضخم من حجم الفتنة حين تصل إلى درجة التحريض على معصية الله تعالى، على نحو ما كان من كاوس بن خيذر (الأفشين) :

يارُبَّ فِتْنَةِ أُمَّه قد بَزَّها

جَبَّارها فى طَاعَةِ الجَبَّار

---

(١١) تراجع تفاصيل تلك الوقائع فى مقدمة ابن خلدون ٥٦٨/٣ والطبرى ١٠٤/٩.

(١٢) ديوان أبى تمام ١٩٨/٢ ، ابن الأثير ٢٥٩/٥.

(١٣) سورة النساء. ٣٦.

مصوِّرا بعد ذلك طغيانه وكفره في لوحة كاملة ، يعرض فيها موقفه منذ خرج على المعتصم ، وتنكر له ، وبطر على نعم الله التي غمرته في ظلال حكمه :

كَمْ نِعْمَةٍ لله كانتْ عنده

فكأنَّها في غُرْبَةٍ وإسَار

ثم يؤكد ما كمن في صدره من كفر بالله ، وكيف طُبع على النفاق :

حتى إذا ما اللَّهُ شَقّ ضَمِيرَهُ

عن مستكن الكفر والإصرارِ

ونحَا لهذا الدين شَفْرَتَهُ انْثَنى

والحقُّ منه قانئُ الأظْفَار

متأسِّيا في ذلك بالمعاني والصور التي وردت في الآيات القرآنية فإذا بالطغيان ينتهي به إلى «دار البوار» :

جالَتْ بخَيْدَزَ جَوْلَةُ المِقْدَار

فأحلَّهُ الطغيان دارَ بَوَارِ

مستوحيا في ذلك معنى الآية الكريمة ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [١٤] وكذا في قوله :

مَكْرًا بَنَى رُكْنَيْه إلا أنّه

وطدَ الأساسَ على شفير هَارِ

متأثرا أيضا بدلالة النص القرآني من قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾[١٥] وإذا بالشاعر لا يترك الأفشين حتى يكشف طابع معتقده المجوسي ، وما كان من جنايته على الإسلام لولا أن كشف الله أمره ، فإذا هو من رؤوس الشرك وعُبَّاد النار التي بدت الآن :

---

(١٤) سورة إبراهيم ٢٨. (١٥) سورة التوبة ١٠٩.

مَـــشْــبُــوبَةٌ رُفِـــعَتْ لأعظَمِ مُـــشْـــرِكٍ

مـــا كـــانَ يرفعُ ضَـــوءَها للسَّـــارى

صلىَّ لهـــا حَـــيًّــا وكـــان وَقُـــودَها

مَـــيْـــتًـــا ويَدْخُلُهـــا مَعَ الفُـــجَّـــارِ

مستأنسا فى ذلك بدلالة الآية الكريمة ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [١٦] وإذا هو يعاود تصوير عشق الأفشين للكفر ، وحرصه عليه ، فلا يكاد يجد معادلا للموقف إلا من خلال ما التقطه من التاريخ الأدبى من غَزَل الفرزدق فى زوجته «نوار» وما حدث من ندمه من جراء تطليقه إياها حتى اتخذه جرير مجالا لسخريته وتهكمه فى نقائضه ، فيقول أبو تمام عن الأفشين وكفره معرِّجا على هذا اللمح والإشارة إلى شريحة من التاريخ الأدبى :

فـــإذا ابنُ كـــافـــرةٍ يُسَـــرُّ بِكُفْـــرِهِ

وَجْـــدًا كـــوَجْـــدِ فـــرزدقٍ بِنَوَارِ

ومن ثم اشتد حرصه على إخراج الأفشين من دائرة المسلمين ممن أخلصوا دينهم لله ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، فيستعيد آنئذ من مشاهد التاريخ الإسلامى إحدى صور الرعيل الأول ، ويختص منهم الصديق رضى الله عنه وما كان من صحبة الوفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار على النحو الذى صوره القرآن الكريم ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[١٧] فإذا بالأفشين يلحق بأقرانه من المارقين المرتدين ، وينضم إلى حزب الكفار على عكس ما عرفه الإسلام من تلك الصحبة المباركة التى بدا الدين قوامها الأول :

ثَانِيـــه فى كَـــبِـــدِ الســـمـــاء ولم يكُن

لاثنَـينِ ثَانٍ إِذْ هُمـــا فى الغَـــارِ

ولا يكاد أبو تمام يختتم قصيدته ، حتى يستطرد عودا إلى كشف أبعاد أخرى من كفر الأفشين بالنبوة والهدى ، ليبدو جزاؤه بذلك من جنس عمله :

---

(١٦) سورة الانفطار ١٤ .

(١٧) سورة التوبة ٤٠ .

كـــادوا النُبُـــوَّة والهُـــدى فـــتــــقطَّعتْ

أعناقُـــــهم فى ذلك المِــــضْـــمَـــــار

تنفيذاً بذلك لجزاء الذين أفسدوا فى الأرض وحاربوا الله ورسوله ﴿أن يقَتَّلوا أو يصَلَّبوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾[18] ذلك أن مكر هؤلاء لا يساوى شيئا أمام قدرة الخالق على الانتقام منهم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [19] وهؤلاء إنما ينالون جزاءهم بناء على مقدمات أسرفوا فيها وتمادوا فى غيِّهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [20] . ولم تكن الإطالة فى التوقف عند أبى تمام كشفاً لتوقف المعجم الإسلامى عليه دون سواه من شعراء العصر العباسى، بقدر ما تبدو مؤشراً لشيوع الظاهرة حتى عند من خاضوا القول فى الزندقة من قبله ، إذ نجد بشارا فى مستهل العصر العباسى يحاول أن يشيع فى أبياته من هذا الحس الإسلامى بعضا من المعانى التى حاول فيها أن يقترب من شعراء عصره فى قدرته على الأخذ والإفادة من المعجم الإسلامى ، وربما كان المدح أقرب الموضوعات أمامه لاستيعاب تلك المعانى الإسلامية ، وبعض القيم التى آثر بشار إعادة طرحها فى دائرة فضيلة ممدوحه من منطق التقوى ، والحرص على دينه ، والذود عنه ، وما يصحب ذلك كله من وقاره وحلمه حتى ليبالغ فى تصوير هذه الصفات حين يقرنها بما كان فى رسول البشرية عليه الصلاة والسلام ، فيقول بشار فى الخليفة المهدى :

فــــتَى قـــــريش دينًا ومكرمــــــة

وهبْتُ وُدِّى له بمَــــــا وَهَــبــــــا

يعطيكَ مــــــــا هبَّت الرياح ولا

يطمعُ فى دينه وإن قـــــــــرُبَا

شــــــهمٌ وَقـــــورٌ يزينُ غُـــــرَّته

حلمٌ وزانَ الوقـــارُ مـــا اجــتنبــا

(١٨) سورة المائدة ٣٣.
(١٩) سورة الأنفال ٣٠.
(٢٠) سورة الأنفال ١٣.

تـرَىَ عليـــه ســـيـــمـــا النبى وإن

حـــارب قـــومـــا أذْكى لهم لَهَــبـــا [٢١]

كما قال فيه أيضا مصورا الموقف بينه وبينه ، حين منعه من القول الصريح فى الغزل ، أو التعرض لطريق الغواية والسيئ من القول :

تثـــاقلت إلا عن يَد أســـتْـــفَـــيـــدها

وزَوْرَة أمـــــلاك أشُـــــدُّ بـهـــا أزْرى

وأخـــرجَنَى من وزر خَـمـسـين حِـجّـــةً

فــتًى هاشــمىٌّ يقــشــعــرُّ مِنَ الوِزْرِ

فـــلا تعــجَــبى من خـــارج من غِـــواية

نوَى رَشَـداً قـد يعـرض الأمــرُ فى الأمْـر

فـــهـــذا وإنِّى قـــد شَــرَعْتُ مع التُّـــقى

ومـاتَتْ همومى الطارقاتُ فمَا تسرى [٢٢]

صحيح أنه لا يكشف بذلك عن تأثر مباشر بمعان معينة لآيات بعينها ، ولكنه يبدو قادرا على تلمس أبعاد سبيل الرشد والهداية حين ينأى بنفسه عن غوايتها وضلالها ، ثم هو يأخذ من هذا السلوك الدينى ما يضفيه على الخليفة الذى يقشعر من الوزر ، ثم ما يضفيه على نفسه وقد آثر طريق الهداية وشرع فى سبيل التقى مما يتنافى مع منطقه العبثى الذى أحسّ فيه خفة ظله ، فبالغ فى تصويرها حين قال فى نفس الموقف من منظور يبعد به كثيرا عن هذا الحس الدينى ويتنافر معه :

ونهـــــانىَ المَلِكُ الهُـــمـــا — م عن النســيب ومــا عــصــيــتــه

إن الـخـلـيـــفـــة قــــد أبى — وإذا أبى شــيـــئــا أبيـــتـــه

والـلـه رب مـــــحـــــمــــد — مــــا إن قــــصـــدتُ ولا نَوَيْتُـــهْ

❄ ❄ ❄

---

(٢١) ديوان بشار ١/٣٢٧.

(٢٢) ديوان بشار ٢/ ٢٥٠.

(٣)

ولم يقف الشعراء عند موضوع المديح وحده بل أفسحوا للمعجم الإسلامى مجالات أخرى كثيرة كثُر فيها حوارهم على صعيد الموضوعات المختلفة حربية كانت أو غير حربية ، الأمر الذى يكشف عن دقة صلتهم بهذا المعجم ، فأخذوا منه الكثير من المعانى والصور فى زهدهم ، وهنا بدا إخراج الصورة جديدا بحكم سيرة الشاعر الزاهد حين يستوقفه - أيضا - ذلك الطابع الدينى للحروب على النحو الذى ذهب إليه أبو العتاهية حين ذكر خروج الرشيد لقتال بندار هرمز بطبرستان : [٢٣]

ألا إن حــزبَ اللَّه ليس بمُـعْـجِـزِ
وأنصــارُه فى منعــةِ المــتــحــرِّزِ

أبىَ اللهُ أن يُعْـصَى لهـارونَ أمــرُه
وذلّت له طَوْعــا يدُ المــتُــعَــزِّزِ

إذا الراية الســوداءُ راحَتْ أو اغْـتَـدت
إلى هارب منهـا فليسَ بمُـعْـجِـزِ

أطاعَتْ لهــارونَ العُــدَاةُ لدَى الوَغَى
وكــبَّــر للإســلام بندار هُرْمُــزِ

وبذلك انتشر الحس الإسلامى فى لوحات الحروب لدى شعراء المديح الذين نالوا مكانة مرموقة فى هذا الفن ، أو من آثر منهم طريق الزهد على نحو ما كان من أبى العتاهية الذى لم تكد صورة تخلو لديه من ذكر الله سبحانه وتعالى ، وعنده كثر الإلحاح على ذكر الدين ونسبة النصر فى الحروب إلى الله ، وهو النحو الذى ردَّده مسلم بن الوليد أيضا فى ثنايا مدحه داود بن يزيد :

(٢٣) شعر أبى العتاهية ٦٣.

والله أطفأ نار الحرب إذ سعرت

شرقاً بموقدها فى الغرب داوود

ناضلتهم - زائد الإسلام تقرعهم

عنه ثلاث ومثنى بالمواحيد

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

لا يعدمنك حمى الإسلام من ملك

أقمت قلته من بعد تأويد

أجرى لك الله أيام الحياة على

فعل حميد وجد غير منكود

لا يفقد الدين خيلا أنت قائدها

يعهدن فى كل ثغر غير معهود

من هنا تبدو اللوحة قائمة على أساس من الحرص على طرح الحس الإسلامى الذى يترجمه سلوك القائد فى حروبه ، دون أن يأبه فى ذلك بمطامع دنيوية أو غنائم وسلب، بل يقبل على الموت إقبالا دينيا صرفاً يعكس سلوك المسلم فى قوة إيمانه ، وخاصة حين تلتقى فى نفسه الفضائل الدينية القويمة ، تلك التى يستجمعها الشاعر فى قليل من الأبيات على النحو الذى صور فيها يزيد بن مزيد الشيبانى قائلا :

لا يستطيع يزيد من طبيعته

عن المنية والمعروف إحجاما

خيل له ما يزال الدهر يقحمها

فى غمرة الموت يوم الروع إقحاما

أذكرت سيف رسول الله سنته

وبأس أول من صلى ومن صاما

قطعْتَ فى الله أرحــامَ القَــريب كَــمــا

وصلْتَ فى اللَّه أرْحَــامًــا وأرْحَــامــا

يطيبُ منكَ مع الآمــال صــاحــبُــهــا

حِلْمــاً وعِلْمــا ومَـعْـروفــاً وإسْــلامــا [٢٤]

ولعل الجانب الإسلامى فى لوحات المدح الحربى قد طرح على الشعراء من الثقة فى انتصارات ممدوحيهم الكثير ، وإذا بالشاعر يتحول من مجرد مادح إلى ناصح ومرشد وموجه ، تدعوه ثقته فى تدين ممدوحه والنصر الإلهى المتوقع له ، تدعوه إلى أن يزداد عنفا فى قتاله ، ويشتد غضبه من أجل الدفاع عن دينه ، على نحو ما كان من تحريض محمد بن يوسف لهارون الرشيد على العودة إلى غزو بلاد الروم وتأديب ملكهم «نقفور» بعد أن نكث عهده معه :

نقَضَ الذى أعطيــتــهُ نِقْــفُــورُ

فــعليــه دائرةُ البَــوار تَدور

أبشِــرْ أمــيــرَ المــؤمنين فــإنه

فــتحٌ أتاكَ به الإله كَــبــيــر

فلقَــدْ تبــاشــرت الرَّعــيــة أن أتى

بالنقض عنه وافــدٌ وبشــيــر

ورجَت يمــينُك أن تُعَــجِّل غــزوةً

تشْــفي النفــوسَ مكانُهــا مَــذْكــوُر

نقــفــور : إنك حــينَ تغــدُر أَنْ نأى

عنك الإمــامُ لَجَــاهلٌ مــغَــرورُ

ألقــاكَ حَــيْنُك فى زَواخــر بَحْــره

فطمت عليك من الإمــام بُحُــور

---

(٢٤) ديوان مسلم بن الوليد ٦٢ - ٦٧.

ملك : تجــرَّد للجـــهـــاد بنَفـــســـه

فـــعـــدُّوه أبداً به مَـــقْـــهُـــور [٢٥]

وإذا بصدى الموقف ينعكس لدى أشجع السلمى خاصة بعد الانتصار حيث يجد الفرصة مهيأة لأن يهنئ الرشيد لما فتح «هرقلة» وهزم «نقفور» مما يذكرنا بموقف أبى تمام من بعده فى فتح عمورية ، يقول أشجع :

ولِيَـــهْنك الفـــتحُ والأيامُ مـــقـــبلةٌ

إليك بالنصــر مــعــقــوداً نَوَاصــيــهــا

أمــست هِرَقْلَةُ تهــوى من جــوانبــهــا

وناصـــرُ الله والإســـلام يَرْمـــيـــهـــا

إن الخليـــفـــةَ ســـيفٌ لا يجـــرِّده

إلا الذى يَمْلك الدنيــا ومــا فــيــهــا [٢٦]

وهو النهج الذى شاعت فى إطاره صور الانتصارات الحربية من منظور دينى . حتى أصبحت قاسما مشتركا بين شعراء العصر الذين راح يكرر بعضهم بعضا ، بل راح الواحد منهم يكرر نفسه بين قصائده ، فهو يصدر من نفس المنطلق الذى يسيطر عليه فيه المصدر الإسلامى ، وإذا بالظاهرة تشيع إلى درجة من العمق ، فتشمل كل شعراء العصر - تقريبا - من كان منهم على قدر من التدين ، أو حتى الخلفاء الذين أرادوا إظهار تدينهم وواجبهم إزاء العقيدة ، حتى يخففوا من إحساسهم بنفور المجتمع منهم ، فإذا بالحسين ابن الضحاك يصور الطابع الإسلامى فى انتصارات ممدوحه قائلا :

ترَى النصـــــرَ يقـــــدُمُ رَايـاته

إذا مـــا خـــفـــقن أمـــامَ العَلَمْ

وفــى اللــه دوَّخ أعــــــــداءه

وجـــرَّد فـــيـــهم ســـيـــوفَ النِّقَمْ

---

(٢٥) ديوان مسلم ٢٥.

(٢٦) الأغانى ١٩٦، أشعار الخليلى ٩٨.

وفـى اللـه يـكـظـمُ مـن غَـيْظـه

وفى اللّه يصـفحُ عـمَّن حَـرَمْ [٢٧]

وعلى هذا النحو بدأ يوسع من دائرة الفضيلة، وهى المنطقة التى تمس أخلاق الممدوح حتى فى تعامله مع أعدائه ، ويسبق ذلك - بالضرورة - منهجه فى التعامل مع رعاياه ، فإذا هو يسلك سلوكا إسلاميا قويما يدخله ضمن دائرة ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [٢٨] على النحو الذى صورته الآية الكريمة .

وعلى هذا النهج - أو قريبا منه أيضا - اتسعت دوائر الفضائل ، ورسم الشعراء لممدوحيهم صوراً عديدة من هذه الزاوية الدينية التى عرضوا فيها نماذج مثالية من سلوكهم ، كان أساسها التقوى والورع والتمسك بمكارم الأخلاق ، على غرار ذلك النحو الذى عرضه أبو تمام من خلال صياغته التى غلب عليها حسن النسق والترصيع معا فى قوله :

تدبيـرُ مُـعْـتـصم بالله منتـقم

لله مُـرْتقب فى الله مـرتغب

وعلى نحو ما صوره إسحاق الموصلى فى تصويره للمعتصم أيضا من جمعه بين جمال الخلقة والخلق من منظور دينى يراه فيه :

كُـسِيَ الجـلالَ مع الجَـمـال وزانَهُ

هَدْيُ التُّـقَى ومكارمُ الأخْـلاق [٢٩]

ولذلك يبدو الشاعر شديد الحرص فى حواره الدينى ، حيث يقترب بالخليفة من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيبدو بها متمسكا ، وعليها تكون سيرته ومسلكه ، مما يدعم تلك الصفات الدينية فيه على النحو الذى ذهب إليه مروان بن أبى حفصة فى قوله :

أحـيـاَ أمـيـرُ المـؤمنين مُـحَـمَّـدٌ

سُنَنَ النبى حَـلاَلَهَـا وحَـرامَـهـا

(٢٧) نفس المصدر. (٢٨) سورة آل عمران ٣٤.

(٢٩) ديوان إسحاق الموصلى ١٥٦.

كِلْتَـا يَدَيْكَ جَـعلْتَ فـضلَ نَوالهـا

للمـسلمـين وفي العَـدُوِّ وبَالهَـا

وقَـعتْ مـواقـعـهـا بعـفْـوك أنفُسٌ

أذهَبْتَ بعـدَ مَـخَـافَـة أوْجـالَهـا

أمَّنتَ - غـيـرَ مُـعَـاقب - طُرَّادَها

وفكَكْت من أُسَـرائِهـا أغْـلالهـا

ونصَـبْتَ نفـسك - خـيـرَ نفس - دونَهـا

وجـعْلتَ مـالكَ وَاقـيـا أمـوالهـا [٣٠]

فإذا الممدوح يبدو عنده رجل دين من الطراز الأول ، فهو يسير على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحرص على إحياء سنته الشريفة من قبيل سلامة التشريع ، وبيان القول الفصل فى الحلال أو الحرام ، وعندئذ يأخذ فى إحياء السلوك اقتداءً به عليه السلام ، واستفادة بعفوه عند المقدرة ، الأمر الذى يدفع الخليفة إلى حماية رعيته والحفاظ على أمنها ، فإذا ما كان فى مواقف الحروب والانتصار سارع بالعفو عن أسراه، ولم يعرف سبيلا يؤدى به إلى البخل على رعاياه ، فهو يضحى ليحمى الرعية ، ويبذل لها ما يحقق لها رخاء وأمنا .

وتتسع دائرة الفضائل الإسلامية فى أشخاص الممدوحين ، ومعها يزداد حرص الشعراء على عرض تفاصيلها ، وقد استعانوا فى ذلك كله بما ثقفوه وزاد به وعيهم من مادة المعجم الإسلامى ، فإذا بأشجع السلمى أيضا يعرض فى مدح الرشيد صورة كاملة أساسها ما ردَّده أبو نواس فى نفس الممدوح أيضا فى قوله :

إمـامٌ يـخـافُ اللّه حـتَّى كـأنه

يؤمِّل رؤياهُ صـبـاحَ مـسـاءَ [٣١]

لتصبح الصورة أكثر تركيبا عند أشجع ، وخاصة حين يلتقى موجب الشخصية لديه فى السلم بموجبها أيضا فى ميدان القتال فإذا هو (أى الممدوح) :

(٣٠) ديوان مروان ٨١.

(٣١) ديوان أبى نواس ٤٠٢.

مَلِكٌ: من مَـــخَـــافَـــة اللَّه مُـــغْضٍ
وَهْوَ مُـــــغْـــضًى له من الإعْظام

ألفَ الحَج والجـــهـــاد فـــمـــا ينـ
فكُّ من سَـــفْـــرَتين فى كلِّ عـــام

سَـــفَـــرٌ للجِـــهـــاد نحـــوَ عَـــدُوٍّ
والمطايَا لسَـــفْـــرة الإحْـــرامِ

طلبَ اللهَ فـــهـــو يســـعى إليـــه
بالمطايا وبالجـــيـــاد السَّـــوامى

فـــيـــداه : يدٌ بمكة تدعـــو
هُ وأُخْـــرى فى غـــزوة الإسْـــلام

وإذا الممدوح لا يتوانى عن الخروج الدائم فى جهاده الدينى فى سبيل الله ، فهو فى حروبه مجاهد يحتسب عند الله تعالى أجره ، وفى سلمه يلتزم بالصورة الأخرى من الجهاد حول جهاد النفس ، والحرص على أداء فرائض الله تعالى ، وتلبية المناسك فى المشاعر المقدسة سعيا فى طلب رضا مولاه سبحانه ، من خلال يد تدعو وأخرى فى سبيلها الدائم إلى الغزو والاستمرار فى القتال لنصرة الإسلام .

ولعل اللوحة بهذا الشكل قد صارت – أيضا – جزءًا من ذلك القاسم المشترك بين أبى نواس ومروان ، إذ يبدو التوافق واردا بين كثير من ملامحها وجزئياتها ، وخاصة إذا ما عرضنا فى موازاتها قول النواسى :

هـارونُ أَلَّـفنا ائتـــلافَ مَـــوَدَّة
مـــاتَتْ لَهَـــا الأحـــقـــادُ والأضْـــغَـــانُ

فِى كلِّ عـــامٍ غَـــزْوَةٌ ووفَـــادَةٌ
تَنْبَتُّ بَيْنَ نَواهُـمَـــا الأقـــران

حَجٌّ وغَـــزْوٌ مـــاتَ بينهـــمـــا الكرَى

بالـيَــعْـــمَــلات شِـفَـــاؤها الوَخَـــدانُ

يـرمـى بـهـنَّ نـيـــــاطَ كلِّ تَنُوفَـــــةٍ

فِـى الله رَحَّـــالٌ بـهـــا ظَعَّـــانُ

يَصْلَى الهـــجـــيـــر بُغـــرَّةٍ مَـــهْـــديّةٍ

لو شـــاءَ صـــانَ أديمَـــهَـــا الأكْنَانُ

لكنَّه فـى الله مُـــبْـــتَـــذل لـهـــا

إن التَّــقِيَّ مُـــسَـــدَّدٌ ومُـــعَـــانُ (٣٢)

فلم يظهر هارون عنده إلا وقد امتلك القدرة على تأليف قلوب المسلمين جميعا ، مكتسبا بهذا المسلك من التاريخ الإسلامى الأسوة الحسنة على النحو الذى سجلته الآيات الكريمة فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (٣٣) ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . (٣٤)

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٣٥)

ففى ثنائية من هذا الجهاد المقدس يعيش هارون حياته بين غزو وحج ولا ثالث لهما عنده إلا القيام على العبادات ، فهو لايتورع عن بذل كل شىء فى سبيل الله ، فكان لذلك تقيا مسددا معانا من الله تعالى فى حربه وسلمه على السواء .

ولعل شعراء العصر قد شغلوا بهذا الطابع الحربى ، وأكثروا من تلوينه بتلك الملامح البارزة من مقومات الحس الإسلامى ، مما أعاد إلى الأذهان صفحات مشرقة من مشاهد ذلك التاريخ ، يوم أن كان المدد الإلهى يأتى مسانداً المسلمين فى حروبهم عن طريق ملائكة الرحمن ، فإذا بأبى العتاهية يعرض موقف ممدوحه مستوحيا هذه المعانى فى قوله :

---

(٣٢) ديوان أبى نواس.

(٣٣) سورة التوبة ١٢٨.

(٣٤) سورة النحل ١٢٥.

(٣٥) سورة آل عمران ١٥٩.

رحَلتْ عن الربع المــحُــيل قُــعُـــودي

مـن ذى زُحـــــوف جـــــمّـــــةٍ وجُنُودِ

وراعٍ يُراعـى الليل فـى حِـــفـظ أمــــة

يدافعُ عنهــا الشـــرَّ خـــيـــرَ رُقُـــود

بألوية جـــــبـــريلُ يقـــدُمُ أهلَهَـــا

ورايات نَـصْـــــــر حـــــــولهُ وبُـنُود

تجـــافَى عـن الدنيـــا وأيقن أنَّهـــا

مُـــفَـــارقَـــةٌ ليـــسَتْ بِدَارِ خُلودِ (٣٦)

فما كان من الشاعر إلا أن قرن موقف الشجاعة ولوحة البطولة بسلوك الخليفة ربطا بتدينه وثقته فى ثواب الله تعالى ، وإدراكه حقائق فناء الدنيا ، عارضا الموقف من منظور المصير الذى شغل به نفسه فى كثير من شعره ، ومستلهما من ورائها الكثير من الدلالات الدينية التى أزدحم بها عالم الزهاد «وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد» «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» ... إلخ..

وبذلك راحت مواقف الشعراء تتراوح بين الإيجاز والإطالة فى عرض ملامح الفضيلة الإسلامية فى الممدوحين ، وحتى مع ذلك الإيجاز لم يخف تركيز الشعراء المعانى بين ثنايا الأبيات ، فإذا بسلوك الخليفة يبدو منبثقا من واقعه الدينى ، على ذلك النحو الذى صوره مروان فى قوله :

فَــتًى لم يَدَعْ بَابا من الخــيــر مُــغْلقَــا

ولم يغْشَ مــمـــا حــرَّم اللهُ مَـحْــرَمــا

وتلقـــاهُ من فَــرْط الحـــيـــاءِ كـــأنه

سقيمٌ وإن أمسى صَحيحا مُسلَّما (٣٧)

---

(٣٦) شعر أبى العتاهية ٥٢٥.

(٣٧) الأشباه والنظائر ١/ ١٣١.

فممدوحه لا يقرب حدود الله ولا يأتي محارمه ، بل يسعى دَأْبا فى أبواب الخير على إطلاقها ، ليرضى نفسه ورعاياه ، وهو يبدو شديد الحياء وكأنه سقيم من ذلك الخجل الذى لم يطرح فى شخصه إلا سلوكا دينيا منذ ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه القدوة الحسنة للمسلمين، فقد كان عليه السلام (أشد حياء من العذراء فى خدرها) . ومن ثم كان تصويره عليه السلام للمؤمن بألا يكون طعانا ولا لعانا ولا متفحشا . وقد نال الخليفة المهدى حظا وافرا من مدائح مروان على هذا النهج . فبسط الشاعر فى شخصه من فضائل الإسلام كمًا ضخما طرحه على سبيل الإيجاز حينا ، وفى تفاصيل أخرى فى كثير من الأحيان ، فإذا هو - أى المهدى - يبدو عادلا بين رعاياه ، ينشر بينهم الكثير من صور الحياة الكريمة والخير العميم ، ويبدو على وجهه سيما الصلاح وإشراقة التقوى وقد امتزجت بملامح الحق ، حتى ليبدو قليل النوم من شدة قلقه على بيضة الإسلام ، وحرصه على قبته التى راح يحميها فى وقت نام فيه الخلق جميعا ، وقد أسندوا إليه أمرهم وأمنهم ، بينما ظل هو شديد الرأفة بهم ، وكأنه والد يرعى بنيه ، ولكنها الرأفة التى تصحبها قسوته وشدته في الحق ، حين راح يأخذ من الظالم ما ينتصف به للمظلوم مهتديا بتلك الصورة السلوكية المثالية التى رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم للخليفة المسلم فكان عليه السلام ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. [٣٨]

وكان والذين معه ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .[٣٩]

ثم كان عليه السلام كما زكّاه ربه سبحانه وتعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.[٤٠]

ومن هنا راح الشاعر يستقي من مقومات تلك السيرة العطرة ما عظَّم به مكانة ممدوحه من خلال سياسته لرعيته ، مما يشير به أيضا إلى أصالة الإصلاح فى أعماق الممدوح ، حتى كاد يذكرنا بما كان من سيرة الفاروق رضى الله عنه حين أمَّن رعاياه ، ونشر العدل بينهم ، ولم يعد فى حاجة إلى من يحميه من حراسه ، حتى إذا نام تحت ظل شجرة قال من رآه من الموالى مندهشا من موقفه بالقياس إلى الأكاسرة «حكمت فعدلت فأمنت فنمت ياعمر» .

ثم يقول مروان وقد وسَّعَ دائرة التصوير لتشمل بنى العباس جميعا ومحددا بعضا منها بالخليفة المهدى :

---

(٣٨) سورة التوبة ١٢٨. (٣٩) سورة الفتح ٢٩.

(٤٠) سورة القلم ٤.

أيادى بنى العبَّاس بيضٌ سَوَابغٌ
علَى كل قوم بادئاتٌ عَوائِدُ
فهُمْ يعدِلوُن السَّمْكَ من قُبَّةِ الهُدَى
كما يعدلُ البيتَ الحرامَ القَوَاعِدُ
سَوَاعِدُ عِزٌّ المسلمين وإنَّما
ينوءُ بصَوْلات الأكُفِّ السَّوَاعِدُ
يزينُ بَنِى سَاقِى الحجيج خليفةٌ
على وجهه نورٌ من الحق شَاهِدُ
يكون غراراً نومُه من حِذَاره
على قُبة الإسلام والخَلقُ رَاقِدُ
كأنَّ أميرَ المؤمنينَ محمداً
لرأفته بالناس للنَّاس وَالِدُ
على أنه من خَالفَ الحق منهمُ
سقته يدَ الموت الحُتوف الرَّوَاصِدُ [٤١]

وإذا بالشاعر لا يجد حرجا فى تكرار نفسه من خلال تلك الصور ، وكأنه لا يتبين من شخص ممدوحه إلا تلك الجوانب المشرفة التى يزيدها إسلامه رونقا وإشراقاً ، على نحو قوله كاشفا سلوكه فى مواقف سخطه ورضاه ، وتصوير تواضعه لخالقه تعالى ، وما يغلب عليه من التقوى والحفاظ على الحق ونشر العدل :

ولا هو عند السخط منه ولا الرضى
بغير التى يرضى بها الله واقع
تغض له الطرف العيون وطرفه
على غيره من خشية الله خاشع

(٤١) ديوان مروان بن أبى حفصة ٥١.

عليـــــه من التـــــقـــــوى رداء يكنـه

وللحق نور بين عـــينيـــه ســـاطـع [٤٢]

وهو ما يعود إلى تكراره مرارا على اختلاف طفيف فى ملامح الصياغة على نحو من قوله :

هـو المـــرء أمـــا دينه فـــهـــو مـــانـع

صـــئـــون وأمـــا مـــاله فـــهـــو باذله

أبى لمـــا يـأبى ذوو الحـــزم والتـــقى

فـــعـــول إذا مـــا جـــد بالأمـــر فـــاعله

تـروك الهـوى لا الســخط منه ولا الرضى

لذى مـــوطن إلا على الحق حـــامله [٤٣]

وهو ما يحاول عرضه جملة في بيت واحد من أبياته قائلا :

إلى طاهر الأخـــلاق مـــا نال فى رضـــا

ولا غـضـب مـــالا حـــرامـــا ولا دمـــا [٤٤]

وعلى أية حال فإن ظاهرة التكرار هذه لم تكن سمة خاصة بفن مروان وحده ، بقدر ما بدت قاسما مشتركا بين شعراء العصر كله ، وخاصة منهم من سعى خلف دقائق دائرة الفضيلة ، يستكمل من حولها حواره ، فاشترك الشعراء فى المصادر التى نهلوا منها : من الآيات القرآنية ، أو السيرة النبوية الشريفة ، مما قرب بين الصور ، ودفع إلى ذاك التكرار وتشابه الصيغ .

* * *

(٤٢) ديوان مروان ٨٢.

(٤٣) أمالى المرتضى ٥٣٣/١.

(٤٤) أمالى المرتضى ٥٣٥/١

(٤)

ويبدو ما حدث فى عالم الفضيلة وقد أسهم فى طبع شعر المديح بطابع جديد ، بدا فيه التاريخ الإسلامى عنصرا أساساً من عناصر المد التصويرى ، حتى أصبح من مقومات اللوحة الفنية ، ولعل لوحة بشار فى مدح الأمير محمد بن أبى العباس السفاح وقد ولاه عمه المنصور البصرة ، ما يكشف شيئا من ذلك حيث يقول فيه :

رشَدْتَ - أمير المؤمنين - وإنَّما
ظَفرتَ ووليتَ الأمينَ المُسَوَّدا

ونعمَ أميرُ المصْر يصبحُ للّقا
ودوداً وفى الإسلام عفًّا تَأيَدًا

أبوك أبو العباس جَلَّى بسَيْفه
وأنتَ المُرَجَّى فى قرابة أحْمَدا

لكم نجدةُ العبَّاس فى كل موطن
ويومَ حنين إذ أشاع وأشْهَدا

مقيمٌ يَذُبُّ المشركين بسَيْفه
حِفاظا وقد ولَّى الخميسُ وعَرَّدا

بَنَى لكُم العباسُ فى شَرَف العُلَى
وفضلُ ابن عباس أغارَ وأنْجَدا [(٤٥)]

وكأن بشاراً قصد إلى ذلك التكثيف لملامح التاريخ الإسلامى بين أبياته ، منذ اشتد حرصه على توزيع تلك الملامح من خلال كل بيت فيها ، فإذا هو بصدد مدح أمير

---
(٤٥) ديوان بشار ٣/٣٥.

المؤمنين قاصدا بذلك الخليفة ، فى نفس الوقت الذى يتقدم فيه إلى الوالى مادحا ، حتى إذا ما دخل حدود دائرة الوالى طرح عليه من الفضائل الإسلامية ما يتمتع به من عدل وشجاعة ، وما يشفع لذلك عنده من أصالة النسب بحكم القرابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ يتوقف عند الجانب البارز من مكانة العباس مما ترجمه سلوكه العملى يوم حنين (حين رأى رسول الله الناس قد انشغلوا بأنفسهم ، فقال : يا عباس اصرخ : يامعشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمرة !) [٤٦] فأجابوا : لبيك لبيك ، وكان رجلا صيِّتا ، فيؤم الرجل الصوت ويقتحم على بعيره ، ويأخذ سيفه وترسه ، حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا اجتمع إليه منهم طائفة استقبلوا الناس فاقتتلوا ، وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ركائبه فنظر إلى القوم يجتلدون فقال : الآن حمى الوطيس «ثم أخذ رسول الله حصيات فرمى بها وجوه الكفار . يقول ابن عباس فما زلت أرى أحدَّهم كليلا وأمرَّهم مدبرا» . [٤٧]

وبهذا راح بشار يلتقط من أحداث التاريخ الإسلامى ما قصد من خلاله إلى تأكيد شرعية الخلافة فى البيت العباسى . ولم يكن وحيدا أيضا فى هذا الاتجاه . إذ انتشر وشاع على ألسنة الشعراء الذين عرضوا منه صورا مشرقة عَرجَّت طويلا على ماضى الدعوة ، واستلهم شعراؤها من قصص الرسول عليه السلام ، على النحو الذى صوره السيد الحميرى من منطق تشيعه وحرصه على تصوير مكانة على رضى الله عنه ، حيث راح يذكر إسلامه وتصديقه برسول الله حين كذبه الناس الأمر الذى يكشف حرص كل شاعر ملتزم على التوقف أمام أحداث التاريخ ووقائعه ، يستمد منها ما يخدم قضايا حزبه الذى يدافع عنه ، ويتبنى قضاياه ، حتى مع تقلُّص ذلك الحزب . فعلى غرار ما صنعه بشار حول يوم حنين وما كان من موقف العباس فيه ، أخذ السيد الحميرى يرسم صورة للشيعة ومشهدا مدحيا لعلى بن أى طالب يقول فيه :

من فضله أنَّه قد كان أوَّل مَنْ
صلىَّ وآمن بالرحمن إذْ كَفَرُوا
سنينَ سبعاً وأيَّاماً مُحَرَّمَةً
مع النبى على خوف وما شَعَرُوا

(٤٦) سيرة ابن هشام ٢/٤٤٤-٤٤٥. (٤٧) نفس المصدر.

ويومَ قـال له جـبـريل – قـد علمـوا –

أنذر عـشـيـرتك الأدْنَيْن إن بصُـروا

فـقـام يدعـوهُم من دون أمَّـتِـه

فـمـا تخلَّف عَنْهُ منهمُ بَشَـرُ

فـقـال يا قـوم إن الله أرْسَلني

إليكمُ فـأجـيـبـوا اللهَ وادَّكِـرُوا

فَـأيُّكم يَجْـتَـبى قـولى ويؤمنُ بى ؟

إنى نبيٌّ رسـول فـانبـرى غُـدُر

فـقـال : تبًّـا أتدعُـونَا لتلفِـتنا

عن ديننا ؟ ثم قـام القـوم فـاشْـتَـمـروا

من الذى قـال منهم – وهو أحـدثُهم –

سنا وخـيـرهم فى الذكـر إذ سطروا :

آمـنتُ بـالله قـد أُعطيتَ نافلةً

لم يُعْطَهـا أحـدٌ : جنٌّ ولا بشـر

وأن مـا قلتَـهُ حقٌّ وأنهمُ

إن لم يجيبوا فقد خابوا وقد خَسِروا

فـفـازَ قِـدْمـاً بهـا واللهُ أكْـرَمـهُ

وكـان سبَّـاقَ غـاياتٍ إذا ابْتَـدرُوا (٤٨)

فهو يذكر إسلام على رضى الله عنه فى سن الصبا ، فكان من أوائل من صدقوا بدعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقام على تكاليفها من إيمان وعبادات . ثم راح الشاعر يستلهم فى حواره من وحى المعانى القرآنية ما يزيد به قوله اعتمادا على ما نزل

(٤٨) ديوان السيد الحميرى ٢٠٣ – ٢٠٥.

به جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أى الذكر الحكيم ﴿ وَأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ . (٤٩)

ثم يعرض ما كان من رسول الله من الاستجابة منذ صدع بالدعوة بين قومه ، وما كان منهم من التصدى له ، وما حدث من إيقاع الأذى بالمسلمين الذين تقدمهم عليّ رضى الله عنه وكان أحدثهم سنا وخيرهم ذكرا منذ صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو يؤمئذ ابن عشر سنين ، وكان فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام ، أخذه من أبى طالب فى أيام الضائقة وضمه إليه» . (٥٠)

ثم يدخل من إسلامه إلى الثناء عليه في مواقفه الدينية ، مبينا كيف أكرمه الله تعالى فكان سباق غايات على القوم جميعا .

وقد شكل الشاعر حواره فى سياق قصصى محكم تحكيه أفعال المُضى المتوالية مع صيغ الحوار التى راح يجريها بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام ، ثم بينه صلى الله عليه وسلم وعشيرته وقومه ، ثم بين كفار مكة وبينه حين كابروا وعاندوا ورفضوا دعوته ، ثم بينه عليه السلام وبين عليٍّ وقد أجابه إلى دعوته ، مما يجعل اللوحات الأربع أساسا واضحا للبنية القصصية التى غلّفتها الأبعاد الدينية وازدحمت بها الأبيات .

ويتقدم الزمن ، وتتطور الأحداث ، ولا يكتفى شعراء العصر بوقفة التأمل عند حدود ما كان من وقائع التاريخ الإسلامى ، بل راحوا يأخذون من امتداده فى عصرهم ما عرض لهم من فتن حول الإسلام ، فراحوا يديرون – أيضا – من حولها الحوار ، ويعرضون جوانبها على نحو ما كان من على بن الجهم وهو بصدد نظم مدائحه فى الخليفة المتوكل على الله ، وما ركزه من فنه حول موقفه من أقطاب الاعتزال ، وانتصاره لمذهب أهل السنة، وتأييده لأئمة المسلمين الذين زج بهم فى السجون، منذ نهاية خلافة المأمون، ثم المعتصم ثم الواثق حيث امتحنوا فى القول بما ذهبت إليه المعتزلة من خلق القرآن مما أوقع الناس فى حيرة وفتنة ، راح ضحيتها بعض أئمة المسلمين ممن أجبروا على القول بذلك ، وحبس بعضهم إلى أن جاء المتوكل ، فطرح فيه الشاعر مدحته مركزاً على هذا الجانب الإسلامى الذى انبرى فيه لنصرة أهل السنة ، والقضاء على ذلك المذهب المبتدع

(٤٩) سورة الشعراء ٢١٤.

(٥٠) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٥.

الذى فُرض على الفقهاء فرضا ، وخاصة أن بعض الخلفاء قد اتخذه مذهبا رسميا للدولة ، فقال على بن الجهم مصورا الموقف بكثير من تفاصيله ، وإن كان ينتزع منه اللوحة المدحية التى أضفاها على الخليفة المتوكل مجالا لمزيد من التركيز :

قـــامَ وأهلُ الأرض فى رَجْـــفَـــة
يخــبطُ فــيــهــا المــقــبلَ المــدبرُ
فى فـــتنة عــمــيـــاءَ لانارُها
تخـــبـــو ولا مُـــوقـــدها يفـــتُـــر
والدينُ قَـــدْ أشْـــفَى وأنصـــارُهُ
أيدِى سَـبَـا مـوعـدُها المَـحْـشَـرُ
كلُّ حنيفٍ منهمُ مُـــسْـلـمٍ
للكفـــر فـــيـــه منظرٌ منكرُ
فـــأمَّـــرَ اللهُ إمـــامَ الهُـــدَى
واللهُ من ينصـــرُه يُنْصَـــرُ
وفـــوَّضَ الأمْـــرَ إلـىَ ربِّـه
مُـسْـتَنْصـرا إذ ليس مُـسْـتَنْصَـرُ
ونبـــذَ الشُّـــورَى إلى أهلـهـــا
لم يُثنه خَـشْـيَـةُ مـــا حَـذَّروا
وقـــالَ والألسُنُ مـــقـــبـــوضـــةٌ
ليُـــبلغَ الغـــائبَ مَنْ يحـــضـــرُ
إنـــى تـــوكـــلـــتُ عـــلـــى الـلـــه لا
أشْـــرك بـالله ولا أكْـــفُـــرُ
لا أدَّعى القـــــدرةَ مِـن دُونه
بـالله حـــولى وبه أقْـــدِرُ

أشكرُه إن كنتُ فى نعمة

منه وإن أذنبتُ أستغفرُ

فليس توفيقِىَ إلا به

يعلَمُ ما أُخْفِى وما أجْهَرُ

فهو الذى قلَّدنى أمرَهُ

إنْ أنَا لَمْ لا أشكرْ فمَنْ يشكُر ؟

والله لا يُعْبَد سرا ولا

مِثلى على تقصيره يُعْذَرُ

وجرَّد الحقَّ فأشْجَى به

مَنْ كان عن أحكامه يَنْفِرُ

وانفضَّتِ الأعداءُ مِن حَوْله

كَحُمُرٍ أنْفَرهَا قَسْوَرُ

وصاحَ إبليسٌ بأصحابه

حلَّ بنا ما لم نَزَلْ نَحْذَرُ

مالِى وللغُرِّ بنى هاشم

فى كل دهر منهُم مُنذِرُ

أكلَّما قلت : خبَا كوكب

منهم بدا لِى كوكبٌ يُزْهِرُ

يا أعظمَ الناس علىَ مُسلم

حقًّا ويا أشرفَ من يَفْخَرُ

الرِّدَّةُ الأولى ثنَى أهلَهَا

حزمُ أبى بكر ولم يَكْفُروا

وهـذه أنـتَ تـلافَـــــيْـــــتَـــــهَــــــا

فـــعـــادَ مـــا قَـــدْ كـــان لا يُذْكَـــرُ [51]

وبذلك توقف الشاعر طويلا عند تفاصيل فتنة الاعتزال ، وكيف تم القضاء عليها من قبل ممدوحه ، مصورا أبعاد الموقف نتيجة بطش الخلفاء ومن شايعهم كما كان من أمر القاضى أحمد بن أبى دؤاد ،والوزير محمد بن عبدالملك الزيات ، إذ كان الأول معتزليا له دور بارز فى تحريض المأمون والمعتصم والواثق على اتخاذ فكرة خلق القرآن مذهبا رسميا للدولة ، ودفع الخليفة إلى امتحان الفقهاء بهذه الفكرة ، وأخذهم بالحبس والعنت الشديد حين رفضهم إياه . ثم صور ما حدث سنة ٢٣١هـ حينما أمر الواثق واليه على الثغور وخادمه بحضور الفداء بين المسلمين والروم وأمرهما بأن يمتحنا أسرى المسلمين فمن قال «القرآن مخلوق» وأن الله يرى فى الآخرة فودى به وأعطى دينارا ، ومن لم يقل ذلك ترك فى أيدى الروم !! .

من هنا راح الشاعر يبنى قصيدته على أساس من وعيه بأبعاد تلك الفتنة التى أقضَّت على المسلمين مضاجعهم ، وراحت تهددهم فى دينهم ، وتزعج منهم من سار فى طريق الإسلام اتباعا لأهل السنة ، حتى إذا ما جاء الخليفة المتوكل صور الشاعر من حسه الدينى الكثير حتى جعله «إمام الهدى» ثم عرض سلوكه الإسلامى اشتقاقا من اسمه فكان متوكلا على ربه ومفوضا إليه أمره ، كما جعله شديد الإيمان لا يشرك بربه أحدا ، ولا يزعم لنفسه قدرة يتجاوز بها حدوده كبشر ، فهو يؤمن أن القوة لله جميعا ، ومنه يستمد سلطته ،ولا حول له إلا به سبحانه وتعالى ، حتى أعلن ذلك فى وقف توفيقه عليه «وما توفيقى إلا بالله» إيمانا منه بأن كل ما يخفيه أو يعلنه فهو محاسب عليه من قبل ربه ، ثم يعيد الكرة حول تصوير ما تقلده الخليفة من أمور المسلمين وشكره على ما وهبه الله إياه ، وما كان من جرأته فى كشف الحق وتتبع أعداء الدين ممن شاع بينهم صوت

---

(٥١) تقع القصيدة فى خمسين بيتاً فى ديوان الشاعر ، وإنما قام الاختيار هنا للأبيات التى تظهر فيها المؤثرات الإسلامية بوضوح .

رجفة : اضطراب . المدبر : كناية عن الضلال والاضطراب والسير على غير هدى . الفتنة: قصد بها حمل الناس على القول بخلق القرآن .

أيدى سبا : كناية عن التبديد الذى لا اجتماع بعده أى مثل قوم سبأ الذين تفرقوا فى البلاد بعد السيل.

إبليس ، حتى بدا المتوكل بذلك أعظم الناس – على حد تصوير شاعره – من منطق التنقيب فى أحداث التاريخ الإسلامى عما يدعم موقفه من خلال نظائر الحدث الذى هو بصدد تصويره ، وكأنما وجد الشاعر ضالته فيما كان أيام أبى بكر رضى الله عنه من حروب الردة ، حيث قضى عليها بحزمه ، وأعاد المرتدين إلى الإسلام ، وكذلك كان موقف المتوكل حين أنهى عصر الاعتزال وأعاد للسنة اعتبارها ولأهلها مكانتهم .

ولم تكن قصيدة ابن الجهم الوحيدة فى الميدان ، بل امتلأ ديوانه بصور ونماذج من الحس الإسلامى الذى لم يتوقف فيه عند زاوية بعينها ، بل راح يأخذ منه الكثير الذى يدعم به فنه ، ويزيده عمقا فى التقرير والتصوير، ففى أبيات متناثرة له فى ديوانه يطرح موقفه من الاعتزال وأهله ناسبا أفكارهم إلى الضلالة والأهواء حين يخاطب ممدوحه مفتخرا بشعره :

واسـمَعْ إلى غـرَّاءَ سُنِيَّـة

يسطعُ منهـا المِسْكُ والعَنْبَـرُ

مـوقـعُـهـا من كل ذى بِدْعَـة

مـوقـعُ وَسْم النار أو أكْـثَـرُ [52]

وإذا هو يندد صراحة بما كان من أحمد بن أبى دؤاد وترويجه لتلك البدع :

مـا هذه البـدعُ التى سـمَّـيْـتَـهـا

بالجـهلِ منك العـدلَ والتَّـوْحِـيـدَا [53]

وكذا قوله ساخطا عليه من منظور إهماله للنص متناً وسَنَداً :

كم مـجلس لله قـد عطَّلْتَـهُ

كى لا يُحـدَّثَ فـيـه بالإسْنَاد [54]

كما قال فى أولى قصائده فى الحبس وقد ضمهم إلى الروافض :

تَضَـافـرت الروافضُ والنَّصَـارى

وأهلُ الاعـتـزال على هِجَـائى [55]

---

(٥٢) ديوان على بن الجهم ٧٦.

(٥٣) نفسه ١٢٥.

(٥٤) ديوان ابن الجهم ١٢٨.

(٥٥) نفسه ٨٤.

فإذا ما استوقفه مدحه للخليفة المتوكل بدا شديد الإعجاب بمسلكه الديني ، شديد الاعتداد بمذهبه السني وأصلَيْه من الكتاب الكريم والحديث الشريف :

وآثرَ آثارَ النبي محمد

فقال بما قال الكتابُ المُنْزَلُ (٥٦)

ثم قال في رثائه من نفس المنطلق الديني :

فيا ناصرَ الإسلام عَزَّكَ عُصْبَةٌ

زنادقةٌ قَدْ كنت قبلُ أذودُها (٥٧)

ولا تكاد الصورة تتوقف عند حدود هذا الجانب في شعر ابن الجهم بقدر ما حاول أن يلتقطه من المعاني الإسلامية في جل موضوعات شعره، على نحو ما كان من صورة المعتصم عنده كرجل حرب ودين معا في قوله :

وأنتَ خليفةُ الله المُعَلَّى

على الخلفاء بالنِّعَمِ العِظَامِ

وَلِيتَ فلَمْ تَدَعْ للدِّين ثَأْراً

سيوفُك والمثَقَّفةُ الدَّوَامي

نصبْتَ المَازيارَ عَلى سَحُوق

وبابَكَ والنصارىَ في نِظام

مناظرُ لا يزالُ عديدُ منها

عزيز النصر ممنوعُ المَرَام

وعمُّورية ابتدرَتْ إليها

بوادرُ من عزيزٍ ذي انتقام (٥٨)

---

(٥٦) نفسه , ١٦٤.

(٥٧) نفسه ٦٣.

(٥٨) نفسه ٩.

فلا يكاد ينظم بيتاً منها إلا ويصبغه بهذه الصبغة الدينية، فيجعله خليفة الله من منطق التفويض والقداسة الذى ردَّده كل شعراء الخلافة، ثم أفرده بين الخلفاء بكثرة ما أفاء عليه به ربه من النعم، وقد انتقم لدينه وثأر له من خصومه فى الداخل والخارج على نحو ما كان فى حرق الأفشين وحروب بابك ثم حروب الروم وخاصة حرق عمورية فكان نصراً دينياً من المولى سبحانه فيها جميعاً .

وفى مزجه سياسة الخلافة بما يحيطها من قداسة الحس الدينى يقول :

أمَا ومُحَرِّمِ البلَد الحَرَامِ
يميناً بين زمزمَ والمَقَام
لأنتُمْ يا بنى العباس أوْلَى
بميراث النبىِّ من الأنَامِ
تجادِلُ سورةُ الأنْفَال عنكُم
وفيها مَقْنَعٌ لذوى الخِصَامِ
وآثارُ النبى ومُسْنَدات
صوادعُ بالحلالِ وبالحَرَام [59]

مشيراً بذلك إلى تأوُّل العباسيين دلالة الآية القرآنية ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [60]

وكأنه يردد ما أذاعه العباسيون أنفسهم من حجج وبراهين تثبت أحقيتهم الشرعية فى الخلافة عن طريق تأويل الآيات الكريمة ، وهو بذلك يلتقي مع مروان بن أبى حفصة فى قوله من نفس المنطق مروِّجا لحقهم فى ميراث الخلافة دون الشيعة العلوية :

شَهِدت من الأنفال آخر آية
بتراثهم فأردتمُ إبْطالها

(٥٩) نفسه ١١.

(٦٠) سورة الأنفال ٧٥.

وإذا بقوة الخلافة تبدو دائماً رهناً بالجانب الدينى ، على النحو الذى تكرر فى قوله عن شرعية الحكم مراراً فى البيت العباسى من منطق حتمى يطوع فيه فلسفة الجبرية كفرقة دينية لموقفه السياسى:

يا بنى العباس يأبَى اللّه إلا أن تسوسُوا

لكمُ الملكُ علينا آخرَ الدهر حَبيسُ (٦١)

وعليه جاء تصويره قوة الخلافة من منطق قوة الدين :

وشكاَ الدينُ مـــا شَكَوْتَ من الَعِلَّــــ

ــــة شكْوَى قــداجْــتَــوتهــا العُــقُـول

فـــإذا مـــا سلِمْتَ فـــهـــو سليم

وإذا مـــا اعـــتَلْلت فـــهـــو عليل

ثـم لـمَّـــــا أقـــــالَك الله للديـــ

ن وصـــحت فـــروعُـــه والأصـــول

أَنِسَ البـــرد والقـــضـــيبُ وهز الملــ

ك عطفَـيْـه واسـتـبـانَ السَّـبِـيلُ (٦٢)

وكذا جاء قوله للخليفة :

حـــســـبك الله ناصـــراً إذا توكلـ

ت علـى اللـه وهـو نـعـم الوكـــــيـل

أنْتَ مـــيـــثـــاقنا الذى أخـــذ اللـــ

ــه علينا وعـــهــده المـــســئـول

بِكَ تزكـــو الصـــلاة والصـــو

م والحج ويزكـو التـسـبـيح والتـهليل (٦٣)

---

(٦١) ديوان على بن الجهم ١٤.

(٦٢) نفسه ٧٢. البرد والقضيب هنا من مخلفات النبى عليه السلام يتوارثها الخلفاء .

(٦٣) ديوان ابن الجهم ٢١.

إذ يدير الحوار فى تفاصيله حول المعجم الإسلامي بين شكوى الدين وسلامته وصحة فروعه وأصوله، ووضوح السبل وبيانها فيه، ونصرة الله لخليفته لتوكله عليه، وإدراكه مهمته وعهده المسئول، فهو ميثاق المسلمين مع الله، وعندها يصل به إلى قمة المدح الديني حين يعرض من خلال موقفه هذا فرائض الإسلام جميعاً .

بل إن تصوير دار الخلافة لا يكاد ينفصل عند الشاعر عن هذا الجانب الدينى الذى يطرحه مثل قوله :

اختارها الله للإمام الذى
ينصف من نفسه وينتصف [٦٤]

وكذلك البركة التي صورها قوله واصفاً لها :

قدرها الله للإمام وما
قدر فيها عيباً لعائبها
أهدت إليها الدنيا محاسنها
وأكمل الله حسن صاحبها [٦٥]

وكثيرة عنده صيغ هذا الحوار حول شخص الخليفة من المنظور الإسلامى الذى يقترب فيه الشاعر من حس الجبرية ، توظيفاً لفنه، فى خدمة الخلافة العباسية :

قدر الله أن يعز بك الإسـ ـلام والأمر كله مقدور
لم يزل فيك للذى دبر الأشـ ـياء منذ كنت ناشئاً تدبير
كان يبلوك بالرجاء والخو ف اختباراً وهو اللطيف الخبير
ثم ولاك ناصراً لك مولاك فنعـ ـم المولى ونعم النصير [٦٦]

❋ ❋ ❋

(٦٤) نفسه ١٥.

(٦٥) نفسه ٣٢.

(٦٦) ديوانه ٣٦.

(٥)

وعلى هذا النحو وجد الحس الدينى والتاريخى سبيله إلى نفوس الشعراء، فتعمقها فى ظلال إسلامية واضحة وجدت من الشعراء رحابة صدر مع شدة حرص عليها، على نحو ما ظهر أيضاً لدى أبى العتاهية حين عرض من حسه التاريخى بشكل عام ما لم يقصد به إلى غزوة بعينها، ولا إلى حدث محدد، بقدر ما قصد إلى طرحه من مواقف التاريخ على وجه التعميم، ليكشف من خلالها بعضا مما توحى به من العظة وما تبثه من الاعتبار للأقوام والأمم والرجال، وكأنه يشير إلى ضرورة تأمل تلك الأحداث الكبار وصولا إلى تعميق القصيدة فى النفوس ، وبث المزيد من مؤشرات التأمل وضرورات التوقف على نحو قوله :

أمــا وربِّ المــسـجـدَيْن كليَــهُــمــا
أمـــا ورب منىً وربِّ الرَّاقِـــصــات

أمـــا ورب البــيت ذى الأسْـــتَـــا
ر والمسْـعَى وزمـزمَ والهـدايَا المُشْـعِرَات

إن الذى خلقت له الدنيـــا ومــــا
فــيــهـــا لنازلةٌ تجلُّ عن الصِّــفــات

فـــتـــجـــافَ عن دَار الغـــرور وعن دوَا
عِــيــهَــا وكن مــتــوقِّــعــا للحـادثات

أين الملوكُ ذوُو المـنابر والدَّسَــــا
كـر والعَـساكـر والقُصـور المُشـرفـات؟

هـم بـين أطبـــاق الثُّــراب فَنَادِهـم:
أهلَ الدِّيار الخـــاليــات الخــاوِيات!

هل فيكم من مُخبر حيث استقـ
ـرَّ قرارُ أرواح العِظَام البَاليات؟
فلقلَّ ما لبثَ العوائدُ بعدكم
ولقلَّ ما ذرَفَتْ عيونُ البَاكيات
وإذا أرَدْتَ ذخيرةً تَبْقى فَنَا
فِسْ فى ادَّخار الباقيات الصَّالحات
وخَفِ القِيامة ماستطعت فإنما
يومُ القيامة يوم كشف المخبآت (٦٧)

وكذا قوله من منطلق حكمى على نفس الدرجة من التعميم :

وما تعدِلُ الدنيا جناحَ بَعُوضَةٍ
لَدَى الله أو مقدارَ زَغْبَةِ طَائِر
فلم يرضَ بالدُّنيا ثوابًا لمؤمن
ولم يرض بالدنيا عِقاباً لِكَافر (٦٨)

حيث يقسم قسماً إسلامياً خالصاً برب المسجدين الحرام والأقصى، متخذاً من الشعائر والمناسك وسيلة يؤكد بها قسمه، من منى، والبيت ذى الأستار، والمسعى ، وزمزم، وما يقدم من هَدْى فى مواسم الحج، ليقسم بذلك كله على حقيقة أكدها القرآن الكريم فى كثير من أياته حول غرور الدنيا وزخرفها وزينتها، وكيف يغتر بها الإنسان فتصير به إلى هلاك، مما يندفع بعده الشاعر إلى عرض تاريخى يستمد فيه شواهده من الأحداث التاريخية من خلال سِير الملوك وذوى المنابر والقصور ، وكيف آلت بهم الحياة إلى القبور ، لا يسمعون منادياً ، ولا يعرفون إلى أين النجاة، وأين ينتهى بهم المطاف، وكذلك الأحياء ممن ضلوا فى محاولة التعرف على نفس القرار، لينفذ الشاعر من ذلك كله

(٦٧) شعر أبى العتاهية ٧٢ - ٧٣.   (٦٨) نفسه ١٤٩ - ١٥٠.

إلى تصوير هول المشهد، وضرورة تقديم الصالح من الأعمال وادخار الطيب منها ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ (٦٩).

ثم يرد ما توج به حديثه من تصوير لمشاهد القيامة، وكيف تتكشف وقتئذ كل الخبايا ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٧٠).

ثم يتأكد حسه الديني المتدفق - وهو الشاعر الزاهد -من خلال رؤيته للدنيا كدار عمل بلا حساب ، على عكس الآخرة التي هي دار حساب بلا عمل ، سالكاً بذلك سلوك المسلم الفطن الذي تنبه إلى تلك الحقيقة، وعلى أساسها شكل سلوكه في قوله :

وما تعدل الدنيا جناح بعوضة
لدى الله أو مقدار زغبة طائر
فلم يرض بالدنيا ثوابا لمؤمن
ولم يرض بالدنيا عقابا لكافر (٧١)

وربما قرَّبت صورة البعوضة في ذهنه من خلال ما جاء في المثل القرآني ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (٧٢) وعلى هذا النحو وأشباهه تعددت صور الأخذ، وتنوعت درجاته في زحام المصادر الإسلامية ، وقد التقى بعضها حول مصدر واحد محوره ذلك المعجم الديني من قرآنه وحديثه، ومُثله وأحداثه في عصور السلف وحقب الماضين، أو حتى في عصر الشاعر العباسي نفسه، لتبقى بعد ذلك درجة الكثافة في استخدام المادة وأساليب عرضها محوراً للاختلاف بين الشعراء، ومجالاً للتنوع في مستوى الإفادة تبعاً لطبيعة الموضوعات التي عالجها كل منهم ، فكانت المدائح إسلامية - كما أسلفنا - وكان حماس الشاعر الملتزم إزاء قضايا حزبه على النحو الذي رأيناه في شعر السيد الحميري، وما عرض من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصوير مكانة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعلى هذا النحو أيضاً كان ما عرضه في أبيات له أخرى من مثل قوله :

---

(٦٩) سورة مريم ٧٦.
(٧٠) سورة النور ٢٤.
(٧١) شعر أبي العتاهية ١٤٩ - ١٥٠.
(٧٢) سورة البقرة ٢٦.

وإذا وصلْتَ بِحَبْل آل مُحمد
حبلَ المودة منكَ فابْلغْ وازْدَدِ
بمطهَّر لمطهَّرين أُبُوَّةٍ
نالوا العُلَى ومكارمًا لم تَنْفَدِ
أهلِ التُّقى وذوى النُّهى وأولى العُلَى
والناطقين عن الحديث المُسْنَدِ
الصائمين القائمين القانتـ
ـين بنِى الحِجَى والسُّؤْدَدِ
الرَّاكعين الساجدين الحامديـ
ـن السَّابقين إلى صَلاة المَسْجِدِ
الفاتقين الراتقين السائريـ
ـن العَابدين إلهَهم بتَوَدد [٧٣]

فلم يكن الشاعر ليستمد معانيه هنا كاملة إلا من الآيات القرآنية التى تُوصِّف تلك الصورة الدقيقة لسلوك المسلم الحق فى مثل قوله تعالى ﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [٧٤]

وإذا هم بذلك يندرجون ضمن ذوى الألباب ممن أثنى عليهم ربهم - سبحانه - فى عديد من الآيات ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [٧٥] .

وإذا هم المطهرون إفادة لديه من دلالة الآية الكريمة:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [٧٦] . وإذا هم أهل العبادة والتقى :

(٧٣) ديوان السيد الحميرى ١٨٧.
(٧٤) سورة التوبة ١١٢.
(٧٥) سورة البقرة ٢٦٩.
(٧٦) سورة الأحزاب ٣٣.

﴿ ومن يتقى الله يجعل له مخرجا ﴾ [٧٧] .

وأخيراً يعتمد على مصطلحات علوم الحديث التى عرفها العصر من الحديث الصحيح ودقة إسناده، فيرى العلويين لا يأخذون إلا بالصحيح منها مسندا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتركون ما دون ذلك إثباتاً منه لصدق مذهبه ويقين مبادئه.

ومع تعدُّد موضوعات الشعر التى استوعبت المعجم الإسلامى وأفادت منه تعددت أيضاً الصور التى انهال عليها الشعراء، رسما وعرضا. فكان منها ما يتعلق بقضية المصير وحس الغيب، وكان منها الوقوف المتأمل عند مشاهد القيامة ، خاصة لدى من كان منهم زاهداً كما عُرف عن أبى العتاهية الذى شغلته من حياته أساساً قضية الموت، فراح يستجمع بعضا من مشاهد الآخرة أمام عينيه ، ويستحضر قبلها الجوانب الحسية المرئية فى عالم الموت وسكرات الموتى مردداً صوره حول حقيقة مطلقة لا جدل حولها من خلال الدلالات الدينية فى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [٧٨] .

فإذا بحقائق الموت تأتى ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾.[٧٩]

فيقول أبو العتاهية واعظاً ومحذراً :

أأخَيَّ مـالَكَ نَـاسـيـا
يـوم الـتـغـابُن فـى الأمُـور؟
أفـنـيْـتَ عـمـرَكَ فـى الـرَّوَا
ح إلـى الـمـلاعِـب والـبُـكُـور
وعـلـيـكَ أعـظـمُ حُـجَّـةٍ
فـيـمـا تَعُـدُّ من الـغُـرور

---

(٧٧) سورة الطلاق ٢.
(٧٨) سورة المؤمنون ١٥ ، ١٦ .
(٧٩) سورة النساء ٧٨.

ولـعـلَّ طـرفَـكَ لا يـعـو

د وأنـت تـجـمـعُ لِـلـدُّهـور

لـو أنَّ عـمـرك زِيـد فـيـه

جـمـيـعُ أعـمـار النُّسـور

أو كـنـت مـن زُبُـر الـحّـديـ

ـد وكنتَ مـن صُمِّ الـصُّخُـور

أو كنت مُـعـتـصـمـا بأعلى الريـ

ـح أو لُـجَـج الـبـحـور

لأتَـتْ عـلـيـك دوائـرُ الـدُّ

نيـا وكـرَّات الشُّـهـور [(٨٠)]

صحيح أن الاقتباسات هنا ليست مباشرة من الآيات القرآنية ، ولكن الشاعر بدا دقيق التمثُّل للمعانى التى عرض صورا منها فى تحذيره من غرور الدنيا ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ وفى ذكر التغابن يلتقط المشهد مباشرة من سورة «التغابن » وفيما التقطه من المشاهد عودة الطرف ﴿ **قال أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ [(٨١)] وزبر الحديد ﴿ **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا** ﴾[(٨٢)] أو الاعتصام بمظاهر الطبيعة ﴿ **قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ** ﴾ [(٨٣)].

ويظل مشهد الموت عند أبى العتاهية شديد العمق ، شديد الكشف عن التأثير فى نفسه، متجاوزاً بذلك ما درج عليه غيره من الشعراء من منطق التصوير الحسى، وكأن كل ما أفزعهم منه محسوسات المشهد على النحو الذى استوقف أبا نواس – مثلاً – فى نفس العصر فى قوله :

---

(٨٠) ديوان أبى العتاهية ١٧٠.

(٨١) سورة النمل ٣٩ .

(٨٢) سورة الكهف ٩٦.

(٨٣) سورة هود ٤٣.

فكأنَّ أهلَك قد دعَوْكَ فلَمْ

تسمَعْ وأنت مُحَشْرَجُ الصَّدْرِ

وكأنَّهم قد عطَّروك بما

يتزوَّد الهَلْكى من العِطْر

وكأنهم قد قلَّبوك على

ظهر السرير وظُلْمَة القَبْر

يا ليت شعرى كيف أنتَ على

ظهر السرير وأنت لا تَدْرى!

أو ليت شِعرى كيف أنتَ إذا

غُسِّلْتَ بالكافور والسدر؟

أو ليت شعرى كيف أنت إذا

وُضِعَ الحساب صبيحةَ الحَشْر؟ (٨٤)

حيث يبدو فيه بعيداً تماماً عن ذلك العمق الدينى فى تصور مشهد الموت، وتصوير أبى العتاهية لما وراءه من معان ودلالات ، الأمر الذى قد يرتد إلى ارتباط شاعر كأبى نواس بمحسوسات وجوده، وبعده عن التصديق بالغيب كغيب على النحو الذى ردده مجاهراً بموقفه وشكوكه فى قضاياه :

حياةٌ ثم مَوْتٌ ثم بَعْثٌ

حديث خرافة يا أم عمرو

أو فى قوله :

بعثت إلىَّ تلومنى فأجبتها

إنى لأعرفُ مذهب الأبرار

(٨٤) ديوان أبى نواس ٦٠٩.

فــدعى المـلامَ فــقــد عــرفت غــوايتى

وصـــرفت مــــعـــــرفـــتى إلى الإنـكار

مـــا جـــاءَنا أحـــدٌ يُخَــبِّـــر أنه

فـى جنـة مـــــذ مـــــات أو فـى نَـار

وكلها صور تشير إلى ضعف عقيدة أبي نواس ، وعجزه عن القيام بتكاليف دينه، ومنها الإيمان المطلق بعالم الغيب ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ (٨٥).

ولذا لم يتوقف طويلاً أمام تفاصيل الحساب ، وأحداث اليوم العسير على النحو الذى ردده زهاد العصر، ممن تجاوزوا حدود غمرات الموت إلى منطق الإرشاد والنصح وإقرار الحقائق الغيبية على ذلك النحو الذى ردده قول أبى العتاهية :

مـــالى رأيتُك راكـــبـــاً لهَـــوَاكـــا؟

أظـنـنْـتَ أن الـلـه لـيـسَ يَـرَاكـــــــا؟

مردداً بذلك تأثره بقوله تعالى ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾(٨٦) ليجعل من هذا المدخل الدينى مفتاحاً لحواره حول حتمية الموت أيضاً:

انظُرْ لنفـــسكَ فـــالمَنِيَّـــةُ حــيثُ مـــا

وُجِّــــهْتَ واقـــفـــةٌ هـناك حِـــذَاكَـــا

ومن ثم يرتدى ثوب الواعظ لنفسه وللآخر :

خُــــذْ من حِـــــرَاكِكَ للسُّكون بحظِّه

مِنْ قـــبل أن لا تَسْـــتَطيع حِـــرَاكـــا

مردِّدا بذلك معنى الآية الكريمة ﴿وتزوَّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾ أو معنى الحديث الشريف (خذ من شبابك لهرمك) ليزيد الموقف تفصيلا فى قوله :

---

(٨٥) سورة البقرة ٣.

(٨٦) سورة الشعراء ٢١٩.

وليَـوْم فَـقْـرِك عُـدَّةٌ ضَـيَّـعْـتَـهَـا
والمـرءُ أفـقَـرَ مـا يكونُ هُنَاكَـا

مرددا المعنى القرآنى حول سلوك الكافر يوم الحساب ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [(٨٧)] ثم يستمر قائلاً :

لتُجَـهِـزَنَّ جـهـازَ مُنْقطِع القُـوَى
ولتَـشْـحَطَنَّ عن القـريب نَوَاكَـا

ومن ثم فهو يسخر بقياس منطقى ممن يطلب الخلود الذى سُلبته الخليقة من لدُنْ آدم عليه السلام يوم بعد أن طمح إليه حين استمالته وسوسة إبليس إلى شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴾ [(٨٨)] . ليكتب على البشر بعد ذلك مصيرهم إلى الفناء، إلا ما ضمنه الله لهم فى الآخرة من خلود تعويضاً لهم عن دناءة الدنيا :

يا لَيـتَنِى أدْرِى بأى وَثِيـقـة
ترجُـو الخلود؟ ومـا خُلِقْتَ لِذَاكـا
حـاولْتَ رزقَك دونَ دينك مَلْحَـفًـا
والرِّزق لو لم تَبْـغِـهِ لَبـغَـاكـا

مرددا أيضاً من المعانى الدينية ما دار حول قضية الأرزاق من الآيات الكريمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [(٨٩)].

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [(٩٠)] سورة لقمان ٣٢. ومن قوله عليه الصلاة والسلام « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتعود بطانا ».

---

(٨٧) سورة الحاقة ٢٨ - ٢٩.
(٨٨) سورة طه ١٢٠.
(٨٩) سورة البقرة ٢١٣.
(٩٠) سورة لقمان ٣٢.

ومن هنا تأتى انطلاقة الشاعر لكى يدعو إلى القناعة على النهج الإسلامى « لئن شكرتم لأزيدنكم » فيقول :

وأراكَ تلتمسُ الغِنىَ لتنالَهُ
وإذا قَنَعْتَ فقد بلَغْتَ غِناكا

ليضيف إلى الصورة بعد ذلك بعداً مرئياً يعتمد عليه منطق الحياة ذاته، ويترجم واقعها مما يرد به على موقف أبى نواس وأمثاله من زنادقة العصر :

تُرَجِّى خُلودَ العَيْش حِينًا وضِلَّةً
ولَمْ نَرَ من آبائنا من يُخَلَّدُ
لنا فكرة فى أوَّلينا وعبرةٌ
بها يَقتدى ذوُ العقل فيها ويَهْتَدِي [٩١]

ثم يكثر تردد مثل هذه المشاهد الغيبية بين الشعراء إزاء قضية الموت والأرزاق وغيرهما، وإذا بشعراء الزندقة يخوضون غمار هذه المواقف الدينية - فى بعض الأحيان، مما قد يعد بالنسبة لهم موضع تذكر ولحظات تأمل وإن كانت خاطفة ، إذ ربما ارتبطت بإحساس بعضهم بطبيعة الندم وخاصة حين يستعيدالشاعر منهم ذاكرته الدينية التى فقدها، والتى قد تبدو منها ملامح مطروحة- على سبيل المثال - فى مثل قول بشار :

كيفَ تَبْكى لمَحْبِس فى طلول
من سَيُفضى لحبس يوم طويل ؟!
إن فى البعث والحساب لشُغْلاً
عن وقوف برسم دار محيل [٩٢]

مرددا بذلك مدلول الحس القرآنى ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ [٩٣] . ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ [٩٤].

---

(٩١) شعر أبى العتاهية ١٢٥ - ١٢٦.
(٩٢) ديوان بشار ١٥٢/٤.
(٩٣) سورة آل عمران ٣٠.
(٩٤) سورة عبس ٣٤.

وإذا بذلك الحس الغيبى يزداد عمقاً عند بشار نفسه فيتدفق أيضاً فى قوله فى أبيات له بدا فيها شديد الندم على ماضيه ، حريصاً على التوبة عن ذنوبه :

أفنيْتَ عمركَ والذُّنوبُ تَزِيدُ
والكاتبُ المُحْصِى عليكَ شَهِيدُ

كَمْ قُلْتَ: لسْتُ بعائدٍ فى سَوْءَة
ونذرت فيها ثُمَّ صِرْتَ تَعُودُ

حتَّى مَتَى لا تَرْعَوى عن لذَّة
وحسابُها يوم الحساب شَدِيدُ

وكأنَّنى بك قد أتتك مَنِيَّةٌ
لا شك أن سبيلها مورودُ (٩٥)

إذ يدير حواره حول الذنوب والملائكة الذين يكتبونها ويحصونها على الإنسان ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٩٦) .

وإذا بالشاعر يدرك من واقع حسه الدينى أن الحساب شديد ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٩٧). وأن سبيل المنية لابد مورود وكذلك جهنم ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ (٩٨) وهى أقوال تتعارض – فى مجملها – مع لحظات المتعة التى عاشها النواسى وبشار فنسى كل منهما فى ظلالها تلك الحقائق أو تناساها، وآثر الحس عن المعنى ، وكثيراً ما تجاهل ما أكده الإسلام من الحشر والحساب ، وما شغل به أبو العتاهية نفسه فى صوره المكررة :

يكونُ الفَتَى فى نَفْسه مُتَحَرِّزًا
فيأتيه أمرُ الله من حيثُ لا يَدْرى

---

(٩٥) ديوان بشار ١٨٠.
(٩٦) سورة ق ١٨.
(٩٧) سورة الحج ٢.
(٩٨) سورة مريم ٧١.

ومــــا هـى إلا رقـــدة غـــيــرَ أنَّهـــا

تطولُ على مَنْ كان فيها إلى الحَشْرِ [٩٩]

وإن كان أبو نواس يحاول تعمُّق الموقف فى غضون لحظات الندم ومواقف الرجوع عن لهو الماجن ، أملا فى تصحيح مساره الذى لم يصلح إلا قليلا، ولكنه فى خضم التأمل يذكر من مشاهد القيامة والغيب أيضاً ما طرحه مثل قوله :

يـا ســـــائلَ الله فُـــزْتَ بـالظَّـفَـــــر

وبـــالـــنَّـــوال الـــهَـــنِـــىِّ لا الـــكَـــدَرِ

فــــــارْغَبْ إلـى الـلـه لا إلـى بَشَـــــــر

مُـــــتَنقِّلٍ فى البِلَى وفِى الغِـــيَـــرِ

وارغَبْ إلـى الـلـه لا إلـى جَـــــسَـــــد

مـــــتنقل من صِـــبًـــا إلى كِـــبَـــرِ

مـــا لَكَ بالتَّـــرهاتِ مـــشْـــتَـــغِـــلا

أفِى يديك الأمـــانُ مِنْ سَـــقَـــرِ؟ [١٠٠]

فهو يبدو متأثراً بالنص القرآنى حول مصير المؤمنين الذى أعده الله تعالى لهم ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [١٠١]. ﴿ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ ﴾ [١٠٢] . ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [١٠٣] . ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ [١٠٤] ولذا يتردد عنده الحديث عن تقوى الله من منطق ذلك الإيمان الغيبى بالأجل والأرزاق المحددة القائمة فى قدر الله وعلمه :

---

(٩٩) شعر أبى العتاهية ١٤٧.

(١٠٠) ديوان أبى نواس ٦٢٢ ، الترهاق : الطرق الصغار غير الجادة تتشعب عنها وهى فارسية معربة (ج ترهة).

(١٠١) سورة الحاقة .

(١٠٢) سورة يونس ٢٦.

(١٠٣) سورة المدثر ٢٦.

(١٠٤) سورة الروم ٥٤.

ألا يا ابنَ الذين فَنَوْا وبَادُوا

أمَا والله ما ذهبُوا لتَبْقَى

وما للنفس عندكَ من مَقَامٍ

إذا ما استُكْمِلَتْ أجَلاً ورِزْقا

وما أحد بزادٍ منك أحْظَى

ولا أحد بذَنْبِك منك أشْقَى

ولا لكَ غير تقوى الله زادٌ

إذا جُعِلَتْ إلى اللَّهوات تَرْقَى (١٠٥)

حيث يستمد العظة والاعتبار ممن سبقوه إلى ورود حياض المنية، فكان موتهم رمزا من رموز الفناء البشرى المرتقب، ولذا أفاد الشاعر فى حواره من الآيات القرآنية أيضاً حول قضية الأرزاق والموت، وكذا فى التوقف عند مشهد البعث، وقد سئلت كل نفس عما قدمت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (١٠٦) ، ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (١٠٧) .

ولكن صدق أبى نواس فى تصوير حسه الغيبى والدينى لم يكن واضحاً فى كل أقواله أو حتى معظمها ، بقدر ما ظلت مجرد لحظات ندم بدت رهنا بظروفه النفسية إثر ارتكاب المعصية، أو ربطا بما بلغه من أمر الشيب ، مما جعله قريباً من حس الشعراء عموماً ممن عرضوا شكواهم من الشيب، بصرف النظر عن تدينهم من عدمه، ففى بعض أبيات له يصور أبو نواس توبته إزاء قدوم ذلك المشيب قائلاً :

انقَضَتْ شِرَّتى فَعِفْتُ المَلاهى

إذ رمَى الشيبُ مَفْرِقى بالدَّواهى

ونهَتْنى النُّهى فمِلْتُ إلى العد

ل وأشفَقْتُ من مَقَالة نَاهِ

(١٠٥) الكامل ٤/١٨٨ المحاسن والمساوئ ٣٥٥.

(١٠٦) سورة الانفطار ٥.

(١٠٧) سورة الشعراء ٨٨.

أيُّها الغافلُ المقيم على السَّهْو
ولا عُذْرَ فى المقام لِسَاهِ
لا بأعمالنا نُطيقُ خلاصًا
يوم تبدو السِّمات فوقَ الجِباه
غيرَ أني على الإساءَة والتَّفْريـ
ـط راجٍ لحُسْنِ عَفْوِ الله (١٠٨)

فهو يدرك ما كان من مسيرة لهوه، وحقيقة سهوه عن دينه دون عذر يبرر مسلكه مستمداً من الحس القرآنى فى صوره ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (١٠٩). ورجاءً لعفو الله ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ (١١٠) ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ (١١١).

ويظل حديث الشيب وشكواه وارداً فى إطار القواسم المشتركة بينه وبين كل الشعراء من غير الزهاد وخاصة إذا تذكرنا ربطه إياه بانصراف الغوانى عنه :

حتى إذا الشيبُ فاجانى بطلعته
أقبحْ بطلعة شيب غير مبخوت
عند الغوانى إذا أبصرن طلعته
أذنَّ بالصرم من رد وتشتيت

وهو المنطلق الذى صدر عنه الأخطل الأموى حين عمم أصداء الشيب من خلال ردود الفعل عند الغوانى إزاءه :

يا قاتل الله وصل الغانيات إذا	أيقن أنك ممن قد زها الكبر
أعرضن لما حنى قوسى موترها	وابيض بعد سواد اللمة الشعر

(١٠٨) ديوان أبى نواس ٦٢١.
(١٠٩) سورة الفتح ٢٩.
(١١٠) سورة الفتح ١٤.
(١١١) سورة البقرة ٢٨٦.

وأمام هذا الشيب قد يبدو النواسي نادما - لا زاهدا - على ما أقدم عليه من المعاصي:

فـــقــد ندمتُ علَى مـــا كـــانَ من خَطَل

ومن إضـــاعــة مكتــوب المــواقــيت

أدعــوك سـبـحـانك اللهم فـاعف كـمـا

عـفـوت يا ذا العلى عن صـاحب الحـوت

فلا شك أن مشاهد الحساب - بدورها - قد بدت قاسما مشتركا بين الزاهد والتائب من لهوه ، والنادم مؤقتاً على ما كان من سوء مسلكه، على اختلاف درجة الصدق التى انتهى إليها شاعر الخمر عما ذهب إليه الشاعر الزاهد الذى يتردد المشهد أمام عينه ويملأ عليه كل حواسه أينما اتجه، على نحو ما أكثر أبو العتاهية من عرضه وتصويره حتى أسرف فيه فبدا شديد الاكتئاب :

ومـــوعـــدُ كلِّ ذى عَـــمَلٍ وَسَـــعْى

بمـــا أسْــدى غـــدا دارُ الثَّـــواب

تـقـلَّـدت الـعـظـامَ مـن الـخَـطـايـا

كـــأنـى قـــد أمِنْتُ من العِـــقَـــاب

بـأَيةِ حُـــجَّـــة أحْـــتَـجُّ يوم الـــ

حــســاب إذا دُعِـيتُ إلى الحـســاب ؟

هُمَـــا أمـــران يُوضح عنهـــمـــا لى

كـــأنِّى حـــين أنظرُ فى كِـــتَـــابى

فـــإِمَّـــا أن أُخَلَّدَ فى نَعـــيـم

وإمَّـــا أن أخلَّد فى عَـــذاب [١١٢]

---

(١١٢) شعر أبى العتاهية ٣٣ - ٣٤.

مرددا من آيات القرآن الكريم ما كثر فى ثناياها من مشاهد الخلود للمتقين فى جنة عرضها السموات والأرض ، أو مشاهد الخلود للكفار فى عمق جهنم والدرك الأسفل من النار.

ولعله يردد من أصداء بعض تلك المشاهد :

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم).

(يقول هاؤم اقرءوا كتابيه)

(فمنهم شقى وسعيد).



وكثيرة هى ملامح الحس الدينى الغيبى عند أبى العتاهية بحكم زهده - حتى أصبحت قضيته الأولى سلوكا وفكرا وفلسفة حياة، وكأنما عمد فيها إلى الآيات القرآنية عمدا حتى أصبحت المصدر الوحيد لصوره ، وخاصة فى وقفته الطويلة عند مشاهد القيامة:

للَّه يومٌ تَقْشَعِرُّ جُلُودهم
وتشيبُ منه ذوائبُ الأطْفَال

إذ يحاول الاقتراب من مشهد ذلك اليوم العصيب الذى (يجعل الولدان شيبا) ليراه بعد ذلك :

يومٌ ينادى فيه كلُّ مُضَلَّل
بمقطَّعات النَّار والأغْلاَل

مستوحياً من معانى الآيات ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ (١١٣) .

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾(١١٤) . وهنا يبرز أمامه مشهد المصير :

للمتقِّين هناكَ نُزْلُ كَرَامة
عَلَتِ الوجوه بنُضْرَةٍ وجَمَال

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (١١٥) .

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (١١٦) .

---

(١١٣) سورة الإسراء ٧١.
(١١٤) سورة البقرة ١٦٦.
(١١٥) سورة القيامة ٢٣.
(١١٦) سورة طه ١١١.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ، خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ (١١٧) .

وإذا هؤلاء :

نـزلوا بـأكْـــرَم سَـــيِّـــدٍ فَـــأظَّـلـهُـم

فِــى دار مــلــك جـــــلالــةٍ وظِـلاَلِ

﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ (١١٨) .

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) .

وإذا هو متأثر أيضاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (حول السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله .. إلى آخر الحديث الشريف ..).

وبذا بدا القصص الدينى معيناً ثَرًّا لا ينضب حين يتجلى الشعراء من خلاله بكل ما قصدوا إلى تصويره وتأكيده أو تعزيزه، فقد أخذ أبو العتاهية كثيراً من ذلك القصص شواهد على ما يذكره حول الموت من قبيل تأكيد الموقف من خلال ما وقع من أحداث للأمم الغابرة التى بادت ، ولم يبق منها إلا خبرها فى القصص القرآنى على نحو ما سجَّله قوله العام :

سَـلِ الأيـامَ عـن أُمَـم تَـقَـــضَّـتْ

ســتــخــبِـرُك المــعــالمُ والرُّسُــومُ (١١٩)

ثم ما ذهب إليه يقينا من منطق هذا القصص القرآنى حين يذكر ما أصاب «جديس» و «طسم» و « إرم » فى قوله :

ألَـمْ تـرَ أن أقـــســامَ المـنَـايـا

توزَّع بيننَا قِــسْــمــا فَــقِــسْــمــا

ســيُــفْنِينَا الذى أفْنَى جَــدِيسًــا

وأفنىَ قَــبْلهــا إرِمًــا وطَسْــمــا (١٢٠)

---

(١١٧) سورة الكهف ١٠٧.
(١١٨) سورة النساء ٥٧.
(١١٩) شعر أبى العتاهية ٣٥٥.
(١٢٠) شعر أبى العتاهية ٣٥٨.

وهو حين يتخذ العبرة من تاريخ أمم فانية قد يطيل الصورة، ويزيد من عرض التفاصيل وتستوقفه المشاهد الجزئية الدقيقة فيها. وربما بدا أقرب إلى التقرير منه إلى التصوير بحكم المادة المتناولة وأسلوب معالجتها، فمع عمومية الأداء لا يتوانى عن الإكثار من توجيه النصح والإرشاد ، وتكرار الدعوة إلى التأمل فى كل ما يقول ، على نحو ما عرضه من تأملات دعا الناس إلى الاستغراق فيها معه قائلاً :

مَنَ احسَّ لى أهلَ القبور ومن رَأى
مَنَ احسَّهم لى بين أطْبَاق الثَّرَى

لينفذ من هذا الموقف الكئيب القاتم إلى حتمية الاستشهاد بالماضى على وجه التعميم، وربما من قبيل التعَزِّى وتسلية النفس بهذه الأخبار :

ولقد مضَى القَرْنُ الذين عهدتُهم
لسبيلهم ولتَلْحَقَنَّ بمَنْ مَضَى
ولَكَمْ أبادَ الدهرُ من مُتَحَصِّنٍ
فى رأس أرْعَن شاهقٍ صَعْبَ الذُّرَى
أينَ الألى بَنَوْا الحُصُونَ وجنَّدوا
فيها الجنود تعزُّزا .. أين الأُلى؟
أين الحماةُ الصابرونَ حَمِيَّةً
يوم الهياج لحرِّ مُجْتَلب القَنَا
أفناهُم مَلِكُ الملوك فأصْبَحُوا
ما منهم أحدٌ يُحَسُّ ولا يُرَى (١٢١)

حتى إذا ما وصل إلى عظمة مالك الملك عرَّج على المعجم الإسلامى تعريجاً خاصاً ليعرض منه بعضاً من الصفات الإلهية وسمات الرسالة المحمدية :

(١٢١) نفسه ١٣ - ١٦.

وهُوَ الخَفِيُّ الظاهرُ المَلِكُ الَّذى

هو لم يَزَلْ مَلِكاً على العَرْشِ اسْتَوى

أخذا من المعانى القرآنية (هو الله الملك القدوس السلام)

(هو الظاهر والباطن).

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [١٢٢] .

ومُردفا ذلك بحديثه عن بعثة النبى عليه السلام وكيف صلَّى عليه ربه وملائكته ، وقد جاء برسالة الهدى :

وهو الذى بعثَ النبىَّ مُحمدا

صلىَّ الإلهُ على النبىِّ المُصْطَفى

مردداً بذلك معنى قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ وكذا دلالة الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾

ثم يعرض سمات الرسالة على طريق ما اقترن بها من الخير والهداية :

وهو الذى أنْجَى وأنقَذَنا به

- بعد الضلال - من الضَّلال إلى الهُدىَ

متأثراً بقوله تعالى ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [١٢٣] .

ولا يكاد أبو العتاهية يقترب من ختام قصيدته حتى يعاوده حزن عميق ، وهو يدعو دعاء إسلامياً خالصاً للموتى ممَّن عرفهم، مؤكداً مراراً - حتمية الموت على كل البشر، كل حسب ما قدر له ويسر من العمر :

---

(١٢٢) سورة طه ٥.

(١٢٣) سورة البقرة ٢٥٧.

كَمْ من أخ لى قد وقفتُ بقبْرِهِ

فدعوتُه : للَّه درُّكَ من فتَى!

أأُخَىَّ لم يَقِكَ المَنِيَّةَ إذْ أتَتْ

ما كانَ أطعمَكَ الطبيبُ وما سَقَى

أأُخَىَّ لم تُغْنِ التَّمَائِمُ عَنك ما

قَدْ كنتُ أحذرُه عليكَ ولا الرُّقَى

مرددا بذلك صورا متشابهة جعلها موضع اعتبار، وموطن عظة أيضاً :

فقبلَك داوىَ الطبيبُ المريضَ

فعاشَ المريضُ وماتَ الطَّبِيبُ

وكان طبيعياً أن ينصرف به حديثه حول المصير وقضية الموت إلى التوُّقف طويلاً عند عالم الرثاء، باعتباره صورة من نفس المستوى البكائى الحزين، وفى دائرته اتسع المجال أمام الشاعر ليعكس من حسه الإسلامى ومعجمه كثيراً من الملامح والجزئيات ، وشاع الموقف لدى الشعراء ممن خاضوا فى رثائياتهم كثيرا من قضايا المصير خارج دائرة الزهاد حتى بعد أبى العتاهية ، على نحو ما ظهر عند أبى تمام حين طرح صورا إسلامية رائعة راح يخلعها على القائد المشهور محمد بن حميد الطوسى الذى وجهه المعتصم بالله إلى قتال الخُرَّمية (١٢٤) ففى رثائه يعرض أبو تمام الموقف الدينى بشكل عام حين يجعله مجاهداً فى سبيل الله : (١٢٥).

ألاَ فى سبيل الله من عُطِّلَتْ له

فِجاجُ سبيل الله وانْثَغر الثَّغْرُ

(١٢٤) كان الخرمية قد تضخم أمرهم وخطرهم حين تزعمهم بابك الخرمى الذى ادعى أنه إله وتحصن من المسلمين وامتنع عن الخلافة الإسلامية عشرين عاماً، فوجه المعتصم إليه الطوسى لما عرف من شجاعته وصبره، فتحايل عليه الخرمية وكمنوا له بين الصخور بجيش ضخم انقض عليه حين اقترب منهم فتشرد فى جنبات الأرض جيشه وأبت نفسه عليه الفرار فظل وحيداً حتى خرَّ صريعاً.

(١٢٥) وقصيدته فيه مشهورة شهرة الشاعر ومرثيه ، ومطلعها : {كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر }

وإذا هو بصدد تصوير البطل وهو يواجه صفوف الأعداء ، فلا يعرف تخاذلاً ولا إدبارا ، بل يتقدم إلى الموت طامعا فيما بعده من جنة الشهداء :

فــأثْبتَ فـى مُــسْــتَنْقع المــوتِ رِجْلَهُ

وقـال لهـا : من تحت أخْـمَـصِكِ الحَـشْـرُ

ولذا أفاض الشاعر فى عرض تلك الجوانب الإسلامية للموقف جملة، فإذا بالأجر يشخصه أكفاناً له ، وإذا به يتخيل ثيابه تبشر بجنة تنتظره :

تـردَّى ثيــابَ المــوت حُـمْـراً فَـمَـا أتَى

لهــا الليلُ إلا وهى من سُنْدُسٍ خُــضْـــرِ

﴿ عالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضرٌ وإِستَبْرَقٌ ﴾ [١٢٦].

وإذا هو يجمل فى صورته التى مات عليها مسلما نقياً طاهر الأثواب، لتنتظره روضة من رياض الجنة تتمنى احتواء جسده الطاهر:

مـــضَى طَاهِرَ الأثْواب لـم تبقَ رَوْضَـــةٌ

غـــداةَ ثوَى إلا اشْــتَـــهتْ أنَّهـــا قَــبْــرُ

ولم يتوقف الحس الغيبى بأبى تمام عند دائرة الرثاء هذه، بل ازدادت الصورة لديه وضوحاً وعمقاً ، وخاصة حين عرَّج على عالم الغيب جاعلاً منه موضوعاً لطرح قضايا الرزق، والحساب ، والنشور ، على النحو الذى يبرزه قوله :

ورزقُكَ لا يعـــدُوك إلا مُــــعَـــــجَّلُ

على حـــاله يومـــاً وإمَّـــا مُـــؤَخَّـــرُ

ولا حـــوْلَ مـــحـــتـــال ولا وجْـــهَ مَــذْهب

ولا قَـــدَرٌ يُزْجِـــيـــه إلا المُـــقَـــدِّرُ

---

(١٢٦) سورة الإنسان ٢١.

لقَــــدْ قَـــــدَّر الأرزاقَ مـن ليس عـــــادِلاً

عن العَــدْل بين الناس فـــيـــمــــا يُقَــدِّرُ

فـــــلا تَـأْمَنِ الدُّنيـــــا إذا هـى أَقْــــبلَت

عليكَ فـــــمــــــا زالَتْ تـخـــــوُنُ وتُدْبِرُ

تَطَهَّـــــــر وألْحِقْ ذَنْبكَ اليـــــومَ تَوْبَـةً

لعلك منه - إن تطَّهـــــرْتَ - تَطْهَـــــرُ

تذكَّـــــر وفكِّر في الَّذى أنتَ صَــــائِرٌ

إليـــــه غـــــداً إنْ كنتَ مــــمَّن يُفَكِّر

فـــلا بُدَّ يومًـــا أن تصــيـــر لحُــفْــرَةٍ

بأبْنَائهــــا تُطْوَى إلى يوم يُنْشَـــرُ (١٢٧)

حيث يردد صوره حول القدر المقدور ، وحول المقدِّر سبحانه وكيف يصنِّف الناس فى توزيع الأرزاق بين الإفاضة والتقتير والتوسط ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾

ولذا ينفر الشاعر من الاستسلام للدنيا ، أو الركون إلى زخرفها، ويدعو إلى ضرورة التفكُّر فى المصير، والانشغال بما بعد الموت من النشور والحساب والثواب والعقاب.

وهنا تأتى التوبة مجالاً رحباً يكثر حوله حديث شعراء العصر كوسيلة للنهوض ، ورد فعل لما أصاب الحياة العباسية من آثام وفساد أخلاقى ، وتحلل من القيم الاجتماعية

(١٢٧) ديوان أبى تمام ٤/٥٩٤.

والدينية ، مما دفع فريقاً من الشعراء إلى إعلان توبته ورجوعه من استمرار التدنى فى مدارج اللهو الحضارى ، ومن ثم ظهر على الجانب الآخر من الحياة تيار من الزهد الإسلامي روج له فريق آخر من شعراء العصر غير أبى العتاهية .

على أننا لا ينبغي أن نحسن الظن - فى كل الأحوال - بكل ما قيل حول توبة بعض الشعراء ، وخاصة منهم من أسرف على نفسه فى ارتكاب المعاصى كأبى نواس الذى ما عرف سبيلا إلا إلى تحقيق متعه ولذاته ضارباً - فى كل الأحوال - عن التمسك بأى من القيم أو التقاليد ، فإذا به يجاهر بالمعصية، ويرفع لواء التحلُّل الأخلاقى، ويشكك شباب عصره فى القيم الدينية ، ويتزعم عصابة السوء التى جعلها محوراً لفخره وزعامته، ولكنه فى لحظات من المراجعة النفسية وحالات الصحو من سكره وعربدته - ويبدو أنها كانت قليلة فى حياته- بدا نادماً على ما كان منه ، ومن هنا يتحتم سوء الظن بسلوك أبى نواس الذى لم يحسُن زهده ولم تصدق توبته، ومن ثم يصعب ضمه إلى فريق الزهاد، ليبقى فقط مجرد نادم فى لحظات المراجعة تلك ، على نحو ما رصده شعره من مثل قوله:

ما حُجَّتى فيما أتيْتُ؟ وما
قولى لربى ؟ بل وما عُذْرِى
أن لا أكونَ قصدْتُ رُشْدىَ أوْ
أقبلْتُ ما استدبَرْتُ من أمْرى
يا سَوْأتا مما اكْتسَبْتُ ويا
أسَفى على ما فاتَ من عُمْرى (١٢٨)

فمثل هذا النغم الحزين إنما يصدر عن الشاعر فى لحظات المشيب التى يبكى من جرَّائها بصرف النظر عن إسلامه من عدمه ، فكثيرة هى أحاديث الشعراء منذ الجاهلية حول شكوى الشيب وشكوى الزمن؛ الأمر الذى لا يسجل أيا من صور التميز لأبى نواس، ولا هو يكشف عن شيء من صدقه فى سياق تلك التوبة المتصنعة التى يغلب عليها طابع الافتعال فى فترة متأخرة من حياة الشاعر، لم يتورع بعدها من ممارسة لذته كما شاء له

(١٢٨) ديوان أبى نواس ٦١٠.

الهوى ، وكأنه يستوحي بذلك من النص القرآني مشهد الكافر يوم يلقى ربه فيبدو نادماً أملا أن يعود إلى الدنيا ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ أو قول الكافر يوم البعث أيضاً ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾

من هنا نستطيع الزعم بأن توبة أبي نواس قد افتقدت عنصر الصدق، فبدت مجرد امتداد لتحسر شعراء الجاهلية على ماضي حياتهم ، مع تعديل طفيف فيما ذهبوا إليه بحكم العصر وانتشار المعجم الإسلامي فيه كجدول من جداول ثقافة الشعراء . ويظل الذي لا يخفى أن أبا نواس قد اقتبس من هذا المعجم الإسلامي كثيراً من ألفاظه وصوره بصرف النظر عن صدقه في توبته من عدمها، ذلك أن الحقيقة المؤكدة أنه استوحي منه الكثير على النحو الذي يستعرض فيه ما ينتظره من عذاب في يوم لا يجد فيه الناس ﴿ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾

كأن يقول :

أيَا مَنْ ليسَ مِنْهُ مِن مُجِيرٍ
بعَفْوِكَ من عذابِكَ أَسْتَجِيرُ

أنا العبدُ المُقِرُّ بكُلِّ ذَنْبٍ
وأنتَ السَّيِّدُ المولَى الغَفُورُ

فإن عذبتَنى فبِسُوءِ فِعْلى
وإن تغْفِرْ فأنتَ به جَدِيرُ

أفِرُّ إليك منكَ وأينَ إلا
إليكَ يفرُّ منه المُسْتَجِيرُ [(١٢٩)]

مردداً بذلك صدى الآيات القرآنية ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [(١٣٠)] وإن كان أبو نواس يتمادى في حديثه عن العفو الإلهي ، متخذاً منه مشجباً يعلق عليه ما يشاء من ذنوب وآثام، ولعله أخذ في ذلك

---

(١٢٩) ديوان أبي نواس ٦١٠.

(١٣٠) سورة المائدة ١١٨.

بما انتقاه من فلسفة الإرجاء أو منطق العفوية ، تلك التى أسهمت فى انتشار الفساد الأخلاقي فى العصر، وقصدت إلى تعليق المعاصى على العفو الإلهى، استناداً فى ذلك إلى ما نشرته المرجئة من تأويل للآية الكريمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ حيث راح الشعراء يستغلون الموقف لينشروا بين الشباب ما يبيح لهم التحلل من التكاليف الدينية، ويساعدهم على الانصراف عن الفضيلة ، خاصة منهم من بدا رقيق الإسلام واهى العقيدة سقيم الوجدان الدينى ، فراح يعلق مُنكر أفعاله على أسس من تلك الفلسفة، محاولاً- إذا تاب مؤقتا- أن يصبغ على توبته طابعاً دينياً على نحو قول أبى نواس أيضاً :

يا ربُّ إنْ عظُمَت ذنوبى كَثْرَةً
فلقَدْ علِمْتُ بأنَّ عفوَكَ أعْظَمُ
إن كانَ لا يرجُوكَ إلاَّ مُحسن
فبِمَنْ يلوذُ ويستجيرُ المُجْرِمُ
أدعوكَ ربِّ كما أمَرْتَ تَضَرُّعًا
فإذَا رَدَدْتَ يدى فمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مالِى إليكَ وسيلةٌ إلا الرَّجَا
وجميلُ عفوك ثم أنِّىَ مُسْلِمُ [١٣١]

حيث يستوحى معانيه من دلالات الآيات القرآنية ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾[١٣٢].
(وقال ربكم ادعونى استجب لكم).

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ [١٣٣] .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [١٣٤].

---

(١٣١) ديوان أبى نواس ٦١٨.
(١٣٢) سورة الإسراء ٦٧.
(١٣٣) سورة الشورى ٢٥.
(١٣٤) سورة الأعراف ٥٥.

وهو الدعاء الذى أخذ به فى كثير من مواقفه التى اعتذر فيها عن قبح مسلكه وتحسره على ماضيه :

لهفَ نفسى على لَيالٍ وأيَّا
مٍ تمَلَّيتُهنَّ لِعبًا ولَهْوا
قد أسأنا كل الإسَاءة فاللَّـ
ـهم صَفْحا عنَّا وغَفْرًا وعَفْواً (١٣٥)

وتتراوح لوحات التوبة عند أبى نواس بين هذه المواقف التى يؤثر فيها الإيجاز والتركيز ، بين ماعمد فيه إلى الإطالة وطرح التفاصيل التى تكشف عن طابع الحزن النفسى ، وعمق الآلام التى يحسها فى داخله ، فلا يتوانى فى عرض ملامحها كما ورد فى قوله :

إذا ما خلَوْتَ الدهرَ يومًا فلا تَقُلْ
خلَوْتُ ولكن قُلْ علىَّ رَقِيبُ
ولا تحسبَنَّ اللهَ يغفلُ سَاعة
ولا أَنَّ ما يخفى عليه يَغِيبُ
لَهَونْا - لَعَمْرُ الله - حتى تتابَعتْ
ذنوبٌ على آثارهن ذُنُوب
فيا ليتَ أن الله يغفرُ مَا مَضى
ويأذَنُ فى تَوْباتنا فنَتُوبُ
أقولُ إذا ضاقت علىَّ مَذاهبى
وحلَّت بقلبى للهُمُوم نُدوبُ
لِطُولِ جنايَتى وعُظْم خَطيئتى
هلَكْتُ ومَالى فى المَتَاب نَصِيبُ

---

(١٣٥) ديوان أبى نواس ٥٨٠.

ويذكـــرُنى عـــفـــوُ الكريم عن الوَرَى

فـــأحـــيـــا .. وأرجـــو عـــفَـــوهُ فـــأنيب

فـــأخـــضَعُ فى قـــولى وأغـــضَبُ سَـــائلا

عـــسىَ كـــاشـفُ البلوى علىَّ يتـــوُبُ (١٣٦)

فهو يرتدى ثوب المسلم الحق حين يرجع عن خطيئته ، مدركا أن عليه رقيباً أعلى يسجل عليه دقائق أعماله ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . ومردداً أيضاً من معانى الآيات الكريمة ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾ ﴿ وعند مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ (١٣٧).

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ (١٣٨) .

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾ (١٣٩) .

ومن هنا بدا تشبث أبى نواس بالمعجم الإسلامى رهناً بما كان من جرائمه المتوالية وعبثه الدينى المقصود طيلة حياته ، فهو الذى ردد من منطق الانصراف عن الدين ومن باب السخرية والتهكم :

بكَرتْ عليَّ تلومُنى فـــأجْـــبـــتُـــهـــا

إنـيَّ لأعْـــــــرفُ مَـــــــذْهَـبَ الأبْرَار

فَـــدَعِى المـــلامَ فـــقـــد أطعْتُ غـِــوَايَتى

وصـــرَفْتُ مَـــعْـــرِفَـــتى إلى الإنكار

ورأيتُ إتيـــــانى اللَّذاذة والـهَـــــوى

وتـعـــــــجُّلى مِـن طيـب هـذِى الـدَّار

---

(١٣٦) ديوان أبى نواس ٦١٠.

(١٣٧) سورة الأنعام ٥٩.

(١٣٨) سورة الشورى ٢٥ .

(١٣٩) سورة الزمر ٥٤.

أحـــرَى وأحـــزمُ من تنظُّر عَـــاجِلٍ
عِلمـي به رجمٌ من الأخـــــبـــــار
مـــا جـــاءنَا أحـــدٌ يخـــبِّـــرُ أنه
فى جنة مُـــذْ مَـــات أوَ فى نَار (١٤٠) .

وهو الذى أعاد إلى أذهان شباب العصر حس الجاهلية على حساب الحس الدينى:

يـا نـاظراً فـى الدِّين مـــا الأمْـــرُ
لا قـــدَرٌ صَـحَّ ولا جَـــبْـــرُ
مـــا صحَّ عندى من جـــمـــيع الذي
تـذكـــرُ إلا المـــوْتُ والقَـــبْـــرُ (١٤١) .

وقد تفاخر طويلاً بزعامته عصابه السوء :

عـصـــابةُ سُـوءٍ لا ترَى الدَّهْرَ مـــثلَهمُ
وإن كنتُ منهم لا بَريئـــاً ولا صِـــفْـــرَا

وهو امتداد لتفاخره بآثامه التى طالما تغنى ببطولته من خلال ارتكابها :

ولقـــد نَهــــزْتُ مع الغُـــوَاة بدَلْوِهَم
وأسَـمْتُ سَـرْحَ اللَّهـو حـيث أسَـامـوا
وبلغْتُ مـــا بلـغَ امــــرؤٌ بشــبـــابه
فـــإذا عـــصـــارةُ كلٍّ ذاكَ أثَـامُ

فكان هذا هو السلوك العام لأبى نواس، ومن خلاله ينبغى أن يصدر الحكم عليه ، أما عن تشبثه بالمعجم الإسلامى فى لحظات الندم فقد بدا استثناءً لا يمثل قاعدة، وإن بدا فى ثناياه أحياناً أملا فى الهداية ، إلا أنها لم تتحقق له فى كل الأحوال:

---

(١٤٠) ديوان أبى نواس ١٣٩.
(١٤١) ديوان أبى نواس ١٤٠.

حـــتى مـــتى يا نفسُ تغـــتـــرين بالأمَل الكَذُوبِ ؟
يا نفسُ توبى قـــبل أن لا تســـتطيـــعى أَنْ تَتُـــوبى
واســـتـــغـــفـــرى لذنوبك الرحـــمنَ غـــفـــارَ الذُّنوب
إن الحـــوادثَ كـــالرياح عليكِ دائمـــةُ الهـــبُـــوب
والمـــوت شَـــرْعٌ واحـــدٌ والخلق مـــخـــتلفُـــو الضُّـــروب
والسعْيُ فى طلب التقى من خير مكسبة الكَسُوب

إذ يبدو الرجل شديد التحسر على سلوكه ، شديد الندم على ممارسات واقعه، مما يخلق منه حكيماً يطرح القضايا فى سياق هذا الشكل العام الذى يرى فيه الحوادث كالرياح والموت شرع واحد ، والسعى فى طلب التقى هو الخير كله ، وكأن الشاعر يدين بذلك نفسه ، ويدين ماضيه وحاضره من خلال تلك الحكم التى رصدها فى أخريات حياته بعد أن عجز عن مواصلة لهوه ومجونه، ومن ثم جاءت كثرة حديثه عن هذا الجانب من منطق الشيب والشيخوخة والعجز عن استمرار متع الشباب :

أيَّـةُ نـارٍ قَـــــــدَحَ الـقَــــــادِحُ
وأىُّ جِــــــدٌ بـلـغَ الـمَــــــازِحُ؟
لـلّـه درُّ الـشــــــيـب مـن واعِـظٍ
ونـاصـحٍ لـو سَــــــمِـع الـنَّـاصِـحُ
يـأبَـى الفَـــتَـى إلاَّ اتِّبــاع الـهَــوَى
ومـــنـــهـــجُ الـــحـــق لـــهُ وَاضِـــحُ
فـــاسْمُ بعـــيـنَـيْك إلى نِـسْــوَةٍ
مُـــهُـــورُهُن الـعـــمـلُ الصَّـــالِحُ
لا يجـــتَلى الحـــوراءَ مِن خِـــدْرِها
إلا امـــرؤٌ مـــيـــزانُـهُ رَاجِـحُ

مَنِ اتقَّى الله فـذاكَ الذَّى

سِيق إلَيْه المَتْجَرُ الرَّابح

شمِّرْ فما فى الدِّين أغلوطَةٌ

ورُحْ لما أنت له رائح [١٤٢]

فهو يبدو قريباً من التقوى، داعيا إليها ، استجابة منه لصوت الشيب، وما فيه من وعظ وإرشاد ونصح ، وكشف له عن أباطيل ماضيه وضلاله، على الرغم من وضوح الحق جليا أمام عينيه، مشيراً بأبياته إلى ما أفاده أيضاً من معانى الآيات القرآنية ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

وما أشار إليه من حور العين من نساء الجنة ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ، وكيف كانت مهورهن من صالح الأعمال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾، ثم ينهى الموقف بعرض ما فى الدين من حقائق مؤكدة، ونفى وجود أية أغلوطة حوله كاشفاً بذلك عن فساد رأيه فى وقائع ماضيه كلها يوم أن جعل حجَّه إلى غمى وبنَّا وقطربُّل حيث حانات الخمر وعربدة السكارى وعبث الندماء :

جعلتُ الحَجَّ فى « غُمَّى » و« بنَّا » وفى « قُطْربُّل » أبداً رِباطى

فقُلْ للخَمْس آخرَ ملتقانا إذا ما كانَ ذاكَ على الصِّراط

ويومئذ نهى عن أداء فريضة الله فى البيت الحرام فى تبجح حين قال :

لا تأتِيَنَّ بلادَ مكَّةَ مُحْرِما ولو انَّ مكةَ عندَ بَاب الدَّار

وليجعل وصيته لرفاقه أن يدفن فى قطربُّل بين الحانات والمعاصر:

خليليَّ باللَّه لا تَحْفرا لِيَ القَبْرَ إلا بقُطْربُّل

خلالَ المعاصرِ بينَ الكُرو مِ ولا تُدْنِيَانى من السُّنْبُل

لَعلِّى أسْمَعُ فى حُفْرَتى إذَا عُصِرت ضَجَّة الأَرْجُلِ

---

(١٤٢) ديوان أبى نواس ٦١٨.

(٧)

وقياسا على لوحات الندم عند أبى نواس ، انتشرت صور من التوبة بين كثير من شعراء العصر، سواء منهم – فى ذلك – من امتلك رصيدا من سيئات الماضى على نهج أبى نواس ونظرائه، أم من كان منهم أكثر صدقا فى توبته ، فعرضها مشوبة بمنطق الخوف والحذر. منذ راح يستجمع فى ذاكرته مشاهد القيامة والبعث والحساب ، على نحو ما ردَّده قول أبى تمام :

ألـم يـأن تَـرْكـى لا علـىَّ ولا لِـيَـا
وعَـزْمى عَلىَ مـا فـيـه إصـلاحُ حَـالِيـا

أصـوِّت بـالدنيـا وليـسـت تجـيـبُنى
أحـاولُ أن أبْقَى وكـيـف بَقـائِيـا

ومـا تبـرحُ الأيامُ تـحـذفُ مُـدَّتى
بعَـدٌ حِـسَـابٍ لا كَـعَـدٌ حِـسَـابِيـا

لتـمـحُـوَ آثَـارى وتخلُق جِـدَّتى
وتُخْلِيَ مـن ربْعـى – بِكُرْهٍ – مَكَانيـا

كـمـا فَـعَلت قـبلى بطسم وجـرهـم
وآل ثمـود بعـد عـادِ بن عـاديا

أليسَ الليـالى غـاضِـبَاتى بمُـهْـجـتى
كـمـا غـضـبت قـبلى القـرونَ الخَـواليـا؟

ومُـسكِنَتى لَحْـداً لدىَ حُـفـرة بهـا
يطولُ إلى أخـرَى الليـالى ثَوائيـا؟

كـمـا أسكنَتْ سـامـاً وحـامـاً ويَافـثـا
ونُـوحـا ومَنْ أضـحى بـمكـةَ ثاويـا

فـيـاليـتَنى من بعـد مـوتى ومَـبْـعَـثِى
أكـونُ رفـاتًا لا علىَّ ولا ليـا

أخـافُ إلـهى ثُمَّ أرْجُـو نَـوَالَهُ
ولكنَّ خـوفى قـاهرٌ لرجـائيـا

ولولا رجـائى واتِّكالى عـلى الذى
توحَّـد لى بالصنع كـهـلاً ونَاشـيـا

لمـا سـاغَ لى عـذبٌ من المـاء بارد
ولا طابَ لى عـيشٌ ولا زلتُ بَاكـيـا

على إثْر مـا قَـدْ كـان منىَّ صَـبَـابةً
ليـالىَ فـيـهـا كنتُ للّه عَـاصِيَـا

فـإنِّى جـديرٌ أن أخـافَ وأتـقى
وإن كنتُ لم أشـرك بذِى العـرش ثَانيـا

وأدَّخِـرُ التـقـوى بمـجـهـود طَاقَـتي
وأركبُ فى رُشْـدى خِـلافَ هَوائِيَـا (١٤٣)

فإذا هو يفقد الأمل فى الخلود إيماناً بما نزلت به العقيدة، ويؤكد فناءه من خلال اعتبارات يدعمها القصص القرآنى حول مصائر الأقوام التى مضت وبادت ، وحل بها الفناء ، مهما طال أمد العصيان ، ومن ذلك ما كان من شأن طسم وجرهم وثمود وعاد فى

---

(١٤٣) ديوان أبى تمام ٤/ ٦٠٠ - ٦٠٢ سام وحام ويافث: أبناء نوح عليه السلام. عاد: شعب سكن الأحقاف وأهلكه الله بريح صرصر لبغيه. ثمود : شعب عربى قديم . جرهم: حى من اليمن كان على عهد إسماعيل عليه السلام . طسم : قبيلة من العمالقة أبادها الله كانت تسكن اليمامة.

القرون الخالية ، ولذلك راح الشاعر يطرح أمنيته فى أن يكون ترابا بعد موته ومبعثه ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ وهو يعيش بذلك قلقا ممزقا مضطربا بين الخوف والرجاء، ولكن خوفه يكاد يتجاوز رجاءه ، ولذا يطرح مع خوفه ورجائه صورة من توكله على الله ، وتوبته عن ليال مضت كان فيها عاصيا، وبدا الآن خاشعا منيبا، يخشى ربه ويخاف عذابه، ويتقى غضبه وعقابه، مؤكدا أنه لم يشرك به أحدا ولم تسول له بشىء من ذلك نفسه ، ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (١٤٤).

ثم راح يعرض ما ادخره من التقوى جهد طاقته ، آخذا من الرشد سبيله ، ومحاولا أن يقضى به على أهوائه ﴿ لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ ﴾ .

وبذا يبدو طابع الصدق واضحاً فى أبيات أبى تمام ، وربما ازداد توكيدا إذا ضممنا إليه ما أشارت إليه سيرته وأخباره من سلوك طيِّب يحمد له ، فلم يتطرف على نحو ما رأينا فى النهج النواسى ولم يكن زنديقا، ولا ملحدا كما انتشر فى عالم المجان والزنادقة، بل كان على عكس أبى نواس الذى لم يجد فى زندقته سوى ضرب من الظرف الاجتماعى وخفة الظل على حساب عقيدته حين قال:

تزندقَ مُعْلنًا ليقولَ قومٌ ... إذا ذكروه زِنْدِيقٌ ظَرِيفُ

وبذا تظل الفروق الفردية بين الشاعرَيْن سلوكا وشعرا بمثابة إضاءة تكشف عن طبيعة الخيوط الدقيقة فى المفارقات السلوكية بينهما حول عالم التوبة كباب من أبواب الزهد ومقام من مقامات الزهاد .

ويدير كثير من شعراء العصر حوارهم حول المبادئ الإيمانية التى تتعلق بالتوحيد، وتنزيه الله سبحانه وتعالى ، وكأنما راح الشعراء يستعيدون سيرة أسلافهم فى عصر صدر الإسلام، ممن تبنوا تلك القضايا، وحاولوا ترسيخها استكمالاً لأصول الجهاد الدينى ، والدفاع عن الإسلام ضد مدرسة المشركين من شعراء مكة وحماة وثنيتها .

ولعل مظاهر الفساد التى عاشت بين شباب المجتمع العباسى كانت من الدوافع الرئيسية لتلك المحاولة الإحيائية لنشر مبادئ دينية تتصدى لتيار الزندقة والمجون عند من

(١٤٤) سورة النساء ٣٦.

خرجوا على مبادئ الدين وقيمه ، ولكنا - مع هذا - لا نستطيع الزعم بأن هذا هو الدافع الوحيد في ميدان الفن الشعرى ، إذ نجد لتلك المبادئ أصداء كثيرة عند كل شعراء العصر حتى الزنادقة منهم ، مما يدل على أن طرحها إنما جاء كرد فعل - بالدرجة الأولى- لتأثير المعجم الإسلامى كتراث رسخ فى ذاكرة كل الشعراء ، فصار قاسما مشتركا بين الواعظ منهم والماجن؛ الأمر الذى انعكس - بالطبع - فى صور من الصدق لدى الزهاد والوعاظ ، وكثير من أساليب النفاق الذى شاع فى بيئة الزنادقة والمجان والمخمورين.

ومع بشار وأبى نواس تتكشف لنا بعض أبعاد هذه الحقيقة التى لم تصدر عن إيمان ويقين كاملَيْن ، بقدر ما انعكست من منطق الكره من قبل الشاعر لأن يكون مولى للعرب ، ما دفعه إلى التجرؤ على تلك الصياغة التى تبدو مليئة بالمغالطات على نحو مما كان عليه بشار حين سجَّل ولاءه لذى الجلال، وقارن بينه - أى هذا الولاء - وبين ولائه لتميم أو غيرها ، وليس ثمة وجه للمقارنة إلا القصد إلى السخرية وخاصة إذا عرض الصورة على النحو الذى قال فيه أبياته المشهورة:

أصبحْتُ مَولى ذى الجلال وبعضُهم
مولَى العُرَيْب فخُذْ بفضْلِك وافْخَرِ
مولاكَ أكرمُ من تَميم كلِّها
أهلِ الفَعَال ومن قريش المَشْعَر
فارجِعْ إلى مولاك غيرَ مُدَافع
سبحانَ مولاكَ الأجلَّ الأكْبر [١٤٥]

فلو كانت ولاية بشار لله حقا لما تزندق وأعلن أنه « على دين كسرى » فى بعض مجالسه مع الجواري، ولما شكَّك فى أصل الخليقة وردَّد منطق إبليس حول تفضيله على آدم، وكان يقدس النار على لغة عُبَّادها من المجوس من بنى جنسه فى كثير من شعره .

(١٤٥) ديوان بشار ٤/٦٤.

وتثور قضية الوحدانية على لسان أبى نواس من منطق التأمُّل العقلى الذى دعا إليه القرآن الكريم ، حيث حضَّ على الإكثار منه وصُولا إلى المزيد من معرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به ، وتأكيد توحيده ، فيقول أبو نواس :

تـأمـلْ فـى ريـاضِ الأرْض وانـظُـرْ

إلـى آثـار مــا صـنـع الـمـلـيـكُ

عـيـونٌ من لُجَـيـن شَـاخِـصَـاتٌ

بأحْـرَاقٍ هـيَ الذهبُ السَّـبِـيـكُ

علـىَ قُـضـبُ الزَّبَرجْـد شـاهداتٌ

بـأنَّ اللـهَ لـيسَ لـهُ شَـرِيـكُ [١٤٦]

وإن ظل جليا أن أبا نواس إنما أخذ مادة تأمله من واقع حضارة العصر مُركزا على الجانب المادى منها حول « الرياض » ، « عيون اللجين» و « الذهب السبيك » و«قضب الزبرجد» حيث حاول تطويعها لخدمة القضية الإيمانية التى تأثر فيها بالمعجم الإسلامى على تناص مع معنى قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [١٤٧].

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ [١٤٨]
وتترد هذه المعانى الإسلامية فى بيئة المتزندقة فى فترات التوبة والندم التى مرت فى حياة بعض منهم ، وإذا أحاديثهم تأخذ منحًى حكيما يتَّخذ من ذلك الحس الإسلامى سندا فى تأكيد المعنى وتعميمه على نحو ما سجله بشار فى قوله :

خليلـيَّ إنَّ العُـسْـرَ سـوفَ يفـيقُ

وإن يـسـاراً فـى غـد لخـلـيق

(١٤٦) ديوان أبى نواس ٢٧٠.
(١٤٧) سورة محمد ١٠.
(١٤٨) سورة آل عمران ١٣١.

خليليَّ إن المـــــالَ ليس بنافع

إذا لم ينَلْ منه أخٌ وصــــــديق

ومـــا خـــابَ بين الله والناس عـاملٌ

ولكن أخـلاقَ الرجـالِ تضَـيقُ (١٤٩)

فإذا هو يردد حكمه استناداً إلى المعانى القرآنية التى انتشرت فى كثير من الآيات القرآنية الكريمة ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾

﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ، إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ (١٥٠).

﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ (١٥١).

ومع ما أكمل به الشاعر لوحته من معانٍ بدت لها قيمتها الخاصة ودورها البارز فى رقى السلوك الاجتماعى وبعده الإنسانى العميق.

وعلى نفس النهج الحكمى سار النواسى فيما عرضه من موقفه من الكبرياء والغرور، فراح يدعو إلى التواضع من منطق تقوى الله تعالى قائلاً :

حـذَّرْتكُ الكبـرَ لا يعلقْكَ مَـيْسـمُـه

فـــإنَّه مَلْبسٌ نازعـــتَـــهُ اللَّهَ

إنيَّ لأمـــقُتُ نَفـــسى عند نَخْـوَتهـا

فكيفَ آمَنُ مَــــقْتَ الله إيَّاهـا؟

يا راكبَ الذَّنب قـد شـابَتْ مَـفَـارِقُـه

أمَـا تخـاف من الأيام عُـقْـبَـاها (١٥٢)

---

(١٤٩) ديوان بشار ٤/١١٤.

(١٥٠) سورة الأنفال ٦٠.

(١٥١) سورة الإسراء ٢٠.

(١٥٢) ديوان أبى نواس ٦٢٠.

حيث يردد ما استوعبه من تلك المعانى الإسلامية المطروحة حول ضبط حركة السلوك البشرى ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

كما رصد الكبرياء والعظمة لله وحده لا شريك له فيها فهو - سبحانه - ﴿ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾

وإذا بهذا الفريق من الشعراء يبدو شديد الحرص على موقفه المذهبي، حين ينتمى إلى إحدى الفرق الكلامية التى تلجأ إلى تأويل بعض الآيات القرآنية، تأكيدا لاتجاهها، ومسايرة لمذهبها فإذا بأبى نواس يأخذ فلسفة الإرجاء - كما عرضت أنفا- وإذا ببشار يأخذ بفلسفة الجبرية فى بعض المواقف ؛ وخاصة حين يتعرض للحديث عن كفِّ بصره، إذ يأخذ المسألة من منظور دينى يكشف فيه عن رضاه بقدره :

وعيَّرنى الأعداءُ والعيبُ فيهم
وليسَ بعَيْبٍ أن يُقَال ضَرِيرُ

إذا أبصرَ المرءُ المروءةَ والتُّقَى
فإنَّ عمى العيْنين ليس يَضِيرُ

رأيتُ العمى أجْرًا وذُخْراً وعِصْمَةً
وإني إلى تلك الثلاث فَقِيرُ (١٥٣)

فهو يعرض القضية مغلَّفة بموقف دينى يجعل محوره الأجر والتقى والذخر والعصمة، مما يقوده إلى سبيل الرشاد فى حياته، وهو سلوك إسلامى قويم تعرضه الآيات القرآنية فى كثير منها.

ولم يثبت بشار على حال واحدة فى موقفه الجبرى بقدر ما تحول به إلى صورة من الغضب والسخط على قدره فى موقف آخر يكشف زيف هذا الاتساق المفتعل:

خُلِقْتُ علىَ ما فِيَّ غيرَ مُخَيَّرٍ
هَوايَ ولو خُيِّرْتُ كنتُ المُهَذَّبا

---

(١٥٣) ديوان بشار .

أريدُ فــــــــلاَ أُعْـطَـى وأُعْـطَـى ولَـمْ أُرِدِ

ويقــصــرُ عِلمى أن أَنَال المُــفَــيَّـبـا

وعنده أيضاً ترد محاولات أخرى كثيرة تنشر ما أفاده من المعجم الإسلامى، حتى فى موضوع الهجاء والذى يأخذ فيه بهذا المنحى الدينى ، حين يهجو عبد الكريم بن أبى العوجاء قائلاً :

قُل لعـــبـــد الكريم يا ابن أبى العـــو

جـاءِ بِعْت الإســلامِ بالكُفْـر مُــوقـا

لا تُـصَلـى ولا تـصـــــومُ فـــإنْ صُمْ

تَ فـبـعضَ النهـار صَـوْمـاًرَقِـيـقَـا

لا تُبـالى إذا أصـبَـحْتَ من الخـمـ

ر عـتـيـقـاً ألاَّ تكونَ عَـتِـيـقَـا

ليتَ شِـعـرى غـداةَ حُلَّيت فى الجـيـ

د حنيــفـا حليت أم زِنديقـا (١٥٤)

فهو يُعرِّض بعبد الكريم الذى قُتل على زندقته لما عرف عنه من وضع الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعرض لما كان من كفره ، وانصرافه على العبادات من صوم وصلاة ، وإكثاره من شرب الخمر ، ليتوِّج الاتهام بعرض زندقته بهذه الصورة التهكمية التى تكاد توهمنا بتدين بشار لولا ما امتلأت به سيرته من كشف لوره وشعره كزنديق متحامل على العقيدة، حتى قال واصل بن عطاء فى حقه « أما لهذا الأعمى من يقتله ».



(١٥٤) ديوان بشار بن برد ١١١/٤

(٨)

وفى مقابل هذا الفريق من شعراء الزندقة والمجون عاشت فئة قليلة من شعراء الزهدو وراحت تتبارى حول الاقتباس من المعجم الإسلامى بشكل بدا فيه الشاعر منهم أكثر صدقاً وعمقاً ، عما رأيناه لدى الفريق الأول ، صحيح أن انتشار المعجم بين الفريقين يظل دالاً على عمقه وقدرته على الذيوع واتساع دائرة التأثير فى كل الاتجاهات ، ولكن تظل درجة التأثير والاقتناع بما يقوله الشاعر أمراً متباينا بين الفريقين بصورة واضحة، فعند شعراء الزهد لنا أن نتوقف عند الطبيعة النوعية لتلك المؤثرات الإسلامية، ولعل أكثرهم تأثرا بها وأكثرهم أيضا نظما حولها كان أبو العتاهية الذى شغل نفسه بقضية المصير - كما رأينا - فأدار حولها أكثر من حوار دينى طويل راح يغلِّفه بالقضايا الإيمانية المختلفة، وفى مقدمتها قضية التوحيد والتنزيه التى أطال عندها الوقوف على حد قوله موضحا مكانة الخالق سبحانه :

مَلِكٌ تواضَعَتِ المُلوكُ لعِزِّه
وجلالِه سبحانَهُ وتَعالىَ
لا شيءَ منه أدقُّ لُطْفِ إحاطة
بالعالَمِينَ ولا أجلُّ جَلالاَ [(١٥٥)]

مرددا بذلك معانى الآيات الكريمة ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾
﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾

(١٥٥) شعراء أبى العتاهية وأخباره ٣٠٩.

وكثيرة هى تسبيحات أبى العتاهية التى يستغرقه فيها حسه الدينى ويهيمن عليه منطق الزاهد وشفافية العبد المطيع ، فيردد منها مكررا ومصورا درجات اليقين والتنزيه الإلهى :

سبحانَ من يُعطى المُنَى بِخَواطر
في النفس لم ينطق بهنَّ لِسَانُ
سبحانَ من لا شيء يحجُبُ علمَهُ
فالسِّرُّ أجمعُ عنده إِعْلاَنُ
سبحانَ من هو لا يزالَ مُسَبَّحا
أبدا وليس لغيره السُّبْحَانُ
سبحانَ من تَجرى قضاياه علي
ما شاء منها غائبُ وعِيَانُ
سبحان من هو لا يزالُ ورزقُه
للعالمين به عليه ضَمانُ
ملكٌ عَزِيز لا يفارقُ عزَّه
يُعْصَى ويُرْجَى عندهُ الغُفْرَانُ
ملكٌ له ظهر الفضاء وبطنُهُ
لم تُبْل جِدَّةَ مُلكه الأزْمَانُ
يَبْلَى لكلِّ مُسَلْطنٍ سُلْطَانهُ
واللهُ لا يَبْلَى له سُلْطَانُ (١٥٦)

فهو يستوحى كل ملامح التنزيه من واقع الحس القرآنى الذى استمده من معانى الآيات القرآنية ﴿ وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون ﴾ (١٥٧) . ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(١٥٦) شعر أبى العتاهية ٣٧٠. (١٥٧) سورة الأنعام ٨٠.

﴿ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١٥٨).

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾ (١٥٩).

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (١٦٠).

وعلى نفس النسق يأخذ أبو العتاهية معالم الوحدانية والتنزيه من منطق التأمل والتدبر والتفكر الذى حدا به إلى استنكار معصية الله أو جحود نعمه تعالى قائلا:

أَيَا عَجَبًا كَيفَ يُعصَى الإلـ

ـهُ أَمْ كَيفَ يجحدُه الجَاحِدُ

ولِلَّه فى كلِّ تَحْرِيكَةٍ

وتسكينة أبداً شَاهِدُ

وفى كلِّ شىء له آيَةٌ

تدلُّ علىَ أنَّه الوَاحِدُ (١٦١)

إذ لا يزال يردد من معاني الآيات القرآنية ما دعت إليه من تقدير لملكة العقل ، مع الدعوة المتكررة لإعماله للتدبر فى خلق السموات والأرض ﴿ وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٦٢).

ففى كل صور الخليقة ما يشهد على قدرة الله – سبحانه – ويدعو إلى توحيده (أفلا يتفكرون) (أفلا تتذكرون) ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١٦٣)

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٦٤).

---

(١٥٨) سورة النور ٣١.

(١٥٩) سورة الجمعة.

(١٦٠) سورة سبأ ١.

(١٦١) طبقات الشعراء المحدثين (ابن المعتز) ٢٠٧.

(١٦٢) سورة الأنعام ٥٩

(١٦٣) سورة محمد ٢٤.

(١٦٤) سورة يس ٨١.

وكانت ردود الفعل عند أبي العتاهية صادرة عن إيمانه بوحدانية الله وتنزيهه، قبولاً بذلك لقضائه وقدره في قوله مازجا التوحيد بالإيمان بالقضاء :

تعـالَى الواحـدُ الصَّـمَـدُ الجليلُ
وحـاشَـا أن يكون له عَـديلُ
هُـوَ الـملكُ الـعـزيـز وكلُّ شيء
سـواه فـهـو مُنْتَـقَصٌ ذَلِيل
ومـا مِنْ مَـذْهب إلا إلَيْـه
وإنَّ سـبـيلَهُ لهُـوَ السَّـبِـيلُ
وان لـه لـمـنًّا لـيس يحـصـي
وإن عطاءه لـهـو الـجـزيـل
وكل قـضـائه عـدل علينا
وكل بلائه حـسـن جـمـيـل
وكل مـفـوه أثني عليـه
ليـبلغـه فـمنحـسـر كليل [165]

مرددا من حسه القرآني دلالات الآيات ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ [166].

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ﴾ [167]

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [168]

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [169]

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [170]

---

(١٦٥) ديوان أبي العتاهية . ٢٢.
(١٦٦) سورة الإخلاص ١ .٢.
(١٦٧) سورة الحشر ٢٤.
(١٦٨) سورة يوسف ١٠٨.
(١٦٩) سورة النحل ١٨.
(١٧٠) سورة الرعد ٤١.

﴿ وأن تصبروا خيرٌ لكم والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ (١٧١)

﴿ إنَّهُ لا ييأسُ من رَوْحِ اللهِ إلاَّ القومُ الكافرونَ ﴾ (١٧٢)

ولعل أبا العتاهية بسلوكه الديني وحرصه على النظم حوله قد جعله لامعا بين شعراء العصر، حتى أصبح شعره موضعا لمعارضتهم دون أن يعني هذا أن كل من عارضوه كانوا من الزهاد ممن كانت لديهم القدرة على كشف سلوكهم وترجمة مبادئهم في شعرهم، أما أبو نواس ومن نهج نهجه، فكانوا في حاجة إلى مثل هذا الإرشاد وذلك التوجيه ، ولذا حاول بعضهم تقليد أبي العتاهية في شعره الديني على ذلك النحو الذي ردد منه أبو نواس :

إلهَنَا ما أعدَلَكْ	مليكُ كل من ملك
لبيكَ إن الحمد لك	والملك لا شريك لك
ما خابَ عبدٌ سألك	أنتَ لهُ حيث سلك

لولاك ياربِّ هلَكْ

لبيكَ إن الحمد لك	والملك لا شريكَ لك
كل نبيٍّ ومَلَك	وكلُّ مَنْ أهَلَّ لَك
وكلُّ عبدٍ سألكْ	سَبَّحَ أو لبَّى فَلَكْ
لبيك إن الحمد لك	والملك لا شريك لك
والليل لمَّا أن حَلَكْ	والسابحاتِ في الفلك

على مجارى المُنْسَلَك

لبيك إن الحمد لك	والملك لا شريك لك
يا مخطئًا ما أغفلك	عجِّل وبادِرْ أجَلَك

واختم بخيرٍ عَمَلَكْ (١٧٣)

فهو يردد معاني التلبية التي يأخذها الحجيج وسيلتهم إلى الله سبحانه في شعائر حجهم ، وإشارة إلى استجابتهم لأداء فرائضة في مواسم الحج، فراح الشاعر يصوغها

(١٧١) سورة النساء ٢٢٥. (١٧٢) سورة يوسف ٧٨.

(١٧٣) ديوان أبي نواس ٦٢٣.

على نهج صياغة أبى العتاهية مقرراً من حقائق العقيدة ما أداره حول العدل الإلهى والوحدانية المطلقة ، وإجابة المعبود تعالى لسائليه من عباده ، مستشهدا على الوحدانية بمعالم كونية من مشاهد الليل والنهار والفلك، متعقباً بذلك كله معانى كثير من الآيات القرآنية التى تحمل هذه الدلالات جميعها .

كما آثر أبو نواس أن يسلك طريق الحكماء حين عرض خلاصة رؤيته للناس بشكل قرَّبه من عالم الزهاد أيضاً فى مثل قوله :

ومـــــا النـاسُ إلا هـالِـكٌ وابـنُ هَـالِكٍ

وذو نَسَبٍ فى الهَـــــالكين عـــريقُ

إذا امـــتــحن الدنيـا لبـيب تكشَّـفَتْ

له عن عَــدُوٍّ فى ثِيَــابِ صَــدِيق [(١٧٤)]

وقد صحب صيغ التوحيد والتنزيه نتاجٌ طبيعى لها يتعلق بشكر أنْعم الله ، والتوجه بالسؤال إليه وحده، دون لجوء إلى أى من البشر، فكان الإيمان قرينا للشكر عند أبى العتاهية أيضاً فى مثل قوله:

ألا إن ربِّى قِــوِيٌّ مَــجِـيــدُ

لطيفٌ جليلٌ غنيٌّ حَــمِــيــدُ

تـريـدُ مِن اللّـه إِحْــسَــانَـهُ

فــيــعطيكَ أكــثــر مــمَّــا تُرِيدُ

ومَـنْ شكـر اللـه لـم يَـنْـسَـــهُ

ولـم ينْـقَـطـع عنـه منـه المَـــزِيـدُ

ومـــا يكفــرُ العُــرْفَ إلا شَــقىٌّ

ومــا يشكرُ اللهَ إلاَّ سَــعِــيــدُ [(١٧٥)]

---

(١٧٤) ديوان أبى نواس ٦٢١.

(١٧٥) شعر أبى العتاهية ١٠٦ - ١٠٧.

ولعله بدا بذلك وثيق الصلة بالسلوك الإسلامى القويم صلته بالآيات القرآنية التى التقط منها معانيه ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (١٧٦)

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (١٧٧)

وهو موقف وجد مجالاً طيباً على ألسنة زهاد العصر ممن رددوا نفس الصور تقريباً على نحو مما ذهب محمود الوراق فى قوله:

إذا كـانَ شُكرى نعـمـةَ الله نِعْـمَـةً
علىَّ له فى مِـثلهـا يجبُ الشُّكْرُ
فكيفَ بلوغُ الشكر إلا بِفَـضْلِه
وإنْ طالت الأيام واتَّصَلَ العُـمْـرُ
إذَا مسَّ بالسَّـراء عمَّ سُـرورُها
وإن مسَّ بالضَّرَّاء أعـقَـبـهـا الأجْـرُ
ومـا منهُـمـا إلا له فـيـه نعـمَـةٌ
تضيقُ بها الأوْهَام والبرُّ والبَحْرُ (١٧٨)

حيث يستمد أصول المسلك ومنطلقات الدعوة إليه من عمق المعانى القرآنية :

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ (١٧٩)

﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ (١٨٠)

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ .

---

(١٧٦) سورة لقمان.
(١٧٧) سورة لقمان ٣٢.
(١٧٨) كتاب الصناعتين لأبى هلال ٢٣٢.
(١٧٩) سورة الإسراء ٨٣.
(١٨٠) سورة البقرة ١٥٢.

ومن هنا يتخذ الورّاق سبيله إلى نشر الزهد فى محاولة جادة لإيقاظ كل غافل من غفلته، وإثارة الروح التأملية للمواقف فى نفسه، مما يدعمه بما يتناسب معه من القصص القرآنى كما يقول :

يا ناظراً يَرنُو بعَـيْنَى رَاقِـدٍ
ومُشَاهِداً للأمـر غـيرَ مُـشَاهد
مَنَّيْتَ نفسَكَ ضَلَّةً وأبحتَها
طُرُقَ الرَّجاء وهنَّ غـيرُ قَـوَاصِـدِ
تصلُ الذنوب إلى الذنوب وتَرتَجى
دَرَكَ الجِنان بها وفوزَ العَابِدِ
ونسيتَ أن الله أخرجَ آدَمًا
منها إلى الدُّنيا بذَنْبٍ واحِدِ [181] .

إذ ينطلقُ الرجل من منطق التعقل وتأمل الأمور والمواقف، آخذا من قصة آدم عليه السلام درجة عالية من العظة والاعتبار ، بمحض خروجه من الجنة لاقترابه من الشجرة التى حرَّمها عليه الخالق، حين استجاب لوسوسة إبليس، وكذا راح الشاعر ينذر أبناء آدم من غفلتهم ، وارتكاب الذنوب والمعاصي، ثم انتظار العفو والغفران، وكأنه – بذلك – إنما يسجل رفضا عنيفا يبطل كل ما انتهى إليه القائلون بالإرجاء من القول بإطلاق العفو الإلهي، مما أفسح المجال أمام الشعراء لطرح ما شاءوا من صور الفساد الأخلاقى تحت أمل انتظار ذلك العفو المطلق الذى أطلقوا حدوده إلى درجة استباحوا فيها ارتكاب كل الآثام فيما دون إعلان الشرك بالله .

ويتوج الشعراء مواقفهم الدينية بالتوجُّه إلى الله – سبحانه – بسؤالهم إياه سواء منهم من كان زاهدا أو حتى من عرف بمجونه ولهوه، مما نجد له نظيراً فى قول محمود الوراق أيضاً :

فـارغَبْ إلى مَلك الملوك ولا تَكُنْ
ياذا الضَّراعة طالباً من طالب [182]

(181) الكامل ١٠٦/٤.
(182) الموازنة ٧٣/١.

أو قول مسلم بن الوليد من أصحاب التيار الآخر (الماجن) :

أقــولُ لمـــأفُــون البـــديهـــة طائر
مـع الحـــرص لم يغنم ولم يَتَـــحـــوَّل

سلِ الناس إنى ســـائلُ الله وحــــدَهُ
وصــائن عـِرْضى عن فُـلانٍ وعَنْ فُلِ (١٨٣)

وبذلك كان لقاء الشعراء حول مائدة واحدة كان التناص فيها مع المعجم الإسلامى بصوره المختلفة ، صحيح أن درجات الأخذ قد تتفاوت بحكم تفاوت ملكات الشعراء ، ولكن اللقاء قد وقع – فعلاً – بحكم قدرة هذا المعجم على تعمق نفوسهم جميعاً فى عصر المتناقضات بين زندقة وزهد .

ومع تعدد الآراء ومع تباين الاتجاهات المذهبية ، وتنوع المواقف وتناقضها بين الفرق الدينية المختلفة ، راح فريق من الشعراء يرد الأمور الدينية إلى نصابها رداً بذلك على من تمرد عليها ، أو أسرف فى تأويل قضاياها، وخاصة ضد من قالوا بالاعتزال أو الجبرية، ففى مقابل ما سبق عرضه من هجاء بشار لعبد الكريم على زندقته نجد ردوداً على زندقة بشار نفسه ، وتفنيداً لما ذهب إليه من تفضيل النار على الطين ، وإبليس على أدم فى قوله المشهور :

إبـليسُ أفــــــضـلُ مـن أبـيكـم أَدَمٍ
فــتنبَّــهُــوا يا مـــعــشَــرَ الفُــجَّــارِ

الــنــارُ عــنـصُـــــــــره وأدمُ طِـيـنَـةٌ
والطِّين لا يســــمُـــو سُـــمُـــوَّ النَّارِ

أو قوله :

النَّارُ مُـــشْـــرِقَـــةٌ والأرضُ مُظْلِمَـــةٌ
والنارُ مـــعـــبـــودةٌ مُـذْ كـــانَت النَّارُ

---

(١٨٣) ديوان مسلم ٢٦.

مردداً بذلك ما حاول ترسيخه من فساد المذاهب الفارسية، وما ذهب إليه المجوس مما أسهم فى زيادة حس الزندقة عند بشار - مثلاً - بشكل ضاق به العصر، وتولى بعض شعرائه تفنيد ما ذهب إليه على نحو ما كان من جهم بن صفوان الأنصارى فى قوله :

زعـــــمتَ بـأنَّ الـنـارَ أكـــــرمُ عُنْصُـــــراً
وفـى الأرض تـحـيَـــا بـالـحـــجـــارة والزَّنْدِ
ويـخـلـقُ فـى أرْحَـــامـــهـــا وأرومـــهـــا
أعـــاجـــيبُ لا تُـحْـــصَـى بِخَطٍّ ولا عَـــقْـــدِ
وفـى القَـــعْـــر من لُجِّ الـبـــحـــار منافعٌ
مـن الـلـؤلـؤ الـمكنـون والـعَنْبـــــرَ الـوَرد
كـــذلك ســـرُّ الأرض فـى الـبـــحـــر كلِّه
وفـى الـغَــيْــضَـــة الـغَنَّاء والـجَـــبَل الـصَّلْدِ
فــــذلكَ تـدبـيـــــرٌ ونـفـعٌ وحِـكْـمَـــــةٌ
وأوضـحُ بُـرهـان عـلـى الـوَّاحِـــدِ الـفَـــرْدِ

فإذا هو يفحم بشارا، وينتصر عليه ، من منطلق تأمله وصدق اعتقاده الدينى ، مما يشهد فيه بقصة بداية الخليقة ، وعلاقتها بوحدانية الخالق وإرادته وتدبيره وحده ، وما جعل فى الأرض من منافع للناس يتأملونها ويتدبرونها وما طرحه فى البحار أيضاً من تلك المنافع المختلفة، ومنها استخدام النار لخدمة البشر، وكيف تحمل الأرض فى باطنها أسراراً لا يعلم خفاياها إلا خالقها سبحانه، ومن هداه إلى كشفها من البشر، وبذلك يفحم صفوان خصمه من منطق دينى لا يخفى فيه رصيده من المؤثرات القرآنية.

﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [١٨٤] .

﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ [١٨٥] .

---

(١٨٤) سورة فاطر ١٢. (١٨٥) سورة الرعد ٤.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ (١٨٦) .

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ (١٨٧) .

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ (١٨٨) .

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (١٨٩) .

وعلى هذا المنهج نفسه كان رد على بن الجهم على القاضى أحمد بن أبى دؤاد الذى تزعم الانتصار لمبادئ الاعتزال ، وقد عرضنا له آنفا، وكذا لقول على هادماً مبادئهم:

يا أحمدَ بن أبى دؤاد دَعْوَةً
بعثت إليك جنادلا وحديدا

ما هذه البدعُ التى سمَّيْتَها
بالجهل منك العدلَ والتوحْيدا

أفسدْتَ أمرَ الدين حِين وَلِيتَه
ورمَيْته بأبى الوليد وَليدا (١٩٠)

وهى أمور تكشف عن طابع الجدل والحوار، ورصيد التدين الذى ما زال كامناً فى البيئة العباسية ، وخاصة حين وُجد من أهل السنة من يدافع عنها، ويتولى دحض آراء أصحاب المذاهب التى ابتدعت فى الإسلام بدعا لا أصل لها ، إلا من تقديم العقل على الأدلة النقلية، والأخذ بالتأويل للآيات القرآنية ، وطرح القضايا من منطلق الأهواء التى لاتعترف بالأصول الدينية على ما كان فى سلوك بشار ونظرائه من زنادقة البيئة العباسية.

❋ ❋ ❋

---

(١٨٦) سورة إبراهيم ٣٢.
(١٨٧) سورة النحل ١٤.
(١٨٨) سورة النازعات ٣٢.
(١٨٩) سورة لقمان ١٠.
(١٩٠) ديوان على بن الجهم.

ويمكن أن نلحق بهذا الجانب الدينى ما دار من حوار بعض الشعراء حول الرسالة المحمدية، وتصوير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تبليغها وإرشاد المسلمين وإنذارهم ، وصحيح أيضاً أن الحياة العباسية قد شهدت جيلاً جديداً يختلف عن سلفه الصالح من الصحابة والتابعين فى أمور كثيرة، ولكن الذى لا يخفى - بدايةً - أن معالم التواصل قد استمرت بين هذه الأجيال لتربط بينها، ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن قائماً بين المسلمين فى هذا العصر إلا أن فريقاً من الشعراء ظل مشدودا بوجدانه الدينى إلى الماضى يستلهم منه ويستوحى المعنى والقيمة، ويعرض الصور حول رسالته عليه السلام ابتداء من الرغبة الجامحة فى أخذ العظة والعبرة من موت نبى الأمة وبشير الإسلام على نحو قول أبى العتاهية ناصحاً ومرشداً :

اصْبِرْ لكلِّ مُصِيبَةٍ وتجَلَّدِ

واعلَمْ بأن المرءَ ليس مُخَلَّد

وإذا ذَكْرتَ محمداً ومصابَهُ

فاذكُرْ مُصابَك بالنبيِّ محمدِ [(١٩١)]

إلى ما طرحه الشعراء فى نفس المستوى من الإيجاز حول دور رسالته عليه السلام فى إنقاذ الناس من الضلال ، على نحو قول عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير:

وقد أحكَمَ اللهُ آياته

وكانَ الرسولُ عليها دَليلا

وأوْضَحَ للمسلمين السَّبيل

فلا تَتْبَعنَّ سِواها سَبيلا [(١٩٢)]

(١٩١) شعر أبى العتاهية ١١١ .

(١٩٢) تأويل مختلف الحديث (لابن قتيبة) ٦٢.

وعلى نحو ما صوَّره أبو العتاهية من اصطفاء الله سبحانه رسوله عليه السلام فى قوله :

وأفـــضل هـدْيٍ هـدْىُ سَـــمْت مـــحـــمـــد
نــبــيٌّ تَـنَـقَّـــــــــــاهُ الإلــه لـديـنــه

عليـــه الســـلامُ كـــانَ فى النُّصحِ رَحْـمَـــةً
وفـى بِرِّه بـالـعـــــالـمـــــين ولِـيـنـه

إمـــامُ هـدى تنجــاب عن وجـــهـــه الدجى
كـــأنَّ الثـــريا عُلِّقَتْ بجـــبـــينه [١٩٣]

حيث يستقى مادته من تاريخ السيرة العطرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن وحى الآيات القرآنية التى حددت بعضاً من صفاته ، فأثنى عليه بها مولاه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيراً ﴾

وإذا بأبى العتاهية لا يتوانى عن البكاء كلما ألحَّت على ذاكرته الذكرى العطرة ، خاصة حين يقف أمام قبره عليه السلام بالمدينة المنورة، كاشفاً عما تبعثه الوقفة فى نفسه من معانى البر والتقوى قائلاً :

لِيَـــبْكِ رســـولَ الله من كـــان بَاكـــيـــا
ولا تنسَ قـــبـــرا بالمـــدينة ثَـاوِياً

جـــزى الله عنا كلَّ خـــيـــر مُـــحَـــمـــدا
فـــقَـــدْ كـــان مـــهـــديا دليـــلاً وهَادِيا

---

(١٩٣) شعر أبى العتاهية ١٠٢.

ولَنْ تَسْــــرِيَ الذِّكــــرى بمَنْ هُوَ أهلُه

إذا كنتَ للبِــــرِّ المُطَهَّـــر نَاسِيَـــا

أَتَنْسَى رســـولَ اللّه أفــضلَ مَنْ مَــشى

وآثارُه بالمـــســـجِـدَيْن كَـمـــا هِيَـا؟

وكـــــــان أبرّ النَّـاس بالـنـاس كلِّـهـم

وأكــرمَـــهُم بيـتــاً وشِــعْــبــاً ووَاديا

تكدَّر مـن بعــــد النبى مُــــحَـــمَـــد

عليـه سـلام الله مــا كـانَ صَافِـيـا [١٩٤]

فـهو يسلك أيضـاً سلوكاً دينياً فى صلاته وسلامه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾

ويعرض ما كان من هداية الله سبحانه له ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴾ وما كان بره عليه السلام بالناس ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهو ما ينطلق الشاعر على أساسه موحدا ومسلما ملتمسا العظة والعبرة من موته عليه السلام :

وكـــان رســـولُ الله أفـــضل من مـــشى

عـــلـــى الأرض إلا أنــــه لـــم يُـــخَـــلَّـــد

مردداً معنى الآية الكريمة ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ [١٩٥]

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [١٩٦] .

---

(١٩٤) شعر أبى العتاهية.

(١٩٥) سورة آل عمران ١٤٤.

(١٩٦) سورة الأحزاب ٤٠.

ومن العظة يذهب إلى توكيد إيمانه قائلاً :

شــــهــــدت عليَّ أن لا نبــــوةَ بعــــده

وأنْ ليسَ حيٌّ بعـــــده بمُــــــخَلَّـد

مردِّدا أيضاً من معانى آيات القرآن الكريم ﴿ إنَّ الدِّينَ عندَ اللَّهِ الإسْلامُ ﴾ ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١٩٧).

وقياسا على هذه المقدمات التى سجل فيها الشعراء ثناءهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان من دوره فى هداية العالمين راح أبو العتاهية يعرض النتائج من منطلق النصح والإرشاد مما دعاه إلى مخاطبة الناس بما كان من شأن رسالته عليه السلام وواجبهم فى الاهتداء بهديه :

يا بَنى آدم صُــــــونُوا دينَكُمْ

ينبــــــغى للدين ألاَّ يُطَّرَحْ

واحــــمــــدُوا الله الذى أكـــرمكُم

بنبىٌّ قـــــامَ فـــــيكم فنَصَحْ

بِنَبىٌّ فـــــــتحَ الله بــه

كلَّ خـــيـــر نِلْتُــــمــــوه وشَـــرَحْ

مُــــــرْسَلٌ لو يُوزن الناس بـه

فى التُّــقى والبـــر شَـــالُوا ورَجَح

فــــرســــولُ الله أَوْلى بالعُلَى

ورســــولُ الله أَوْلى بالمِــــدَحْ (١٩٨)

ومع عمومية المعانى الإسلامية التى طرحها الشعراء حول الرسول عليه السلام ورسالته الغرَّاء، توقف بعضهم طويلاً عند سيرته صلى الله عليه وسلم متأملاً الأحداث

---

(١٩٧) سورة المائدة ٣.

(١٩٨) شعر أبى العتاهية ١٠٠.

ومفصِّلا المواقف ، وعارضا من معجزاته عليه السلام ما يجدِّد به الذكرى، ويخلِّد به السيرة العطرة على نحو ما قاله قطرب :

إليكَ - رسول الله - منَّا تحيةً
وصلىَّ عليك العابدُ المتهجِّدُ

فأنت رسول الله هادٍ ومهتد
نبيٌّ هُدًى للأنبياء مُؤَيَّد

فلا يُقْبَل التوحيدُ إلا بذكره
ليقرنَهُ عند النِّداء المُوَحِّدُ

وما جاءَ يدعونا بغَيْر دلاَلة
ولكنْ بآيات تدلُّ وتَشْهَدُ

وسارَ إلى البيت المقدَّسِ ليلةً
مسيرةَ شَهْرٍ وارداً ليس يُطْرَدُ

يخبِّر بالعير التى فى طريقِه
لَيوُقن أهلُ الشِّرك ذاك فيَسْعَدُوا

فسؤدُدُه بالله إذْ كان وحيُهُ
إليه وهل فوق النبوة سؤدُد؟

فأوحى إليه اللهُ مِنْ علمه به
وقد كانت الأصنام إذ ذاك تُعْبَدُ

فأظهر بالإسلام دعوةَ صادق
فضلَّ له قوم وقوم به هُدُوا

حليمٌ رحيمٌ لَيِّنٌ مُتواضع
سخيٌّ حَيِّيٌ عَابِدٌ مُتَزَهِّدُ

وكـــانَ رســـــولُ الله فـــوقَ صِـــفَـــاتنا

يقـصِّـر فـيـهـا من يقـولُ فـيَـجْـهَـدُ [199]

فهو يستهل قصيدته بإهداء تحيته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مبيناً دوره فى هداية البشر ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ مستشهدا على ما ذهب إليه بمدائح حسان بن ثابت فى رسول الله عليه السلام :

وقـد قـال حـسـانُ - وفي الشِّـعـر شَـاهِدٌ -

تـجــــــــدِّدُهُ الأيـامُ يُـرْوَى ويُـنْـشَـــــــدُ

أغـــــرٌّ عليـــــه للنُّبــــوة خـــــاتَمٌ

من الله مـــشـــهـــورٌ يلوحُ ويَشْـــهَـــدُ

وأعطاهُ من لفظ اسْـــــمــــه ليُـــجِلَّه

فــذوُ العــرش مـحـمـودٌ وهذا مُـحَـمَّـد

ليتوقف عند اقتران اسمه بالتوحيد فى الأذان الذى هو شعار المسلمين، ثم يأخذ فى سرد معالم من معجزات رسول الله عليه السلام ومسيرته إلى المسجد الأقصى فى حديث الإسراء والمعراج ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [200] .

إلى ما كان من صدى دعوته وتوزُّع من الناس إزاءها بين مسلمين ومشركين، ليخلص من كل تصويره إلى التسليم بعجزه وعجز الشعراء معه عن الإلمام بصفاته عليه السلام ، إلا من منطق ذلك الإيجاز الذى أورده فى أسلوب الترصيع فى البيت قبل الأخير، ليجعل منه عليه السلام القدوة المثلى الذى تشرئب إليه أعناق المسلمين عجزاً عن التساوى بسلوك صاحبها عليه السلام .

(١٩٩) احياء علوم الدين ٢/٣٨٤.

(٢٠٠) سورة الإسراء ٢٠٠.

وبذلك ظلت المدائح النبوية تشغل جانباً من شعر العصر، فالتقطوا من الذكرى الطَّيِّبة ما أرادوا به بث روح الهداية والرشاد فى زحام حضارة المجتمع العباسى ومجونه، وكأنما وضعوا أمام خلفائه المثل العليا ، كما وجدوا المتعة فى رصد معالم تلك القدوة الحسنة فى عرض صفاته عليه السلام لإحياء سيرة سلف صالح استوقفته طويلاً تلك الصفات. فلم تعرف عنها انقطاعاً ولا توقفاً فى أى من عصور الأدب .

وعلى هذا النحو ظلت المؤثرات الإسلامية ممتدة مع العصر العباسى ووجدت لها تجليات واضحة على ألسنة شعرائه الكبار كما كان الأمر مع بقية عصور التاريخ الأدبى، فمع دواوين شعرائها تبرز صور متعددة ومكثَّفة من تلك المؤثرات - على تنوّعها - وكأنها تشهد استمرار هذا التيار كجدول ثقافى فرض نفسه على كل الشعراء، حتى من بدا منهم متَّهما فى تدينه ، أو من أشارت إليه أصابع الاتهام بضعف فى عقيدته أو شك فى جانب منها، ولذا كان التوقف عند هؤلاء الأقطاب الكبار فى العصر كفيلاً بكشف الحقائق وإماطة اللثام عن أبعاد المواقف ، وهو ما يؤكد ما انتهى إليه الأمر فى وقفتنا مع شعراء عصر بنى أمية.

ويبدو من الضرورى - بعد هذا التناول النصى - التوقف تفصيلا لتأمل ملامح هذه المؤثرات الإسلامية على النحو الذى عرضه شعراء العصر العباسى بشطريه الأول والثانى، إذ يظل من الظواهر التى يمكن رصدها بين طبيعة التأثير الإسلامى ونتائجه :

(١) أن الأخذ من هذا المعجم قد أسهم فى إيجاد صيغة من التوازن والتشابه بين كثير من شعر شعراء العصر ، فإذا بالشاعر يكرر الآخرين وربما كرَّر نفسه بين قصيدة وأخرى، ذلك أن ثمة معطيات بعينها بدأ الشاعر ترديدها أخذا من القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف ، أو من واقع السلوك الإسلامى العام، مع الاعتراف بضرورة وجود فروق فردية ظلت تحكم بيئات الشعراء حسب درجة القرب أو البعد عن السلوك الدينى ، وخاصة فى ذلك العصر الذى ظل يموج بصور من الاضطراب والقلق السياسى .

(٢) أن المؤثرات الدينية قد طرحت فى شكل مباشر لدى فريق من الشعراء وخاصة منهم أبناء بيئة الزهد . وعندهم وردت المعانى أكثر كثافة، وأشد عمقا، حتى رسم بعضهم منها لوحات فنية متكاملة، على النحو الذى أبرزه أبو العتاهية حين علق فنه التصويرى والتقريرى - فى معظمه - بمشاهد القيامة ، فقصد إلى الإطالة فى عرضها، وأكثر من تفاصيلها على مستوى القصيدة والمقطوعة. وفى مقابل هذه التأثيرات المباشرة

وجدت مؤثرات أخرى لم تظهر بنفس الأسلوب ، بقدر ما وجدت سبيلها من خلال الدوافع التى حدت بشعراء العصر فى كل البيئات إلى النظم فى موضوعات كشفوا فيها حقيقة مواقفهم، وأظهروا طوابع انفعالاتهم على نحو ما كان من أبى تمام فى فتح عمورية أو صلب الأفشين، وأيضاً على نحو ما عرضه الشعراء من صور ولوحات حربية سجلت المعارك الكبرى، ووثقت تاريخ العصر، وأكدت على الجانب الدينى فى معاركه ، فكانت الانتصارات إسلامية ، وكذلك دوافع الخلفاء إليها ، الأمر الذى أدى إلى حرص الشاعر على الإفادة من المعجم الإسلامى دعما لموقفه، ورغبة منه فى تأكيد ما يذهب إليه على المستويَيْن الانفعالى الذاتى، والانفعالى الجماهيرى لدى المتلقين .

(٣) أن معظم شعراء العصر ممَّن أفادوا من المعجم الإسلامى قد خاضوا بشعرهم موضوعات حربية مع خصوم الدولة من الخارج فى مناطق الثغور بشكل أكثر كثافة مما كان عليه الحال فى عصر بنى أمية . ذلك أن شعراء العصر الأموى قد شغلهم من واقعهم السياسى صراعات الأحزاب وما بين أقطابها من شقاق ، وانصرفوا إلى الصراعات الداخلية بين الفرق السياسية والدينية ، مما أسهم بدوره فى إقحام الشعراء فى معارك جدلية وكلامية ، ولكنه فى هذا العصر – أى العباسى – راح يتسع لتصوير معارك الخلافة العباسية مع الروم ، وكذا إلى تصوير موقف الخليفة ممن يمكن أن يمثل عليه خطراً من قادة جيوشه ، وكلها أمور أفسحت مجالات أكثر رحابة لطرح الكثير من معانى المعجم الإسلامى خضوعاً من الشعراء لمنطق حياة العصر ، واستجابة لمعطيات واقعه، وما حتمه من صراعات سياسية على مستوى العلاقات الخارجية مع الأمم المجاورة، فقد أدى منطق العداء الحربى إلى تركيز الصور حول مقارنات بين إسلام الدولة العباسية ، وبين وثنية الروم ونصرانيتهم وكفرهم فى كثير من لوحات كبار شعراء العصر خاصة فى رومياتهم .

وقد دفع هذا الموقف الحماسى الشاعر العباسى إلى تحويل كل الأبعاد الحربية للمعارك من هذا الجانب الدينى على مستوى الدوافع التى تحدو بخليفة المسلمين إلى الخروج غازيا، أو منتقما لعروبته ودينه ، وفى كلٍّ كان يبدو مدافعاً عن الدين، وكذلك على مستوى الحس الانفعالى الذى لم يتورع فيه الشاعر أن يكشف روح التشفِّى من جانبه، والرضا بما أصاب جند معسكر الشرك، الأمر الذى لا يبرر أيضاً إلا من هذا المنظور الدينى ، وهو ما تكتمل صورته بشكل تام حين يتوقف الشعراء عند تصوير نتائج تلك

الحروب، وما كان حظ الإسلام والمسلمين من النصر ، وما حدث من تحطيم أركان الشرك وإذلال أهله ودعاته .

(٤) أن المعاني التي وقع عليها حس شعراء العصر - وقد شخصتْ في ذاكرتهم- ارتباطا بهذا المعجم الإسلامي لم تعرف تخصُّصا مَوْضوعيا، صحيح أنها وجدت سبيلها إلى الكثرة والكثافة في بيئة الزهاد وأصحاب القصص الديني ورجال الوعظ والإرشاد، وهذا طبيعي ، ولكنها لم تكتف بتلك المجالات في سيادتها ، بل راحت تفرض نفسها على ألسنة الشعراء من ذوي الاتجاهات المختلفة حتى من غير المتدينين منهم. إذ شاعت لديهم الزندقة واللهو، وجاءت تلك المعاني الإسلامية مؤشرات للتوبة أو تأمل لحظات الندم المؤقتة التي اصطنعها الشعراء أحياناً كثيرة، كما جاءت مكثَّفة في مدائحهم للخلفاء في معظم الأحيان، ومن ثم لم يعرف المعجم الإسلامي تخصصا بعينه لدى شعراء العصر. بقدر ما وجد انتشاره وسيادته عامة، مما يكشف عن حقيقة هامة مؤدَّاها أنه أصبح جزءا من كيانهم الفكري بحكم نشأتهم جميعاً - تقريباً - في ظلال الدين، وبين أيدي المفسرين ومدارس الرواة، مما طبع عقلية الشاعر بطابع ديني يصعب إغفالة أو التنكر لدوره ، قد يتخذ منه سلوكاً، أو ربما ينفر منه ، ولكنه حتى مع هذا النفور لم يستطع إلا أن يدين له بكثير من الولاء، ويقر بعجزه عن التخلص منه كتراث عميق وعريق ملأ عليه جوانب من كيانه لا يستطيع إسقاطها من حسابه بحال.

(٥) أن ثمة تأثيراً واسعاً قد ظل سائداً من جرَّاء الانقسام المذهبي بين أصحاب الفرق المختلفة، فما زالت المعتزلة تحرك بعضاً من كبار الشعراء بأصولها الخمسة ، وبما لجأت إليه من أدلة عقلية وحوارات فكرية أخذت فيها بمبدأ التأويل ، وكذلك كان ما بقي من قول أصحاب الجبر برؤيتهم للسلوك الإنساني بناء على تأويلاتهم لآيات قرآنية منتقاة لتأكيد نفس الصنيع الذي أخذ به القدريون والمرجئة ممن شغلوا أنفسهم بإعمال الإرادة البشرية، أو تعطيلها ، فشغلتهم قضية الجزاء وعلاقتها بطبيعة عمل الإنسان . ويظل لافتاً للنظر أن كثيراً من شعراء العصر قد راحوا يروِّجون لفلسفة الإرجاء عجزاً منهم عن التخلص من أوشاب الحضارة المادية الطاغية على البيئة ، فحاولوا نشر القول بالعفو، ولذا راح شعراء الزندقة - بالذات - يعبثون بالقيم والعبادات ويجاهرون بالمعصية، ويعلقون جرائمهم على القول بالإرجاء ، مما أشاع الكثير من صور الفوضى في العلاقات الاجتماعية. إلا أن هذا كله لم يؤثر كثيراً في صدى التراث الديني الذي ظلت له صلابته

وقوته ، فلم يحجب معجمه عن شعر أبناء هذا الاتجاه، فما زالت الأصداء الدينية عالقة بأذهان الشعراء، بحكم ثقافاتهم المتعددة فى ظل الدين والثقافة التراثية ، وما زال الشاعر منهم يلتقط من أعماق ذاكرته ما يؤكد موضوعه من معانى الآيات، أو مواقف الفرق التى ينتمى إليها، فيطرح ما يقتنع به بين ثنايا الأبيات تقريراً أو تصويرا، وما زال أكثر الشعراء يكشف صوره من خلال تلك العناصر الإسلامية، خاصة حين يتقدم مادحاً بين يدى خلفاء المسلمين، وإن كان بعضهم قد تورط فى التردد حول المذهب الدينى تبعاً لظروف الخلافة على المستوى الرسمى ، وخاصة حين يستعد الشاعر ليأكل على كل الموائد، حتى لو غيَّر مذهبه على نحو ما حدث من البحترى فى تورطه بين الاعتزال وأهل السنة حين هجاهم قائلاً :

يرمـــون خــــالقــــهم بأقـــبح فـــعلهم

ويحـــرفـــون كـــلامــــه المـــخلوقـــا

وكأنه شاء أن يرضى الخليفة الواثق بالقول هنا بخلق القرآن ، ومع عصر المتوكل وانتصار أهل السنة تراه يتحول إلى مذهب الخليفة ويظل شاعره الأول .

(٦) ظل هذا المعجم الإسلامى قائماً على تنوع الأخذ وتعدد صوره مع توحد المصادر واتساع دائرة الإفادة منها مما يكشف عن حقيقة أخرى مؤداها أن التحول الاجتماعى الذى أصاب بنيان الحياة العباسية وبدا شديد الخطر عليها لم يستطع إلا أن يتوازى مع التيار الدينى الذى انتشر على ألسنة الشعراء عبر كثير من موضوعات النظم لديهم؛ صحيح أن درجة الاقتناع بما يقولون قد تتفاوت . ولكنهم - على أى حال - لم يستطيعوا أن يديروا ظهورهم لهذا المعجم ، على الرغم من ازدحام البيئة بالمذاهب الفارسية وكثرة من مناظرات أهل الملل والنحل، ممن اتخذوا من الجدل سبيلاً إلى طرح القيم التى قصدوا إلى نشرها سواء فى ذلك أصحاب الديانات السماوية، أو أهل المذاهب الفارسية، ممن قاموا بالدعاية لها أملاً فى الارتقاء بها إلى درجة الديانات - ولم تكن كذلك بالطبع - ونشرها بين شباب العصر من قبيل الرغبة الصارخة فى التشفى من المسلمين والعرب ، فكان الحس الشعوبى واحدا من الدوافع الكبرى للاستمرار فى هذا الاتجاه المضاد للإسلام.

(٧) أن الطابع الدينى ما زال مسيطراً على الشكل الرسمى للدولة، وما زال خلفاء بنى العباس شديدى الحرص على إسلامهم، ففى مقابل قيام الخليفة بالخطابة الدينية فى المسلمين راح ينشر شرطة الزنادقة التى تتعقبهم ، وتحاول إحباط محاولاتهم للعبث بالدين، وتزج بهم فى سجون خاصة أعدت لمن تثبت عليه منهم تهمة الزندقة بعد محاكمته وثبوت تورطه فى الهجوم على قيم الدين ، أو محاولته نشر مذاهب فارسية قديمة على حساب القيم الإسلامية على غرار ما كان مطيع بن إياس حين أعلن فى محاكمته أنه لا يؤمن إلا بما عاينه أو عاين مثله، وكأنه يصرح بزندقته التى علمها ابنته حتّى تصورتها دينا حين زج بها إلى المحاكمة فقالت (هذا دين علمنيه أبى).

والحقيقة التى تحمد للخلافة العباسية أنها سارت - فى معظم الأحوال - فى خط منضبط - إلى حد ما - فى هذا الاتجاه على عكس ما كان من الخط المائل الذى ارتضته من جانب الموالى حين أصابوا من عروبة الدولة الكثير ، فجعلوا العربية مصدراً لسخريتهم وتهكمهم من العرب وتحقيرهم العصبية العربية ظلما وبهتاناً، وبذا راح بعضهم يطرح من صور الحضارة المادية مانسبة إلى الجنس الفارسى ما أساء إلى عروبة الدولة العباسية ذاتها حتى دفع الموقف الجاحظ إلى وصفها بأنها دولة « عربية فارسية » . ففى مقابل إنصات خليفة كالمهدى إلى شتائم بشار فى حق العرب والعروبة نجده لا يتوانى عن تعقب بشار ورصد سلوكه الغزلى الفاحش حيث راح ينهاه عن الاستمرار فيه ، وأخذه بالشدة كما أخذ - بنفس الشدة - من تكشفت زندقته من شعراء العصر، وإن كانت الحقيقة التاريخية تظل عاجزة عن تصور خلاص العصر من الزنادقة ، ذلك أن تعقب قلة منهم لم يكن كافياً للقضاء على كل صور الفساد التى نشروها بين كثير من شباب العصر.

(٨) أن تيار الذاكرة الفاعلة ما زال يجتذب بعض شعراء البيئة الحضارية ، حتى يكاد يعزلهم - مؤقتاً - عن حس الحضارة المترفة، فما زال بعض الشعراء شديد التمسك بالماضى والتنقيب فيه عن أخبار القدوة الحسنة والسلف الصالح من قبيل الاعتزاز بالسير التاريخية، وما التصق بها من حس دينى قويم قوّم السلوك وهذبه وعدّله ، ووضع الأسوة الطيبة أمام الأجيال التالية ، وربما استهدف شاعر العصر منه وضع القدوة أمام الحاكم فى حركة إحياء رائعة لسلوك دينى يشيع وسط تيارات الترف والحضارة ،

وينحصر نجاحه في معيشته بينها لا القضاء عليها ، وربما ذهب جانب من هذه التيارات في تسجيل الحنين وإسقاط حالات من الوجد على الجانب الدينى فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو موقف استغله بعض الشعراء بخبث شديد على الصعيد السياسي. على نحو ما اصطنعه بشار من عرضه لطابع المشاركة الفارسية فى الانقلاب العباسي جاعلاً الغضبة الفارسية من أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم والدين الإسلامى :

حتى رددنا الملك فى أهل النبى العربى
نغضب لله وللإسلام أسرى الغضب

متجاهلاً أن الحكم لم يخرج من إطار العروبة ، وموهما بأن غضبة الفرس كانت من أجل الإسلام ، وكأن الإسلام كان فى انتظارهم ليدافعوا عنه، وهم أساس الزندقة المذهبية، ولكن أكثر المواقف التى أدارها الشعراء حواراً وتصويراً جاءت حول سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى مواقف سارت فى ذلك الاتجاه من الوجد والحنين والاقتداء فى مواطن الذكريات ، وخاصة ما شاع لدى بيئة النساك ، والوعاظ، والقصاص والزهاد ممن اتخذوا من سيرته عليه السلام مادة دينية طيبة أشاعوا فيها من الحس الإسلامى صوراً مختلفة أرضت وجدانهم ووجدان شباب العصر معهم .

(٩) أن التاريخ الإسلامى ظل معيناً طيباً لا ينضب ولا يكاد أمام الشعراء ينهلون من أحداث ماضيه منذ عصر المبعث، وخاصة أن التواصل التاريخى ما زال قائماً يكشفه ذلك التشابه بين الأحداث الجسام التى وقعت بين المسلمين والروم ، مما دفعت إلى وجود امتداد لحركة الجهاد الإسلامى التى وضع أصولها الرعيل الأول قبل الانقسام الداخلى الذى شهدته الدولة الأموية، وبدا تزاحم الشعراء على هذه المادة التاريخية بمثابة دعم دينى من طراز متميز للصور الحربية التى عرضوها بما يكفى لكشف السياسة الدينية للخليفة العباسي وخاصة مع الروم وحماية مناطق الثغور.

(١٠) أن محتوى القصيدة العباسية كان أكثر قدرة على احتواء الكثير من معالم المعجم الإسلامى ، ولذا فإن التحول الذى أصابه بدا أشد وضوحاً عما أصاب الشكل الفنى للقصيدة، وعلى أية حال فإن شعراء العصر قد أخذوا من التراث القديم شكله فأثبتوا له الولاء، وكذلك أضافوا من المعجم الإسلامى ما سجل انتماءهم إلى تراثهم

الدينى بنفس الدرجة من العمق والعراقة ، بدليل ما رأيناه من حرص بعضهم على استقصاء المعاني الدينية التي استوعبتها ذاكرته عبر المصادر المختلفة، على نحو ما بدا من تركيز على معاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والعبادات والشعائر مما يوحى بمدى الثقافة التى التقطها الشاعر وتوقف عندها طويلاً من تلك المصادر الدينية .

ولم يكد الشاعر العباسى يترك فرصة لاثبات ولائه لمذهب ما إلا وطرح جوانب من فكره وأساليب معالجة هذا الفكر على نحو ما رأيناه فى سينية على بن الجهم، وما يتراءى عكسها فى جدل ابن الرومي، وقد كشف تأثره بالاعتزال سواء فيما طرحه من مادة فى شعره، أو ما تأثر به فى منهج الصياغة ولغة الاستقصاء والإطالة التى لم نر لها نظيراً فى القصيدة العربية قبله ، حتى تحولت إلى ظاهرة تعم ديوانه ، ويتسم بها شعره .





الفصل الرابع

فى شعر الحروب الصليبية

١ - أصداء روميات العباسيين .

٢ - خصوصية دائرة الفضيلة الإسلامية .

٣ - إحياء تاريخ الجهاد الإسلامى .

٤ - تيار الزهد ومنطق التصوف .

(١)

وتواصل حلقات التاريخ الحربى للمسلمين مسيرتها ، وتزداد حاجتهم إلى الجهاد الدينى ، كما تشتد إليه دوافعهم خاصة حين تهدد مقدساتهم بجحافل الغزو الصليبى ، وإذا باليوم يعيد ماشهده الأمس من تلك السير الحربية على مستوى الدوافع ، وضرورة خروج المسلم مدافعا عن دينه وأرضه وعرضه ، وفى موازاة ما التمسناه سريعا من أحداث التاريخ بين العرب والروم فى العصر العباسى ، وما عكسته الصراعات وصور النزاع التى لم تكد تنتهى أو تهدأ إلا من خلال معارك وحروب دامية طال أمدها ، بسبب استمرار المحاولات العدوانية من قبل الروم أملاً فى انتهاك حرمات المسلمين ، كان ما جاءت به الحروب الصليبية مما زاد من حجم تلك الضرورات ، وتضخَّم فى سياقها شأن تلك الدوافع ، فانبرى شعراء الإسلام يستلهمون المعجم الدينى فى الدفاع عن قداسة دينهم وأراضيهم ، وكأنهم حين أداروا وجوههم للتاريخ وجدوا فيه رصيدا طيبا يتعرض لنفس الاتجاهات التى ذهبوا إليها ، ومن ثم كان لشاعر مثل أبى تمام أثره ومكانته فيما صاغه شعراء العصر من شعر حول قداسة الحرب من خلال الطابع الدينى الذى شاع فيها ، فالتحمت الصور التراثية بين تأثير أدبى وإسلامى لم يجد شعراء العصر حرجا فى كشف تأثرهم به على نحو ما نظمه ابن القيسرانى فى بائيته التى لم يخف فيها إعجابه الصريح بمنهج أبى تمام فى بائيته المشهورة حول فتح عمورية ، ويقول فى مطلعها على نفس المستوى الاستهلالى الذى عرضه أبو تمام ، وإن حوره ليتسق مع طبيعة الموقف :

هذى العزائمُ لا ما تَدَّعى القُضُبُ
وذى المكارمُ لا ما قالَتِ الكُتب[١]
وهذه الهممُ اللاَّتى متى خُطبت
تعثَّرت حولها الأشعارُ والخُطَبُ

---

(١) كتاب الروضتين ٥٩/١.

ويراجع تحليل هذا النص فى كتابنا « المعارضات الشعرية : أنماط وتجارب » .

وفيها يتوقف طويلا عند تصوير المعركة وكشف أبعادها :

أغـرت سـيـوفُك بالإفـرنج راجِـفَـةً
فـؤادُ روميـةَ الكبـرىَ لهـا يَجِبُ

ضـربْتَ كَبْشَـهمُ منهـا بقـاصِـمَـةٍ
أوْدىَ بهـا الصَّلْبُ وانحطّت بهـا الصُلُبُ

غَـضِبْتَ للدين حـتى لَمْ يَفُـتْكَ رِضىً
وكـانَ دينُ الهـدى مـرضـاتُه الغَـضَبُ

طهَّـرْتَ أرضَ الأعـادى من دِمَـائِهِمُ
طهـارةً كلُّ سـيف عندها جُنُبُ

حـتى استطارَ شـرار الزَّند فـارحـة
فـالحـربُ تُضْـرَم والأجَـال تُحْـتَطبُ

والخـيلُ من تحتِ قَـتـلاها تُقـرُّ لهـا
قـوائمُ خـانَهُنَّ الركْضُ والخَـبَبُ

والنقعُ فـوقَ صِقـال البـيض مُنْعَـقِـدٌ
كـمـا استـقلَّ دخـانٌ تحـتَـهُ لَهَبُ

والنَّبْلُ كـالوَبْلِ هـطَّالٌ وليسَ لَهُ
سِوَى القِسيِّ وأيْدٍ فـوقَـهـا سُـحُبُ

خـانُوا فـخـانَتْ رمـاحُ الطَّعْن أيديَهمُ
فـاسـتـسلمـوا وهْيَ لا نبعٌ ولا غَـرَبُ

كـذاك من لم يُوَقِّ اللهُ مـهـجَـتَـهُ
لاقىَ العِـدى والقَنَا فِى كـفِّـه قَـصَبُ

فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذِى لَجَبٍ

يُوليك أقْصَى المنى فالقدسُ مُرْتقِبُ

وائْذَنْ لَموْجِك فى تَطهير سَاحِله

فإنَّما أنت بحرٌ لُجُّه لَجِبُ

إذ يبدو الشاعر وقد زاوج فى مطلعه بين فلسفة أبى تمام وفلسفة المتنبى ، خاصة حين جمع بين منطق القوة وسداد الرأى وقوة الهمم والعزائم ، فرفض ما قالت الكتب على نحو ما رفضه أبو تمام من كتب التنجيم ، مع مزيد من تعميم الصورة عند ابن القيسرانى الذى أخذ أيضا بما انتهى إليه أبو الطيب فى التركيز على سداد الرأى والحزم :

الرأىُ قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهى المحل الثانى

فإذا هما اجتمعا لنفس مرة

بلغت من العلياء كل مكان

ولكن الشاعر – مع ذلك – يتلمس خطى أبى تمام بحذر وحرص واضحَيْن فيأخذ بنفس المنحنى التصويرى لجوءا إلى التشخيص ، واعتمادا على الإكثار منه وتصويراً للأبعاد الدينية التي يسقط فيها الصليب سقوط عمود الشرك عند أبى تمام :

حتى تركتَ عمودَ الشِّرْك منقعرا

ولم تعرِّجْ على الأوْتَاد والطُّنبُ

جاعلا غضبةَ القائد من منطلق غَيرْته على دينه على النحو الذى سجله أبو تمام للمعتصم أيضا :

تدبيرُ معتصم بالله منتقم

لله مرتقب فى الله مرتغب

وفى تصويره للطهر والجنابة تعلقا بالسيف ما أحسبه إلاَّ متشبثا بصورة أبى تمام التى خلعها – تشخيصًا – على يوم عمورية :

تصــرَّح الدهرُ تصــريحَ الَغــمــام لهــا

عن يوم هيـــجـــاءَ منهـــا طاهرٍ جُنُبِ

وهكذا كان مشهد الدخان واللهب إذ يكاد يردد فيه ما صوره أبو تمام من لوحة حريق المدينة ، وكيف انقلبت فيها نواميس الكون على غير عادتها :

حــتىَّ كـــأنَّ جـــلابيبَ الدُّجَى رغـــبت

عن لونهـــا أو كـــأنَّ الشـــمسَ لم تَغِبِ

ضـــوءٌ من النَّار والظلمـــاءُ عَـــاكِـفَـــةٌ

وظُلمـــةٌ من دُخـــانٍ فى ضُـــحًى شَـــحِبِ

ومن نفس المنظور يأتى مشهد النبع والغرب على نفس النهج البدوى الذى كنَّى به أبو تمام عن تفاهة أقوال المنجمين ورفض الاعتداد بها لأنها «ليست بنبع إذا عدت ولا غرب».

كما يلتقط الشاعر مشهد المدح الحربى التى ضخَّم فيه أبو تمام مكانة المعتصم بالله حتى جعله جيشا بنفسه وحدها ، فكان كذلك حال القائد المسلم حيث بدا بحراً لجبا يخيف خصومه ، بل لعله التقط المشهد من أبى تمام أيضا حين رفض أموال تيوفيل ، أو ما برز ثقة الشاعر من ذلك الرفض إذا ما عرضت عليه :

غَـــداَ يُصَـــرِّفُ بالأمْـــوَال جِـــرْيَتَـــهـــا

فـــعـــزَّهُ البـــحـــرُ ذوُ التَـــيَّـــارِ والحَـــدَبِ

فمما لا شك فيه أن المعجم الإسلامى قد بدا عاملا مشتركا قرَّب بين الشاعرْينَ على مستوى المنطق الانفعالى ، وارتباطًا بطبيعة الدوافع والتغنِّى الصادق بالفتح ، والتركيز على حركة الجهاد الدينى ضد الشرك وأهله ؛ الأمر الذى جعل الموقف الفنى يبدو مكررا بينهما ، بل ربما كانت المشابهة بين الحروب دافعا هاما إلى هذا التكرار الذى نجد له أكثر من نظير على نحو ما ظهر عند الشهاب محمود الحلبى من وحى عمورية أبى تمام أيضا ، حيث صور استيلاء الأشرف خليل على مدينة عكا فى بائيته المشهورة ومطلعها :

الحـــــمـــــدُ للّه ذلّتْ دولةُ الصُّلب
وعـــزَّ بالتُّـــركْ دينُ الْمُـــصطفى العَــربى

وفيها يقول :

مـــا بعــدَ عكًا وقــد هُدَّتْ قَــوَاعِــدُها
فى البـحــر للشــرك عند الله من أرب
لم يبقَ من بعـــدها للكفـــر إذ خَـــرِبَتْ
فى البر والبحر مـا يُنجى سـوَى الهَرب
يا يومَ عكا لقــد أُنسْـيت مــا سبَـقَت
به الفـتــوحُ ومـــا قَــدْ خُطَّ فى الكُتُب
أغـضَـبْتَ عُـبَّـاد عـيسى إذ أبَدْتَهُمُ
للّه أىُّ رضـىً فى ذلـك الغَـــــضَـبِ
وأشرفَ المُصْطفى الهادى البشيرُ على
مـــا أسلفَ الأشـرفُ السلطانُ من قُــربِ
فـانهضْ إلى الأرض فـالدُّنيـا بأجْـمَـعِـهـا
مَـــدَّت إليك نواحـــيـــهـــا بلا تَعَب[٢]

حيث يصوغ معجمه الدينى من تلك المادة المزدوجة بين حمده لله ، وثنائه على دين المصطفى العربى ، ورضى الله تعالى ، وإشراف الهادى البشير ، وإشراقة الدنيا المسلمة ، فى مقابل المشهد المناقض لكل هذا لدى أهل الشرك والكفر ، وغضب عباد عيسى ، وما ألصقه بهم من الفرار ، وما استوقفه من فتح عكا وقد هُدَّت قواعدها على حد تصويره .

وحين تستوقفه حصانة المدينة وصلابتها يكشف مكانتها الأولى قبل الفتح على غرار ما كان من مكانة عمورية عند أبى تمام فى لوحاته التى رسمها لها قبل الحريق ، ثم

(٢) كنز الدرر ٨ / ٣١٥ .

فى أثناء الحريق ثم بعده ، فعبر هذه الأبعاد الزمنية المتنوعة تبدو عكا فى ماضى حصانتها قلعة قوية ، أسوارها وساحتها ، إلى أن تزاحمت عليها المجانيق واندفع إليها النبل من كل جانب :

سُوران بَرٌّ وبحرٌ حول ساحتها
داران أدناهما أنْأى من القطب
خَرْقاءُ أمنعُ سُورَيْها وأحصنُه
قلبُ الكماة وأقواهُ على النُّدَب
مثل الغَمامة تَهْدى من صَوَاعِقها
بالنَّبلْ أضعافَ ما تَهدى من السُّحُب
كأنَّما كلُّ بُرج حولَهُ فَلَكٌ
من المجانيق ترْمى الأرضَ بالشُّهب

ثم يركز الشاعر عدسته الفنية على طبيعة الحصار ، وما يبثه فى وجدان المسلمين من حس القوة والمنعة :

وجِئْتَها بجُيوشٍ كالسُّيول على
أمثالها بين آجَام من القُضُب
وحُطْتَها بالمجَانيق التى وقَفَتْ
أمامَ أسْوَارها فى جَحْفل لجب
ورُضْتَها بنُقوب ذلّلت سُهُما
منها وأبدَتْ مُحَيَّاها بلا نَقَب

وكأن الشاعر يتوقف طويلا متأمِّلا معجمه ، منتقيا منه ما يتسق مع إيجابيات الفتح باعتباره فتحا دينيا أيضا أسعد المسلمين جميعا ، فراح يرصد للدين عزته ، ذاكراً رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو «المصطفى والهادى البشير» ومضخِّما من حجم الفتح ومكانته على نحو ما كان من «فتح الفتوح» عند أبى تمام ، وعارضا من صور

المشركين وقسمات ديارهم ما أصابهم من الذل والانهزام والخراب على أيدى جند المسلمين . ولا يخفى هنا - بحال - ما اقتفاه الشاعر من أثر أبى تمام عبر تلك اللوحات المتنوعة ، وكأنه وضع ملامح الصورة بين عينيه ليتتبع الخطى ، فيرسم على منوالها نسيجا جديدا للفتح ، بدا دينيا وحربيا معا من منطلق ذلك العرض الدقيق لحصانة المدينة، ثم تصوير ما أصابها على أيدى المسلمين من دمار وإبادة .

ويظل واضحا حرص شعراء المسلمين على تصوير أحداث الحروب الصليبية صدوراً عن روح دينية خالصة ، أسهمت فى جذب فريق من الشعراء إلى سيرة السلف الصالح من قبيل الفخر بعزة الإسلام ، خاصة حين ترتفع راياته ، وتتحطم فى مقابلها رايات الشرك ، وتتهاوى أعمدته ، وتتدهور أسسه ، وكأن الشاعر العربى بدا - أنذاك - شديد الاعتزاز بالماضى ، يلتمس من خلاله الأشباه ، ويستمد الحماس ، بل ربما أدار معظم فخره من حوله باعتباره من أغلى ممتلكاته على الصعيدَيْن الدينى والأدبى معا :

فعلى الصعيد الدينى يبدو التبارى قائما بين الشعراء فى إبراز لوحات الجهاد الإسلامى مفعمة بالمعانى والصور والألفاظ التى استوحاها الشاعر المسلم من عمق حسه الدينى ، بحكم استيعابه له من ناحية ، وبحكم طبيعة الدوافع الدينية للمسلمين عامة للذود عن بلادهم ودينهم وحماهم من ناحية أخرى .

وعلى الصعيد الأدبى راح الشعراء يلتقطون من المشاهد والصور الموروثة ما يتسق مع طبيعة المواقف الحربية الجديدة ، فوقعت أعين الشعراء على انتصارات رائعة للعرب المسلمين ، حققوا فيها جل طموحات أبناء المجتمع الإسلامى فى حروبه العاتية مع مدرسة الشرك ، وكأنما وجد الشعراء فى بائية أبى تمام فى فتح عمورية على يد الخليفة المعتصم بالله نموذجا رائعا يستحق التوقف والتأمُّل ، بل يستحق التقليد والمحاكاة ، مما أسهم فى تزكية انتشاره بينهم كقاسم مسترك علُّوا منه ونهلوا بلا وجل أو حرج ، وكأنما أدركوا ضرورة ذلك التواصل التاريخى الدقيق بين الانتصارات الإسلامية واستحسنوه ، وتوقفوا طويلا عند دوافع أبطال المسلمين إلى خوض غمار حروبها ، إذ تبدت تلك الانتصارات رموزا أبدية لانتصار الدين الإسلامى ، مهما تعددت العصور ، واختلفت القيادات ، أو تعددت أسماء القادة أو توالت عصور الخلفاء أو الفاتحين .

وعلى هدى من تلك الأسس أدرك شعراء الجهاد حقيقة دورهم من خلال شديد اعتزاز بتراثهم العريق ، فكانت للمعارضات الشعرية - هنا بخاصة - وجاهتها أخذا من

لوحات الماضى بما يزيد من جمال الحاضر وورنق صوره ربطا بذلك بين كل الملامح الإيجابية لما كان الشعراء بصدده من تلك الأحداث الكبار . على أن بائية أبى تمام لم تكن المصدر الوحيد لإلهام شعراء جيل الحروب الصليبية أو غيره ، بل تعددت لديهم المصادر ، ولمعت عندهم من صور الحروب ما سجلها وزاد من توثيقها تاريخيا ، فأتت جدة المعالجة بارزة فى التعامل الفنى مع موضوعات تقليدية ، على نحو ما هو معروف فى فن المدح . على أن شاعر العصر لم يكن يقف جامدا عند حدود الدوائر المدحية من المنظور التقليدى ، بقدر ما حرص على عرض كثير من القيم الإسلامية التى تعطى الموقف عمقا دينيا وأبعادا روحية متميزة ، وإن بدا الشاعر فيها حريصا على إثبات ولائه لأقدم الصور التراثية من حيث الشكل الفنى للقصيدة ، ولهذا النموذج الفنى صور كثيرة تغص بها دواوين شعراء العصر من مشهوريهم ومغموريهم على السواء ، ولذا يبدو الاختيار هنا لمجرد تسجيل ظاهرة طمح فيها شاعر العصر إلى إثبات ولائه للتراث العربى بوجه عام ، أو أفاد فيها من التراث الإسلامى بوجه خاص ، يقول ابن عينية مادحا الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل مستهلا مدحته بقوله :

جـعلَ العـتـابَ إلى الصُّـدُود تَوَصُّـلا
ريمٌ رمىَ فـأصـابَ منىٌ المَـقْـتَـلا

ليستعرض من صميم المعجم الإسلامى ما عرضه بين ثنايا الأبيات قائلا :

يا أيُّهـا الملك الذى إنْعَـامُـه
لم يُبْقِ فى الدُّنيا فـقـيـراً مُـرْسَـلا
قـد اتَّقَـيْتَ اللهَ حقَّ تُقَـاته
ونَهـجْتَ للنَّاسِ الطريق الأمْـثَـلا
وعَـدلْتَ حـتى لم تجـد مُـتظلمـا
وأخَـفْتَ حـتى صـاحبَ الذنبُ الطُّلا
ورفـعـتَ للدين الحنيف منارَةً
فـعـلاً وكنتَ بنَصْـرِه مُـتَكفِّـلا

حـــاشـــا لدينٍ أنتَ فـــيـــه مُظَفَّـــرٌ

أنْ يســتــبــاحَ حِـمــاه أو أن يُخْــذَلا

فــــاللهُ يخلف فى بقـــائك عـــادةَ الدُّ

نيـــا ويعطيكَ البـــقـــاءَ الأطْوَلا [٣]

فالشاعر يرصد فى شخص الملك من القيم والفضائل الإسلامية ما يطرحه من منطق العدل والورع والتقوى والذود عن دينه ، ورفع منارته وضمان نصره ثم يدعو له دعاء إسلاميا خالصا يكاد يتناص فيه مع الآيات القرآنية فى ثنايا عرضه للصورة من قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» [٤] أو قوله تعالى «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» . [٥]

«وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» . [٦]

وأصبح من الأهمية بمكان لدى شاعر العصر أن ينطلق من هذا المنظور الدينى الذى يتسق مع طابع الجهاد ، ففى موضوع المدح أيضا يعرض العماد الأصفهانى قوله فى الملك المظفر :

أخَـفْتَ أهلَ الشـرك حـتى الذُّعـر منهم

يُـرَى قـــــبـل الـولادةِ فـي الـجَـنـيـنِ

وكنتَ لعَـسْكَر الإســلام كَـهْـفًـا

أوَى منـهُ إلى حِـصْنٍ حَـصِـيـنِ

وأنـتَ ثَـبَـتٌ دونَ الـدِّيـن تَـحْـمِـي

حِـمَـــاه أوانَ ولـيِّ كَـلُّ دِيـن [٧]

---

(٣) كتاب ابن عيينه ١٢/٩.

(٤) سورة آل عمران ١٠٢.

(٥) سورة محمد ٧.

(٦) سورة النساء ٥٨.

(٧) كتاب الروضتين لشهاب الدين المقدسي المعروف بأبى شامة نشر دار الجيل - بيروت د. ت ٢٧٣/١.

فإذا بالصور تفيض بالمعانى الدينية التى تكثفت فى أعماق الممدوح ، فإذا هو يثبت أركان دينه ، وكأنه الكهف الحصين الذى يأوى إليه عسكر الإسلام وجنده ، وقد بث الخوف والفزع فى نفوس المشركين ، حتى أصاب منهم الأجِّنة فى بطون أمهاتها ، على ذلك النحو الذى صوره أبو نواس فى مدحه للخليفة العباسى الأمين قائلا :

وأخَفتَ أهلَ الشِّرك حتى إنه

لتَخافُكَ النُّطَفُ التَّى لم تُخْلَقِ

أو كأنه يلتقط الصورة مما عرضه أبو تمام من صور المفارقة بين واقع الشرك وقد هُزم ، وبين انتصار الإسلام فى قوله عن المعتصم بالله :

حتى تركْتَ عمودَ الشِّرك منْقَعِرا

ولم تعَرِّجْ على الأوتادِ والطُّنبِ

أو قوله والخطاب ليوم عمورية ونتائج المعركة :

أبقَيْتَ جَدَّ بنى الإسلام فى صُعُدٍ

والمشركينَ ودارَ الشِّرك فى صَبَبِ

وهو نفس الإطار الذى التزمه العماد الأصفهانى فى قوله مصورا انتصارات صلاح الدين :

أحيَا الهُدى وأمات الشِّرك صارمُه

لقد تجلَّى الهُدى والشركُ مُنْجَابُ

بفَتْحِه القدسَ للإسلام قد فُتِحَتْ

فى قَمع طاغية الأشراك أبواب [8]

بل ربما أخذت الصورة عمقا تاريخيا يرتد بالشاعر إلى انتصارات المسلمين الأول منذ عصر النبوة يوم أن حطموا عبادة الأوثان فى مكة :

نَفَى من القدس صُلبانا كما نُفيت

من بيت مكةَ أزْلامٌ وأنصاب

(٨) كتاب الروضتين ١/٢٧٣.

(٢)

وعلى نحو ما شهدته قصيدة المدح من حرص الشعراء على المعجم الإسلامى برز موقفهم فى فن الرثاء ، فكان الحس الإسلامى مسيطرا على مرثية الأصفهانى لنور الدين على نحو قوله :

الدينُ فى ظُلَم لغيبة نوره
والدهرُ فى غَمٍّ لفقد أميره
فليندبِ الإسلامُ حَامِىَ أهْله
والشامُ حافظَ مُلْكِه وثُغوره
من ينصُرِ الإسلامَ فى غزواته
فلقَدْ أُصِيب برُكْنهِ وظَهِيره
مَنْ للفرنج ومن لأسر ملُوكها
مَنْ للهُدَى يَبْغى مكانَ أَسِيره
مَنْ للبِلاد ومن لنَصْر جُيوشها
مَنْ للجِهاد ومن لِحفظ أمُوره
أنْتَ الذى أحيَيْتَ شرعَ محمد
وقضَيْتَ بعدَ وفاتِه بنُشُورِه
كَمْ قد أقَمْتَ من الشَّريعة مَعْلمَا
هوُ مُنْذُ غبتَ مُعَرَّض لدُثُوره
كم قد أمَرْتَ بحَفْر خَنْدق مَعْقَل
حتى سكنت اللَّحد فى مَحفُوره [٩]

(٩) كتاب الروضتين ٢/٢٤٤.

حيث يقيم صورته الرثائية على مصطلحات دينية قوامها الإسلام والدين والهدى والجهاد والشرع والشريعة ليجعل منها جميعا الرصيد الأوفى لممدوحه .

وفي موازاة هذا السلوك الديني الذي يجد سبيله عبر موضوعي المدح والرثاء يبدو نقيض الموقف في صيغ الهجاء التي رددها شعراء العصر ، فلم يزعجهم من خصومهم شيء بقدر ما أزعجهم إخلالهم بالعهود ونقضهم المواثيق ، على غرار ما عرف عن الصليبيين من خلال قول الشاعر كاشفا طبيعة الموقف وهاجيا المسلك ومستهجنًا أهله:

نقــضُــوا هُدْنَة الصَّــلاح بجَــهْل
بعــد تأكــيــدها بحُــسْن الوَفَــاء

ولقُــوا بَغْــيَــهم بمــا كــان فــيــه
من فــســاد يجلُّهم واعــتــداءِ

لا حَــمَى الله شَــمْلَهُم من شَــتَــات
بِمَــوَاض تفــوقُ حــدَّ المَــضَــاءِ

فــجــزاءُ الكَفُــور قَــتْلٌ وأَسْــرٌ
وجــزاءُ الشَّكُور خــيــرُ الجَــزَاء

فَلرَبِّ العــبــادِ حَــمْــدٌ وشُكْرٌ
دائمٌ مَعْ تَوَاصُل النَّعْــمَــاء (١٠)

وإلى جانب هذا الرصيد من الصور الدينية المتلاحقة وقد اقتحمت الموضوعات التقليدية الموروثة نظم شعراء العصر لوحات فنية جديدة في موضوعات بدت أشد قربا وارتباطا بإيقاع العصر ، وأكثر مواكبة للأحداث الكبار التي شهدها ، فكانت وثائق تاريخية لها أهميتها ومكانتها عبر التاريخين السياسي والأدبي على السواء .

وكان مما قيل في مساق تلك الموضوعات ما بدا فيه شعراء العصر شديدي الحرص على استنهاض المسلمين واستنفارهم للجهاد والرد على الصليبيين ، وكانت مساهمة اللسان من الأهمية بمكان كوسيلة لإعداد القوة والاستعداد لمعترك الجهاد

---

(١٠) ذيل تاريخ دمشق ٣٤٢.

المقدس ، وتحريك همة القائد وتنشيط جيشه على غرار من ذلك النحو الذى عرضه ابن الخياط لغضب الدولة زعيم الجيوش فى دمشق من قوله :

وإنِّى لمُـــهْـــدٍ إليكَ القَـــريـ
ض يطوى على النُّصْح والنصحُ يهُـدْىَ

إلَى كَمْ وقَـدْ زَخَـر المـشـركـوُ
ن بِسَـيْل يُهَـالُ له السَّيْلُ سَـدًا

بنُو الشِّـرك لا يُنكرون الفسـا
د ولا يعـرِفُـون مع الجَـوْر قـصْـدا [11]

إذ يرتدى ثوب الناصح المرشد ، مقدما نصحه وإرشاده بين ثنايا تلك الصيغ المهذبة التى يؤكد فيها أن النصح لا يُفْرَض فَرْضا بقدر ما يُهْدَى إهداء ، وإذا هو يكشف عما عرف عن المشركين من فجور وضلال وفساد خلق وجور لا يعرف إلى العدل أو الصلاح سبيلا بحال .

وهنا يتجاوز الشاعر موقف الأخطل أمام عبدالملك فى عصر بنى أمية منذ صرح بنصحه له وللبيت الأموى ، وكأنه راح يمن عليه وعليهم فى رائيته المشهورة :

بنى أمـــيـــةَ إنىِّ ناصحٌ لَكُمُ
فــلاَ يَبِيــتَنَّ فـيكُم أَمِناً زفَـرُ

بنى أمـيـةَ قَـدْ ناضَلتُ دونَكُمُ
أبناءَ قَـومٍ همُ أووا وهُمْ نَصَـروا

ولم يتوقف الاستنفار عند حدود المواقف الفردية التى تتعلق بقائد أو أمير ، بل قد تنسحب على المسلمين مطلقا ، خاصة حين يشتد عبث المشركين بمقدسات الإسلام قياساً على ذلك النحو الذى قال فيه بعض شعراء العصر على غرار ما ذكرناه آنفاً فى خضم المعترك الدينى :

---

(١١) النجوم الزاهرة ٥ / ١٥١ .

أحلَّ الكُفْرُ بالإسلام ضيما
يطولُ عليه للدين النَّحِيبُ
فحَقٌ ضائع وحِمىً مُبَاحٌ
وسيفٌ قَاطع ودمٌ صَبِيبُ
وكَمْ من مُسلم أمْسَى سليبًا
ومُسْلِمَة لها حَرَمٌ سَليب
وكم من مسجد جعلُوه دَيْرًا
على مِحْرَابه نُصبَ الصَّلِيبُ
دمُ الخِنزير فيه لهم خَلُوقٌ
وتحريقُ المصاحف فيه طِيبُ
أمورٌ لو تأمَّلهن طفل
لطَفَّلَ في عَوَارضه المَشِيبُ
أتُسْبَى المسلماتُ بكل ثغر
وعيشُ المسلمين إذاً يَطِيبُ
أما للَّه والإسلام حقٌ
يدافعُ عنه شُبَّانٌ وشِيبُ
فَقُلْ لِذَوِى البصائر حيثُ كانوا
اَجيبُواْ اللَّه ويحكمُ أَجِيبُواْ [١٢]

فالشاعر يسجل أبعاد أحزانه التى تعمقته وسيطرت على كيانه ، وأسقمت وجدانه ، ليطرح تلك الأحزان على بساط المسلمين ، لا ليتباكوا بسبب منها ، بل ليسهموا فى إنقاذ الإسلام مما أحاط به من مخالب الكفر الذى استباح المحرمات ، فضاعت حقوق

(١٢) النجوم الزاهرة ٥ / ١٥١ .

المسلمين ، وأوشك حماهم أن يستباح بين قتل وسلب ونهب ، بل أوشك الشرك أن يجور على مقدساتهم ليحيل مساجدهم إلى أديرة تُنْصب فيها صلبانهم ، على نحو ما يقترفونه من محرمات دينية من أكل لحم الخنزير ، وإحراق مصاحف المسلمين ، إلى غيرها من جرائم منكرة تجعل الولدان شيبا من هول ما يرونه من سبى نساء مسلمات ؛ الأمر الذى يترجمه الشاعر فى خلاصة ما طرحه استنهاضا للمسلمين لكى يذودوا عن حق الإسلام عليهم ، وليجيبوا داعى الله انتصارا لدينه ودفاعا عن مقدساته .

هو استنفار يعيد إلى الأذهان ما عرضه ابن الرومى فى مرثيته المشهورة حول أحداث الزنج التى دمرت مدينة البصرة ومطلعها :

ذاد عن مـــــــقلتى لذيذ المنام

شُغلها عنه بالدموع السجام

ولعل إدراك الشاعر المسلم لحجم الخطب على هذا النحو هو ما حفزه إلى إضافة الجديد فى لوحاته المدحية التى التقى فيها هذا الحرص على الإسلام ببقية الصفات المتالية فى شخص الممدوح ، بل تصدَّرها هذا الموقف على النحو الذى قال فيه ابن منير الطرابلسى مادحًا نور الدين بقصيدة أثنى فيها عليه لدوره فى نصرة الدين وإعادة زهوه وقوته إليه :

ردت على الإسلام عصر شبابه

وثبات من دونه وثباته

سبَغتْ على الإسلام بيضَ حجُوله

واختال فى أوضاحها جبَهاتُه

صَدمِ الصليب على صلابة عوده

فتفرقت أيْدى سبا خشباتُه [١٣]

وإذا بغضبة نور الدين تتجاوز ذلك المستوى الانفعالى الذى يتجاوز كل الخصومات، إلا ما مس منها دينه فينبرى عنه مدافعاً وذائداً على نحو ما برز من جوانب شخصية نور الدين على لسان ابن القيسرانى فى قوله :

(١٣) كتاب الروضتين ١/٦٠.

غَــضِــبْت للدين حــتى لم يَفُــتْك رِضًى

وكــانَ دينُ الهُـدى مــرضــاتهُ الغَــضَبُ

من كــانَ يغــزوُ بلادَ الشــرك مُكْتَــسِــبــا

من الملوك فنُور الدِّين مُــحْــتَــسِــبُ



(٣)

ولعل من أكثر هذه الصور الحربية إشراقا فى هذا الجانب ما عرضه شعراء العصر حول انتصارات المسلمين على الصليبيين ، وما شاع فى هذه الانتصارات من طابع دينى دفع الشعراء إلى كثرة الاقتباس من المعجم القرآنى ، والاستعانة بالصور الدينية على النحو الذى تردد فى كل فتح أو انتصار على حدة ، وكان انتصار صلاح الدين فى حطين من أكبر حوافز الشعراء إلى النظم فقد اهتز فيهم الوجدان الدينى ، وتدفقت الملكة الإبداعية لتصوير نشوة النصر وهزيمة الشرك ، على ذاك النحو الذى ورد على لسان أبى الحسن الجغرافى نقيب الأشراف بالديار المصرية فى «حطين» واسترجاع القدس :

أترَى منامًا ما بعَيْنى أُبْصِرُ

القُدْسُ تُفْتَحُ والفِرنْجَةُ تُكْسَرُ

ومليكُهم فى القَيْد مصفُودُ ولم

يُرَ قَبْلَ ذاك لهم ملوكٌ تُؤْسَرُ

قد جاءَ نصرُ الله والفتحُ الذى

وُعِدَ الرسول فسبِّحوا واستَغْفِرُوا

فَتَح الشآم وطَهَّر القُدْسَ الذى

هو فى القيامة للأنام المَحْشَرُ

مَلِكٌ غَدا الإسلامُ من عُجْبٍ به

يختالُ والدُّنْيا به تَتَبْخَترُ

نَثْرٌ ونَظْمٌ طَعْنهُ وضِرَابُهُ

فالرُّمح يَنْظِمُ والمُهَنَّد يُبْتِرُ

حـيثُ الرِّقــاب خـواضعٌ حــيث العـيُـو

نُ خَــوَاشِعٌ حــيث الجِــبَــاهُ تُعَـفَّــرُ

فما كان فتح القدس إلا فتحا دينيا استبشر به المسلمون جميعا ، وإذا بالشاعر يستوقفه ما كان من سورة النصر «إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا» ، وإذا هو تستغرقه نشوة الانتصار فيذكر ما بعد القيامة من حشر ونشر ، كاشفا بذلك عن صدق حسه الغيبى الذى يعد من أرقى صور الإيمان فى هذا المعجم الإسلامى ، إلى جانب ما رصده من شعائر الإسلام من خطب الجمع والمنابر التى يرتقيها خطباء الإسلام كصورة من هذه الشعائر .

وعلى نفس النسق يسير نفس الشاعر حول نفس الانتصار فى قوله :

جُنْدُ الســمــاء لهــذا المُلْك أعــوانُ

من شك فـيــه فــهــذا الفــتح برهانُ

مــتى رأى الناس مــا نحكيــه فى زمن

وقــد مــضت قـبل أزمــانٌ وأزمـــان

هذى الفــتــوح فــتـوحُ الأنبـيــاء ومــا

لهــا ســوى الشكر بالأفــعــال أثْمَــانُ

أضـحَتْ ملوكُ الفـرنج الصــيـد فى يده

صــيـدا ومــا ضـعــفـوا يومــا ولا هـانوا

تسـعــون عــامــا بلاد الله تصـرخُ والـ

إســلام أنصــاره صمٌّ وعُــمــيــان

للناصــر ادُّخــرت هذى الفــتــوح ومــا

ســمت لهم همم الأمــلاك مُــذْ دانوا

فهو يستعيد بذلك السير الإسلامية من لدن تاريخ الغزوات الإسلامية فى عصر النبوة ، يوم أن كانت الملائكة تتنزل من قبل الله تعالى لتساعد جند المسلمين وتعينهم فى قتال المشركين ، ولذا لم يتورع الشاعر عن عرض صور هذه الفتوح فى صورة جعلها شبيهة بغزوات الأنبياء ، وهزائم الشرك وأهله من ملوك الطغيان والفساد ، وبعدها يرصد الأبعاد الزمنية لتأريخ الهزيمة ، وتصوير المرارة التى راحت فيها بلاد الله تصرخ والإسلام يستنجد ، وكأن المسلمين قد عموا وصموا ، إلى أن قيض لها الله من شخص صلاح الدين قائدا فذا يحقق نصر الإسلام على يديه . وراح الشعراء يتبارون ويجتهدون حول الأخذ من كل صور المعجم الإسلامى إزاء الحروب المقدسة ، أو الآيات القرآنية التى جعلها مصدرا لأخذه ، بل أخذوا من قصص القرآن الكريم ما عرضوه بين ثنايا قصائدهم على النحو الذى عرضه الحكيم الجليانى حين وصف الإفرنج بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس فى قوله :

وياضحى السبت ما للقوم قد سبتوا

تهـــودوا أم بكأس الطعم قـــد سكروا

ويا ضريح شعيب ما لهم جثموا

كمدين أم تقوا رجفا بما كفروا

كاشفا بذلك عن جانب من قصص اليهود ، وما ليوم السبت فى ديانتهم من أثر خاص (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) [14] ، كما يلتقط من قصة شعيب (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) . [15]

والذى لا شك فيه أن شعراء الحروب الصليبية قد تزاحموا على مادة هذا المعجم، فكثرت لديهم منه المعانى والصور وتزاحمت الأفكار على أذهانهم بحكم ظرف ، المواقف القتالية وما طبعت به من صبغة دينية ، أساسها الصدق والإخلاص فى الجهاد ، مما دفع الشعراء إلى تسجيل الانتصارات بنفس الصدق والعمق والحماس والانفعال ، على النحو الذى عرضه أيضا العماد فى فتح بيت المقدس :

جنودك أمـــلاك الســـمـــاء وظنهم

أعـــاديك جنا فى المعـــارك أو إنســا

(١٤) سورة النحل ١٢٤. (١٥) سورة هود ٩١.

فكيف مكست المشركين رؤوسهم
ورأيك فى الإحسان أن تطلق المكسا
كسرتهم إذْ صح عزمك فيهم
ونكستهم من بعد إعلامهم نكسا
بواقعة رجت بها أرض جيشهم
ومارت كما بست جبالهم بسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وألبستها الدين الذى كشف اللبسا
جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت
ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

فهو يقيم الصورة على أساس من نفس التصور الدينى التاريخى من وجود مدد إلهى تقوم به ملائكة الرحمن ممن لا يستطيع المشركون التعرف على هويتهم ، فما هم بإنس ولا جن ، ولا عهد للكفار بمعرفتهم ، ومن ثم يدير الشاعر فخره بما كان من الانتصار الذى كشف الحق حين نزع لباس الكفر عن المقدس وألبسها ثوبا قشيبا يعكس اعتزازها القويم الذى كشف اللبس عن البشرية كلها حين أبان لها سبيل الهداية والرشاد ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ . (١٦)

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ . (١٧)

أضف إلى هذا ما التقطه الشاعر من تلك الصور التى انتشرت فى الآيات القرآنية الكريمة ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ . (١٨)

---

(١٦) سورة الإسراء ٧٢.

(١٧) سورة آل عمران ٩.

(١٨) سورة الواقعة ٤ – ٥ .

وهكذا ترددت أصداء المؤثر الإسلامي في جنبات الساحة الشعرية في مواقف القتال فكان الشعر وسيلة إعلامية جيدة لتسجيل الانتصارات وبيان ما فيها من ذلك الحس الديني الذي جعل من المعجم الإسلامي قاسما مشتركا بين معظم شعراء العصر ، في مختلف عصور الأدب التي عرضت لها ، فإذا بالبهاء زهير يستوقفه مشهد انتصار الملك الكامل على الإفرنج عند المنصورة فينبري مترجما موقفه قائلا: [(١٩)]

بك اهتـــز عطف الدين في حلل النصـــر

وردت على أعـــقـــابهـــا ملة الكفـــر

صــــبــــرت إلى أن أنزل الله نصــــره

لذلك قــد أحــمــدت عــاقــبــة النصــر

وليلة نفـــر للعـــدو كــــأنهـــا

بكثـــرة من أرديتـــه ليلة النحـــر

وياليلة قـــد شـــرَّف الله قـــدرها

ولا غـرو أن ســمــيـتــهـا ليلة القــدر

ســددت ســبــيل البــر والبــحــر عنهم

بســـابحـــة دهم وســـابحـــة غـــر

أســاطيل ليــست في أســاطيــر من مــضى

بكل غـــراب راح أقنص من صـــقـــر

وجـــيش كــمــثل الليل هولا وهيــبــة

وإن زانه مـــاضــيـــه من أنجم زهر

أضف إلى هذا أيضا من نفس المنظور الإسلامي ما عرج عليه الشاعر من تأثره بقصة موسى عليه السلام والخضر، وهو بصدد عرض صورة الملك الكامل :

---

(١٩) ديوان البهاء زهير ٩٩.

أياديه بيض في الورى مـــوسـوية

ولكنها تسعى على قدم الخضر

ومن أجله أضحى المقطم شامخا

ينافس حتى طور سيناء في القدر

وهو ما يتجاوزه إلى تصوير الملائكة والملأ الأعلى :

فيا ملكا سامي الملائك رفعة

ففي الملأ الأعلى له أطيب الذكر

وهنا تلح عليه صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأنما تواردت خواطره حول معراجه عليه السلام :

فقل لرسول الله أن سميه

حمى بيضة الإسلام من نوب الدهر

كما يلح عليه الحنين إلى مكة ، ويبدو سعيدا بإسعادها بأنباء النصر :

فمن بلغ هذا الهناء لمكة

ويثرب تهنيه إلى صاحب القبر

وسرعان ما يستطرد إلى تصوير السلوك الديني لممدوحه والذى أدى به إلى حتمية وقوع هذا النصر ، فكان عابدا زاهدا كثير التقى والصلاة :

ورد على المحراب منها صلاته

وكم بات مشتاقا إلى الشفع والوتر

وباتت جنود الله فوق ضوامر

بأوضاحها تغنى السراة عن الفجر

فما زلت حتى أيَّد الله حزبه

وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر

فــــرويّتَ منهم ظامئ البــــيض والقنا

وأشــــبــــعت منهم طاوى الذئب والنســـر

وجـــاءت ملوك الأرض نحـــوك خُـــضّــعـــا

تجـــرر أذيال المـــهـــانة والصُّـــغْـــر

أتوا ملكا فـــوق الســــحـــاب مـــحله

فـمن جـوده ذاك السـحـاب الذى يسـرى

فـــمنَّ عليــــهم بالأمـــان تكرمـــا

على الرغم من بيض الصـوارم والسـمـر

كـفى الله «دمـيـاط» المـخـاوف إنهـا

لمن قـبلة الإسـلام فى مـوضع النحـر

ومـــاطـاب مـــاء النيل إلا لأنـه

يحل مـحل الريق من ذلك الثـغـر [٢٠]

فإذا هو يستهل الصورة بتشخيص رصد فيه للدين مشهدا وقد اهتز فى حلل النصر ، فى موازاة ما أصاب عالم الكفر من ارتداد أهله على أعقابهم خاسرين ، وهو يرد النصر إلى الله سبحانه الذى أنزله على عبده لما كان من صبره وتجلده ، وإذا هو يستعين بمشهد قرآنى حول عرض صورة تلك الليلة حيث جعلها شبيهة بليلة القدر ، فى ارتفاع المكانة ، وعلو الشأن من المنظور الدينى ، وما كان ذلك إلا لأن الجند هم جند الله الذين يدافعون عن دينه ، يؤيدهم الله سبحانه لأنهم حزبه ﴿ **ألا أن حزب الله هم المفلحون** ﴾ [٢١]

ومع كثرة الانتصارات الإسلامية كثرت الصور الحربية ، وازداد فيها عمق الحس الدينى ، وبدا أساسه استيعاب الشعراء للمعجم الإسلامى ، وحرصهم على الصدور عنه فى شعرهم ، على ذلك النحو الذى أداروه حول الحروب المقدسة ، وفيها استهدفوا - كما

---

(٢٠) ديوان البهاء زهير.

(٢١) سورة المجادلة ٢٢.

استهدف الجند - الانتصار للإسلام ، والدفاع عن عقيدة المسلمين في محاولات بطولية رائعة لاسترداد أراضيهم المقدسة . فعلى نفس النسق نجد ما قاله أمين الدولة محمد بن عبدالله المعروف بسبط بن التعاويذى بمناسبة انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى موقعة مرج عيون سنة ٥٧٥هـ :

ونهضت للإسلام نهضة صادق الـ

ـعزمات تراب من تأه وتشعب

وغضبت للدين الحنيف ولم تزل

فى الله ترضى منذ كنت وتغضب

غادرت أهل البغى بين مجدل

لقى الحمام وخائف يترقب [٢٢]

وعلى نفس النهج نتبين ما كان من ابن القيسرانى فى تصويره انتصار نور الدين فى أنطاكية قبل ذلك سنة ٥٤٤هـ من طموحه إلى تطهير المسجد الأقصى وإشاراته المتكررة إلى ذلك وانتظاره الملهوف له :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب

يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب

وأذن لموجك فى تطهير ساحله

فإنما أنت بحر لجه لجب [٢٣]

وكذا ما ردده الشهاب محمود الحلبى فى استيلاء الأشرف خليل على عكا سنة ٦٨٩:

ما بعد عكا وقد لانت عريكتها

لديك شيء تلافيه على تعب

---

(٢٢) كتاب الروضتين ١ / ٥٩ .

(٢٣) نفسه ١ / ٥٩ .

فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها

مدت إليك نواصيها بلا نصب

ومن التاريخ الإسلامي أشرقت صور كثيرة حرص شعراء العصر على إحيائها كلما عنَّ لهم موقف نصر للإسلام ، ففي انتصار نور الدين على الإفرنج في موقعة دلموك سنة ٥٤٠ انبرى أحد الشعراء المسلمين مسجلا وقع الفتح على نفسه ، وعلى نفوس المسلمين مستلهما روح التاريخ الإسلامي :

أعدت بعصرك هذا الأنيق	فتوح النبي وأعصارها
وكان مهاجرها تابعيك	وأنصار رأيك أنصارها
فجددت إسلام سلمانها	وعمر جدك عمارها

وكثيرا ما قرن الشعراء الانتصار بتدين ممدوحيهم ، فكان المعجم الإسلامي هنا مقياس الحكم ، ومحور الموقف الفني ، لتحديد طبيعة الانتصارات ، تناغما مع ذلك الطابع الديني الذي يطرح منه العماد صورة في قوله في نور الدين حين أخذ قلعة «منبج» من صاحبها ابن جسان سنة ٥٦٣هـ :

فانهض إلى البيت المقدس غازيا

وعلى طرابلس ونابلس عج

قد سرت في الإسلام أحسن سيرة

مأثورة وسلكت أوضح منهج

وجميع ما استقريت من سنن الهدى

جددت منه كل رسم مبهج

وكأن طرح الانتصار هنا لم يكن إلا قرينا للسيرة الحسنة التي سار عليها الممنوح في دينه ، والذود عنه، وسلوك المنهج القويم على سنن الهدى الموروثة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(٢٤) كتاب الروضتين ١ / ٧٣ ، معجم الأدباء ٧ / ١٣ .

وهكذا بدا التبارى الفنى ظاهرة عامة لدى الشعراء حول استحضار تلك المعانى والقيم الإسلامية ، وعرضها فى موضوعات الشعر المتنوعة ، فى عصر بدت فيه المعارك دينية بالدرجة الأولى ، كما احتدت فيها الصراعات شديدة حول الإسلام وأراضيه المقدسة ، وبين أهل الصليب ، وما جاءوا به من وسائل التخريب والدمار ، ومن ثم كانت الفضائل الإسلامية فى الممدوحين من أهم متطلبات المرحلة ومن أخطر ما يستلزمه الموقف القتالى ، بحكم الدوافع والسلوك والإعداد ، على ذلك النحو الذى عرضنا له آنفا فى لوحة المديح ، وما عرض له ابن القيسرانى - أيضا - فى ذلك المزج بين المدح وتصوير انتصار تاج الدين بورى عند دمشق فى قوله :

قوت الجياد وحصنت البلاد وأمنـ ت العباد فأنت الحل والحرم

وفـقت فى الجيش والأعلام خافقة

بالنصر كل قناة فرقها علم

وسست جندك والرحمن يكلؤه

سياسة ما يعفى أثرها ندم

والنصر دان وخيل الله مقبلة

ترجو الشهادة فى الهيجا وتغتنم

فغادروا أكثر القربان وانجفلوا

وخلفوا أكبر الصلبان وانهزموا

هذى العزائم لاما تدعى القضب

وذى المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللات متى خطبت

تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها

براحة للمساعى دونها تعب

عـــمت فـــتـــوحك بالعـــدوى مــــعـــاقلهـــا

كـــــأن تسليم هـذا عنـد ذا جـــــرب

لـو لم يســـــر جنده فـي عـــــسكر لجب

لكان من نفـــســـه فـي عـــسكر لجب [٢٥]

فمع عرض هذه الفضائل الإسلامية يتردد حرص ابن القيسرانى وغيره على الإفادة الصريحة من التاريخ الإسلامى ، فإذا هو نفسه يذكر يوم بدر وملائكة الرحمن ، وهو بصدد مدح عماد الدين :

لـلـه أيـة وقـــــــــعـــــــــة بـدريـة

نصـــرت صـــحـــائبـــهـــا بأيمن صـــاحب

وأمــــدكم جــــيش المــــلائك نصــــرة

بكتــــائب مــــحــــشــــوثة بكتــــائب [٢٦]

ففى اللوحة الأولى يجعل مقومات المشهد قائمة على ما ذكره من الحل والحرم ، والرحمن ، والشهادة وخيل الله ، كأصول الصورة الدينية التى يتقدم فيها الممدوح فى قيادة جنده وخيوله التى تتبارى إلى الاستشهاد فى ساحة الموت ، وما تنبثق عنه سياسته من حزم وتدبير وعزائم وهمم كانت نتيجتها تحقق ذلك النصر الدينى الذى يرفع من مكانة ممدوحه حتى لكأنه بمفرده جيش لجب .

وفى اللوحة الثانية يستمر فى ترديد ما تعاوره الشعراء فى لوحاتهم المدحية حول منطق السبق والتفرد أحيانا ، حين يرصد لكل ممدوح على حدة ، ولكنه هنا يبدو قرينا لدعوة الجهاد والفخر بما كان من تلبية هذا الصوت الدينى الذى ردده أسامة بن منقذ فى مدحه لنور الدين أيضا:

أســـمــعت دعــوة الجـــهــاد قلبـــا	هـا مـليك بـالـمكرمــــــات خـلـيق
مــــاله عن جـــهـــاده الكفـــر والعـــد	ل وفـعل الـخـيـرات شـغل يعـوق [٢٧]

(٢٥) كتاب الروضتين ١ / ٣٨ .

(٢٦) كتاب الروضتين .

(٢٧) كتاب الروضتين ١ / ١١٧ .

ومن ثم بدت مبالغات الشعراء ممزوجة بهذا الحس الديني كدافع للخروج ، وحافز للاستمرار حتى النصر ، ووسيلة للاستبشار على المنهج الذى ردده كثير من الشعراء ومنه ما قيل فى صلاح الدين فى صور مباشرة :

يا ناصر الإسلام حين تخاذلت
عنه الملوك ومظهر الإيمان
بك قد أعز الله حزب جنوده
وأذل حزب الكفر والطغيان
لما رأيت الناس قد أغواهم الـ
شيطان بالإلحاد والعصيان :
جردت سيفك فى العدى لا رغبة
فى الملك بل فى طاعة الرحمن
فضربتهم ضرب الغرائب واضعا
بالسيف ما رفعوا من الصلبان
وغضبت لله الذى أعطاك فصل الـ
حكم غضبة ثائر حرّان
فقتلت من صدق الوغى ووسمت من
نجى الفرار بذلة وهوان

وهو نفس المنهج التصويرى الذى يتكرر حول صلاح الدين أيضا :

لازلت يا ملك الإسلام فى نعم
قرينها السعدان : النصر والظفر
تردى الأعادى وتستصفى ممالكهم
وعونك الماضيان : السيف والقدر

وجـاد غـيث نداك المـسلمـين فـمن
سـحـابه المـغنيـان : الدر والبـدر
وسـرت سـيـرة عـدل فى الأنام كـمـا
قـضى به الصـادقـان : الشـرع والسـور [28]

صحيح أنه عمد فيها إلى صيغة بدا فيها حرصه على الأناة وأسلوب الإجمال والتفصيل ، ولكنه لم يخرج بها عن تلك الحدود الدينية التى صور فيها طبيعة ملك صلاح الدين وما يأتيه من نصر إلهى ، وما يسير عليه من نهج قويم فى نشر العدل بين رعاياه إلى ما يعرضه الشاعر من دعائه الدينى للقائد .

وفى هذا الخضم التصويرى لا يتوقف الشاعر عند حدود عرض الصور بل يبحث فى المعجم الإسلامى عن رصيد قرآنى قد يأخذ منه ما يزيد الصورة وضوحا ويدعمها دعما على نحو ما قاله ابن سناء الملك من وحى التاريخ الإسلامى أيضا فى غزوة بدر ومن وحى الآية الكريمة ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ . [29]

ليقول :

مـا هذه الرمـيـة مـعـهـودة	بالقـوس إذ ترمى عن الأسـهم
وهى التى فى يوم بدر جـرت	لمـا رمى الله بهـا من رمى [30]

على أن المواقف الفنية للشعراء لم تعرف سبيلا للتوقف أو الانحصار فى دائرة المدح والثناء على قواد المسلمين ، بل تجاوزتها إلى تلك اليقظة التى بدا فيها الشاعر مترقبا كل خطوة فى الجهاد قد تشد من أزر الدين وتسعد المسلمين ، أو تسبب لهم حزنا وكآبة على نحو ما كان من الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حين خرب بيت المقدس خشية استيلاء الفرنج عليه مما أثار سخط المسلمين ونقمتهم ، ودفع بعض الشعراء إلى ذم فعله على نحو مما قاله شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن المجاور مستلهما الطابع الدينى فى الموقف:

---

(٢٨) خريدة القصر (قسم شعراء الشام) جـ١ / ٥٣٢ .

(٢٩) سورة الأنفال آية ١٧ .

(٣٠) ديوان ابن سناء الملك ٢٩٢ .

أعيني لا ترقى من العبرات

صلى فى البكا الآصال بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفئ فيضها

توقد ما فى القلب من جمرات

ويا قلب أسعر نار وجدك كلما

خبت بادكار يبعث الحسرات

ويا فم بح بالشجو منك لعله

يروح ما ألقى من الكربات

على المسجد الأقصى الذى جل قدره

على موطن الإخبات والصلوات

على منزل الأملاك والوحى والهدى

على مشهد الإبدال والبدلات

على سلم المعراج والصخرة التى

أنافت بما فى الأرض من صخرات

على القبلة الأولى التى اتجهت لها

صلاة البرايا فى اختلاف جهات

وما زال فيه للنبيين معبد

يوالون فى أرجائه السجدات

لتبك على القدس البلاد بأسرها

وتعلن بالأحزان والترحات

لتبك عليها مكة فهى أختها

وتشكو الذى لاقت إلى عرفات

لتبك على ما حل بالقدس طيبة

وتشرحه فى أكرم الحجرات

لقد شتتوا عنها جماعة أهلها

وكل اجتماع مؤذن بشتات [٣١]

إذ يشكل الشاعر أبياته من خلال رصد بكائي يشتد فيه حزنه وأساه ومخاوفه على الإسلام ومقدساته، فيذكر الأقصى ويحن إلى مكانته الدينية بين الإخبات والصلوات ، ويستكمل المشاهد بالوحى والهدى ومعراج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصخرة ، والقبلة الأولى ومعابد الأنبياء والسجدات ، والشعائر المقدسة فى مكة وعرفات مما يطرح من خلاله الشاعر حنينه ولهفته ومخاوفه إزاءها .

وتبقى من الملاحظات الواضحة حول المؤثرات الإسلامية فى هذه الفترة ما غلب عليها من الطابع الحربى مما أدى بالشعراء إلى عدم الحرج فى المعارضة الشعرية ، وهى معارضة أساسها الحس الدينى مع قدر واضح من الاستقصاء للدوافع والانفعالات ونتائج الحروب ، وتتراوح تلك المعارضة على مستوى القصيدة بين الإطالة والقصر مع وضوح التأثر لدى الشعراء بالحس الإسلامى العام مع غلبة الطابع الحماسى والحربى مما وجد سبيله إلى الانتشار فى كل الموضوعات مما أفسح مجالات طيبة لبروز الطابع الذاتى أيضا من قبل الشعراء .

وتتبلور خلاصة القول فى هذا الجانب الحربى فيما طرحه لنا من صورة البطل الإسلامى الذى ينطلق من عالم الفضائل الدينية ، ليجدد صورة البطولات الأولى منذ عصر صدر الإسلام ، كما جدد فتوحاته على نحو ما جمعه ابن منير الطرابلسى فى تصوير عماد الدين وقد فتح مدينة الرها ، فراح يشيد بالفتح والبطل من خلال الإسلام والمسلمين من مثل قوله :

صفات مجدك لفظ جل معناه

فلا استرد الذى أعطاكه الله

(٣١) كتاب الروضتين ٢ / ٢٠٥ .

يا صارما بيمين الله قائمه

وفي أعالي أعادي الله حداه

قل للأعادي : ألا موتوا به كمدا

فالله خيبكم ، والله أعطاه

ملك تنام عن الفحشاء همته

تقى ، وتسهر للمعروف عيناه

على المنابر من أبنائه أرج

مقطوية بفتيق المسك رياه

فتح أعاد على الإسلام بهجته

فافتر مبسمه واهتز عطفاه

يهدى بمعتصم بالله فتكته

حديثها نسخ الماضي وأنساه

مشمرا وبنو الإسلام في شغل

عن بدء غرس لهم أثمار عقباه

يا محيي العدل إذ قامت نوادبه

وعامر الجود لما مح مغناه

يا نعمة الله يستصفي المزيد بها

للشاكرين ويستقنى صفاياه

أبقاك للدين والدنيا تحوطهما

من لم يتوجك هذا التاج إلا هو

فهو يضع أمامنا صورة البطل الإسلامي في قوته وعنفه وبأسه مما يميت أعداءه إلى جانب تقواه وتجنبه الفواحش وسهره المعروف وإحيائه العدل مما يدفع بالشاعر إلى

تسجيل فخر المسلمين به حين يعرج على ما أحرزه من فتوحات ليختم حواره بالدعاء الدينى له .

ويتردد لهذا المشهد البطولى نظير يعرضه ابن القيسرانى على درجة من التركيز والإيجاز حين يقول فى تسجيل انتصارات نور الدين محمود من خلال ملامح بطولته التى ترفعه إلى مصاف كبار القادة وأئمة الإسلام وخلفائه وأوليائه وأتقيائه فى قوله :

ذو الجهادين : من عدو ونفس
فهو طول الحياة فى هيجاء

قد هديت الملوك للعدل لما
سرت فى الناس سيرة الخلفاء

قاسما ما ملكت فى الناس حتى
لقسمت التقى على الأتقياء

رأفة فى شهامة وعفاف
فى اقتدار وسطوة فى حياء

وجمال ممنطق بجلال
وكمال متوج ببهاء

أعجب الناس منك أنك فى الحر
ب شهاب الكتيبة الشهباء

وكأن السيوف من عزمك المـا
ضى أفادت ما عندها من مضاء

ولعمرى لو استطاع فداك الـ
قوم بالأمهات والآباء

إذ يبدو البطل لديه نموذجا يحتذى على المستوى الدينى فهو يجاهد عدوه كما يجاهد نفسه فلا تراه إلا بطلا محاربا فى ميادين القتال ، أو ميادين الشهوات ، حتى

ليبدو هاديا لكل الملوك حين استعاد سير الخلفاء، وملك ناصية التقى والورع إلى جانب الشجاعة والبأس والفصاحة والجلال والكمال حتى استحق أن يختم أبياته فيه بأن يجعل القوم له فداء .

فإذا خرجنا من دائرة الحروب والبطولات ظل صدى المؤثر الدينى شديد التردد لدى شعراء العصر بحكم الموضوعات الأخرى التى جاءت على نحو ما أنتجته قرائحهم ، وتنافسوا فيه فى مدائحهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم على طريقة البوصيرى فى همزيته الطويلة وقد تجاوزت أربعمائة وستين بيتا استهلها بأبياته المشهورة شهرة القصيدة كلها :

كـــيف ترقى رقـــيك الأنبـــيـــــاء

يا ســمـــاء مـــا طاولتـــهـــا ســمـــاء

لم يســـاووك فى عـــلاك وقـــد حـــا

ل ســـنـــا مـــنـــك دونـــهـــم وســـنـــاء

إنمـــا مـــثلوا صـــفـــاتك للنا

س كـــمـــا مـــثل النجـــوم المـــاء

إلى جانب غيرها من مدائحه المشهورة على منهج لاميته فى معارضته « بانت سعاد » وغيرها لديه ولدى غيره من شعراء المدح النبوى ، مما اتسق مع شاعر المجتمع الإسلامى بعنف المعركة بين الإسلام وأهل الكفر فاندفع الشعراء بهذا الحنين إلى المعجم الإسلامى فى المدائح النبوية يجدون فيه ملاذهم ومادتهم الروحية ، ففيها يجدون فرحة النصر كما يجدون النجدة من مخاوف الهزيمة أو الاستنجاد من صورتها المفزعة التى تعرضها الصورة القاتمة حين يرسمها الشاعر : (وإن كان قد سبق عرضها)

أحل الكفـــر بـالإســـلام ضـــيـــمـــا

يطــول عليــــــه للدين النحــــــيب

فـــحق ضـــائع وحـــمى مـــبـــاح

وســـيف قـــاطع ودم صـــبـــيـــب

وكم من مسلم أمسى سليبا

ومسلمة لها حرم سليب

وكم من مسجد جعلوه ديرا

على محرابه نصب الصليب

دم الخنزير فيه لهم خلوق

وتحريق المصاحف فيه طيب

أمور لو تأملهن طفل

لطفل فى عوارضه المشيب

أتسبى المسلمات بكل ثغر

وعيش المسلمين إذًا يطيب

أما لله والإسلام حق

يدافع عنه شبان وشيب

فقل لذوى البصائر حيث كانوا

أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

ففى مثل هذا الواقع الأليم ترى المسلمين يضرعون إلى الله لتفريج الكرب حتى إذا ما تحقق النصر برزت لديهم صور الشكر التى رسمها الشعراء وجميعها بدت انطلاقا من المعجم الإسلامى استكمالا لمعركة الإسلام مع الكفر وارتباطا بها .

ومن هنا تحول العصر إلى عصر للمدائح النبوية والمعارضات في هذا الإطار الديني ، حتى لتنظم فيها دواوين كاملة على نحو ما صنع شهاب الدين محمود فى «أهنى المنائح وأسنى المدائح» و«بشرى اللبيب بذكر الحبيب» لابن سيد الناس العمرى ، وغالبا ما سارت هذه الدواوين على لغة التخصص فى المدائح بما يشيع فيها من الوعظ والإرشاد الدينى ممزوجا بالتعريض بالديانات الأخرى لينطلق المادح إلى الفخر بالأمة الإسلامية ومدح أبطالها إلى جانب تخصيص المديح بشخص رسول الله صلى الله عليه

وسلم وتناول معجزاته وإسرائه ومعراجه وجهاده في سبيل دينه على منهج شهاب الدين محمود فى قوله :

حملتك آمنة الحصان فلم تجد
عبئا كعبء الحاملات ثقيلا

وولدت مختونا وذلك آية
لا تقبل التأويل والتعليلا

ورأت لك الأحبار والرهبان فى
التوراة وصفا طابق الإنجيلا

واستبشروا بك إذ ظهرت وبشروا
إلا قليلا حرفوا ما قيلا

واسترضعتك حليمة فرأت من الـ
بركات ما أغنى أخا وخليلا

وبيُمْن وجهك صد خالقك العدا
عن بيت كعبته ورد الفيلا

ولقد رأى الغلمان جبريل الذى
شق الفؤاد ورده مغسولا

ونشأت يستسقى بغرتك الحيا
وفضلت بالصدق الورى تفضيلا

ورأى بُحَيْرا ركب مكة فوقهم
ظل الغمامة يشبه الإكليلا

وأضافهم ليرى الغمامة فوق من
نشأت ويسبر وضعه المنقولا

وراك والأشجار حولك سجدا

لك حيث ملت تفيأت تميلا

وجلاك أوصافا وشاهد خاتما

لك ثم فاز بلثمه تقبيلا

وأسر للعم الجليل بأن لابـ

ـن أخيك شأنا فى الوجود جليلا

فاحذر عليه من اليهود فإنهم

إن يقدروا يوما عليه اغتيلا

وإلى جانب هذه الكثافة فى حس الشاعر إزاء المعجم الإسلامى تنطلق مادة الصوفية قريبا منه أيضا، وخاصة حين يزداد انتشار فرق الصوفية وقد اهتم بهم صلاح الدين حين أنشأ لهم الزوايا والخوانق فكثرت لديهم المؤثرات من قبل محيى الدين بن عربى ، وظهر بمصر آنذاك ابن الفارض ، كما ظهر ابن الكيزانى وكان شاعرا صوفيا بمصر شغله الحديث عن الحب الإلهى على طريقة رابعة العدوية وهو الاتجاه الذى تردد فى شعر ذى النون المصرى ، وفيه برزت العاطفة الدينية واضحة ، كما بدت قريبة من المعجم الإسلامى طالما ظلت قريبة من عالم الزهاد على نحو الحث على الزهد وضرورة مجاهدة النفس فى قول الشاعر :

جهاد النفس مفترض فخذها

بآداب القناعة والزهادة

فإن جنحت لذلك واستجابت

وخالفت الهوى فهو الإرادة

وإن جمحت بها الشهوات فاكبح

شكيمتها بمعمعة العبادة

عساك تحلها درج المعالى

وترفعها إلى رتب السعادة

أو الدعوة الدائمة إلى الورع وتقوى الله فى ذلك السلوك الدينى القويم :

النفس أكــــرم مــــوضــــعــــا	مـــن أن تـــدنـــس بـــالـــذنـــوب
مـــــا لذة الدنيـــــا لهـــــا	ثـمـنـا وإن مـــــــزجـت بطـيـب
فـــــاســـــبق إلى إعـــداد زاد	ك هـجـــمـــــة الأجل القـــريـب
والـق الإلـه عـلـى الـتـــــــقـى	والخـــوف مـــزرور الجـيـــوب

ويظل الفرق فاصلا بين هذه المعانى فى عالم الزهاد والمتصوفة وبين انصراف الصوفية إلى مصطلحاتهم الخاصة التى مثلت معجما لها متميزا شغلتهم فيه وحدة الوجود ، أو العاطفة المعلقة بالرمز والإشارة أو نظرية النور المحمدى أو فكرة الإمام والقطب أو العلم الباطن أو القول بالنبوة الروحية أو الأنوار أو المشاهدة الإلهية أو الفناء والاتحاد مع الذات الإلهية ، إلى غير ذلك مما يمس معجم الصوفية بكل سماته وملامحه الخاصة .

وبذا يظل الطابع الغالب على المعجم الإسلامى إلى عصر الحروب الصليبية بارزا من خلال تلك العاطفة الدينية المشبوبة وهى تعكس مشاعر المسلمين إزاء الأحداث الكبار من حولهم وتصورها من خلال المادة الإسلامية التى تمتد إلى معانى الآيات القرآنية الكريمة إلى القصص القرآنى وغير ذلك من منطق الحس الإسلامى العام الذى تدفق فى نفوس شعراء العصر جميعا إزاء معركة الإسلام مع الشرك .



خــاتمــة

ويظل خط التطور واضحا بما يسم المعجم الإسلامي في كل عصر على حدة بسمات محددة مثلت طابعا خاصا به ، وقاسما مشتركا بين شعرائه لتظل هذه الملامح في مجملها بمثابة رصد لتطور حركة الفكر في المجتمع العربي منذ بدت بسيطة غير مذهبية ، فكانت إزاء وضوح المصدر وبيانه دعوة إلى نشر العقيدة والدفاع عنها ، وتسجيل غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوظيف الموضوعات التقليدية بما يخدم الدعوة في أبواب الهجاء أو الرثاء أو المدح أو ما أضيف إليها من موضوعات جديدة في إطار الزهد والدعوة إلى الإسلام والوعظ والإرشاد ، إذ تظل دواوين شعراء العصر شاهدا أمينا على كثافة التأثر من هذه الزاوية وهو ما انعكس بدوره في طبيعة الإفادة من المادة الإسلامية بلا مواراة ولا تحول، فإذا بالشاعر ينزع مباشرة إلى مصدره القرآني أو الحديثي لينتزع منه معنى يضمنه شعره أو اقتباسا يتناوله ، أو يتخذ من السنة الفعلية مادة يزين بها شعره ويتخذها محورا من محاور معجمه .

أضف إلى هذا أن معجم هذا الجيل بدا مرهونا بسلوك معين لم يشأ الشاعر المسلم تجاوزه فكان يرهن فلسفة لسانه برد العدوان لا المبادأة به ، وكأنه حين يهدد ويتوعد فهو يتمنى في أعماقه ألا تفتح نيران المعركة بينه وبين خصومه على لغة حسان في قوله في خاتم هجائيته الهمزية لأبي سفيان :

لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

أما وأن المعركة الهجائية قد تقع من خلال الخصم البادئ بالعدوان ، فلا يبقى ثمة مجال للتردد للشاعر المسلم الذي التزم في حدود الخلق الإسلامي بهذا الرد، وذلك التبني للموقف الديني حتى لو بدا هجائيا على الضرورة طالما افتقد عنصر المبادأة وهو ما رصده قول حسان أيضا لأبي سفيان وكأنه يحمله تبعة ما سيلقاه من هجائه وخاصة أنه لا ينتظر ثوابا عليه ولا شكورا إلا من خالقه لا من ممدوحه صلى الله عليه وسلم :

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

وبذا بدت الروح الإسلامية واضحة وضوح الأحكام الشرعية ، صافية صفاء المصدر الذى نأى بها عن الفلسفة أو التعقيد أو الصراع والانقسام الذى طغى على فكر الشعراء في عصر بنى أمية، وهو ما مثل ضربا من الإضافة والتغاير يتسق مع إيقاع العصر الجديد ، إذ بدا المعجم شديد الاتساق بفكر الشاعر ومنهج تعبيره ولغة عصره التي شهدت قسمة واضحة إلى ثمان من الفرق على المستويين الدينى والسياسى ، وكلا الاتجاهين يأخذ من المعجم الإسلامى بما يفى بحاجاته من الإقناع والبراهين ، ولا تكاد كلمة سياسى هنا تحجب شيئا من حجم المؤثر الإسلامى الذى سعى شعراء الأحزاب إلى توظيفه في الإقناع بنظريات أحزابهم على نحو ما صنع شعراء الشيعة أو الخوارج أو الزبيريين ، إلى جانب شعراء الحزب الأموى الحاكم .

وتعكس الصورة التعددية المتصارعة للفكر أبعادها على جماليات الصياغة لدى الشعراء إذ يبدو المعجم الإسلامى شديد الدلالة على رغبة الشاعر فى اجتذاب جمهوره وإقناعه والسيطرة على مشاعره ، في مقابل ذلك الالتزام الحضارى الذى يشبع من خلاله حسه التجديدى الذى يصور انعكاسات الحياة الجديدة على مشاعره ووجدانه من ناحية ، وعلى فكره وعقله من ناحية أخرى .

وهنا تتقارب صورة المعجم ومادته مع معجم شعراء عصر صدر الإسلام وتختلف عنها أيضا ، إذ لا يكاد التقارب يتجاوز وحدة المصادر التى ينهل منها الشعراء ، حتى إذا ما شغلوا بإيقاع الحياة الجديدة طوعوا المادة الموروثة إلى حيث يشاءون ، وأولوا الآيات القرآنية بما يتسق والمذهب أو النظرية التى ينتمون إليها على أى من المستويات السياسية أو الدينية، وكان هذا منطق الشاعر الشيعى مثلا أو الزبيرى فى التزامه بقضايا حزبه ، وكذا شاعر الفرقة الدينية سواء انطلق من عباءة فرقته صراحة ، أو توقف بشعره عند مجرد التأثر بأفكارها بين إرجاء وجبر واعتزال وقدرية ، إذ تظل السمات الفارقة بين الشعراء واردة حول تناولهم لهذا الفكر المذهبى فى الترويج له كفكر ، وبين توظيفه المعتمد فى خدمة النظرية السياسية خاصة من عمد من شعراء الخلافة إلى الترويج لمذهب الجبرية لا لمجرد اقتناعه به ، أو تبرير مسلكه ، بل لتبرير حتمية الحكم فى البيت الحاكم وشخص الخليفة الممدوح ، وهو ضرب من التأويل المقصود لذاته من قبل الشاعر دعما لموقفه أو لنظريته السياسية .

من هنا غلب على المعجم الإسلامى لدى الشعراء هذا الاتجاه إلى ضروب من زحام المادة ، تعكس - بدورها - زحام الفكر ، وصيغ الجدل ، وصراعات المذاهب ، وتنافر الأفكار ، وانقسام الشعراء ، بل حتى انقسام الشاعر الواحد على نفسه ، وربما الاعتراف بذلك على طريقة شعراء الشيعة فى الأخذ بالتقية أمام السلطان ، أو حتى تحول بعض الشعراء بين المذاهب إذا أخذنا بتحول كثير حينا إلى بلاط الخلافة رغم تشيعه ، وكذا عبيد الله بن قيس الرقيات إلى الخليفة رغم زبيريته ، أو تحول الفرزدق حينا إلى التشيع على الرغم من أمويته السياسية .

وبذا يبدو المعجم الإسلامى بمثابة كشف دقيق عن إيقاع الحياة الأموية سواء فيما تعلق بالاضافات التى صنعها الشعراء حول الموضوعات القديمة حتى تحول شعر المدح إلى مدح وسياسة أو إلى شعر سياسى ، وتحول الهجاء إلى نقائض، وتحول الغزل من مجرد مقدمات إلى قصائد كاملة ودواوين متخصصة فيه لا تكاد تتجاوزه ، ومعها تندفع عناصر التجديد بما يشف عن طبيعة الحياة الأموية حضاريا وسياسيا وفكريا وهو ما احتواه تحول المعجم لدى الشعراء .

وإذا بمنطقة التكفير والاتهام الدينى تتزاحم وتكثف فى قصائد الشعراء فى ظل الصراعات الدامية بين الفرق السياسية أو الدينية ، وإذا هذه الكثافة تزداد دلالة وعمقا مع تبلور مدرسة الزهد الإسلامى التى برع زعماؤها فى التأصيل لها حتى انقسم عليهم فريق من تلاميذهم على نحو ما كان من موقف واصل بن عطاء من مجلس الحسن البصرى وبداية تبلور مذهب المعتزلة .

وتبدو سمة المرونة والتطور أساسا فى رؤية هذا المعجم على مدار تطور الحركة الأدبية ذاتها ، فإذا بشعراء العصر العباسى ينهلون منه فى أطر أخرى متميزة تميز العصر ذاته ، وخاصة منه ما عرض فى إطار الحروب والمعارك على مناطق الثغور الإسلامية والتى أحالها الشعراء إلى صراعات بين الإسلام والشرك ، وحولها حقق الشعراء كثافة ملحوظة للمادة الإسلامية المطروحة فى شعرهم ، صحيح أن المصادر ظلت متشابهة لا خلاف فى ذلك - فالشعائر هى الشعائر ، والعبادات هى العبادات ، ولكن توظيف المادة المتضمنة هو الذى سيتحول فى أصول المعالجة بما يكفى لتغطية الأحداث الجسام على المستوى السياسى فى صراع المسلمين مع الروم بصفة خاصة ،وكأنه التوظيف البديل لصراعات الأحزاب فى الجيل السابق . فإذا ما انتقلت إلى المستوى حول

مواكبة تيارات الحضارة بما يكفى للترويج لمذهب ما فى ظلالها ، على غرار ما كان لدى المرجئة بصفة خاصة حين أحالوا مذهبهم إلى صورة اجتماعية أخلاقية أكثر من استمراريتها فى إطارها الدينى ، فقد تحول أصحاب المذهب به إلى إباحة ضروب من الفوضى الأخلاقية تحت مسمى الإرجاء أو العفوية أو تأويل الآيات القرآنية ، ومن هنا كثر أتباعه من الشعراء ، وهم أكثر فئات المجتمع ميلا إلى هذا الانحلال الأخلاقى الذى أشبعوا من خلاله تجاربهم تصويرا وعرضا .

وتبقى اللغة الحماسية أساسا بارزا فى حركة الشعر ، أو حتى فى تصانيف الشعراء فى الحماسات بمثابة سمة جديدة تطرح نفسها على العصر وشعرائه ومعجمه جميعا ، وهى اللغة المنقولة بعد ذلك بحكم التأثر وامتداد الفن إلى شعراء الحروب الصليبية ممن عارضوا الشعراء العباسيين طبقا لتشابه الأطر الحربية فى المعارك التى طال مداها وتعددت أبياتها بين المجتمع الإسلامى فى مصر والشام وبين الصليبيين ، الأمر الذى انعكس فى معجم الشعراء لذلك العصر ، وامتد تأثيرها فيما بعده لدى شعراء المدائح بصفة خاصة .



مصادر ومراجع

(أ) مصادر :

١ – الآمدى : الموازنة بين الطائيين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٠.

٢ – ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧.

٣ – الأخطل : شعر الأخطل ، تحقيق فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩.

٤ – أسامة بن منقذ : ديوانه، تحقيق أحمد أحمد أحمد بدوى وحامد عبدالحميد ، نشر وزارة المعارف ، مصر ١٩٥٣.

٥ – البحترى : ديوانه تحقيق حسن كامل الصيرفي ، المعارف ، القاهرة ١٩٧٢.

٦ – بشار بن برد : ديوانه شرح محمد الطاهر بن عاشور ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٥٠.

٧ – البغدادى : الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٣٢٨هـ.

٨ – البهاء زهير : ديوانه ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم وطاهر الجبلاوى ، دار المعارف ، القاهرة.

٩ – أبو تمام : ديوانه ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، القاهرة .

١٠– الثعالبى : يتيمة الدهر ت محمد مفيد قميحة ، دار الكتب ، بيروت ١٩٧٣.

١١– الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٧٥.

١٢– جرير : ديوانه ، تحقيق نعمان طه ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩.

١٣– جميل : ديوانه تحقيق حسين نصار ، نهضة مصر ١٩٦٧.

١٤– حسان بن ثابت : ديوانه تحقيق سيد حنفى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣.

١٥- الحطيئة : ديوانه ، تحقيق نعمان طه ، القاهرة ١٩٥٨.

١٦- الخالديان : الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين فى الجاهلية والمخضرمين ت محمد السيد يوسف ، لجنة التأليف ١٩٥٨.

١٧- ابن خلدون : المقدمة ، دار القلم - بيروت ١٩٨٦.

١٨- الراعى النميرى : ديوانه ، جمع وتحقيق رانيهرت قليبرت بيروت ١٩٨٠.

١٩- ابن الساعاتى : ديوانه ، تحقيق ونشر أنيس المقدسى ، بيروت ، الجامعة الأمريكية ١٩٣٨.

٢٠- ابن سناء الملك : ديوانه ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٩.

٢١- السيد الحميرى : ديوانه ، دار صادر - بيروت.

٢٢- الشريف الرضى : ديوانه ، دار صادر - بيروت .

٢٣ - الشهر ستانى : الملل والنحل ، تخريج محمد بن فتح الله بدران ، الأنجلو المصرية ١٩٥٦.

٢٤- أبو الشيص : ديوانه ، دار صادر - بيروت .

٢٥- الصنوبرى : ديوانه ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

٢٦- الطرماح : ديوانه ، تحقيق كرنكو - لندن ١٩٢٧.

٢٧- عبدالله بن رواحة : ديوانه ، د . ت .

٢٨- ابن عبد ربه : العقد الفريد ت محمد مفيد قميحة ، دار الكتب ١٩٨٧.

٢٩- أبو العتاهية : ديوانه ، دار الكتب العلمية - بيروت .

٣٠- أبو على القالى : الأمالى ، مراجعة لجنة إحياء التراث ، دار الآفاق ١٩٨٧.

٣١- العماد الأصفهانى : خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، تحقيق أحمد أمين وآخرين، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٢.

٣٢- عمر بن أبى ربيعة : ديوان عمر، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، دارالأندلس.

٣٣- الفرزدق : ديوانه ، جمع وتعليق عبدالله الأنصارى ، المكتبة التجارية ١٩٣٦.

٣٤- ابن قتيبة : عيون الأخبار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٦.

٣٥- ابن قتيبة : تاريخ الخلفاء أو السياسة والإمامة ، مؤسسة الوفاء .

٣٦- ابن قيس الرقيات : ديوانه ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت .

٣٧- كثير بن أحمد الخزاعي : ديوانه ، نشر بيرس - الجزائر.

٣٨- كعب بن مالك الانصارى : ديوانه ، د . ت.

٣٩- الكميت بن زيد الأسدى : الهاشميات ، نشر هوروفتر ، ليدن ١٩٠٨.

٤٠- المبرد : الكامل فى اللغة والأدب ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم والسيد شحاته، نهضة مصر ، القاهرة .

٤١- المتنبى : ديوانه ، تحقيق عبدالرحمن البرقوقى - بيروت ١٩٧٠.

٤٢- مروان بن أبى حفصة : ديوانه ، د . ت .

٤٣- المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق يوسف داغر ، بيروت ١٩٧٣.

٤٤- مسلم بن الوليد : ديوانه تحقيق سامي الدهان ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩.

٤٥- المقدسى : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، دار الجيل ، بيروت د . ت .

٤٦- نصر بن مزاحم : وقعة صفين ، دار إحياء الكتب العربية ، الحلبى ، القاهرة ١٣٦٥هـ.

٤٧- أبو نواس : ديوانه تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي ، بيروت ١٩٥٣.

٤٨- ابن هشام : السيرة النبوية ، تقديم طه عبدالرؤوف سعد ، مطبعة ابن شقرون .

٤٩- أبو هلال العسكرى : ديوان المعانى ، القدسى ، القاهرة .

٥٠- ياقوت : معجم الأدباء ، بيروت ١٩٨٦.

(ب) مراجع :

(١) - د/ إبراهيم عبدالرحمن وعفت الشرقاوى : دراسات عربية (الشعر ، القصة ، التاريخ) مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٧.

(٢) - د/ أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٨.

(٣) - د/ أحمد أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، نهضة مصر ١٩٧٩.

(٤) - د/ أحمد أحمد بدوى : البحترى ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٠.

(٥) - أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الإسلام - المعارف .

(٦) - أحمد أمين : فيض الخاطر ، النهضة المصرية ، د . ت.

(٧) - د/ بهى الدين زيان : الغزالى ولمحات الحياة الفكرية الإسلامية ، نهضة مصر ١٩٨٥.

(٨) - أبو الحسن الندوى : السيرة النبوية ، دار الشروق ١٩٨٣.

(٩) - د/ خليل شرف الدين : أبو العتاهية ، دار مكتبة الهلال . بيروت .

(١٠) - د/ سعود محمد عبدالجابر : شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٧.

(١١) - د/ سعيد حسين منصور : حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام ، دار القلم ، الكويت ١٩٨١.

(١٢) - د/ سهيل زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، القاهرة د.ت دار الفكر ، بيروت ١٩٧٣.

(١٣) - د/ السيد تقى الدين : الأدب والحضارة ، نهضة مصر الفجالة .

(١٤) - د/ السيد عبدالقادر عويضة : أثر الإسلام فى الشعر فى عصر الرسول والراشدين ، مطبعة الأمانة ١٩٨٧.

(١٥) - د/ زكى مبارك : المدائح النبوية فى الأدب العربى ، الشعب ١٩٧١.

(١٦) – د/ زكى المحاسنى : شعر الحرب فى أدب العرب، دار المعارف ١٩٧٠.

(١٧) – عباس العقاد : مجموعة أعلام الشعر ، دار الكتاب العربى – بيروت ١٩٧٠.

(١٨) – عباس العقاد : الحسن بن هانئ ، الهلال .

(١٩) – د/ عبدالستار السيد متولى : أدب الزهد فى العصر العباسى ، نشأته وتطوره وأشهر رجاله ، الهيئة المصرية العامة ١٩٨٤.

(٢٠) – د/ عبدالرحمن إبراهيم : دور الشعر فى معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر .

(٢١) – د/ عبدالعليم حفنى : الشعراء المخضرمون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

(٢٢) – د/ عبدالمنعم أحمد يونس : كعب بن مالك الأنصارى ، الأمانة ١٩٨٦.

(٢٣) – د/ فلهوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة محمد عبدالهادى أبى ريدة ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة .

(٢٤) – كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ت نبيه فارس ومنير البعلبكى ، دار العلم ١٩٤٨.

(٢٥) – كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ت عبدالحليم النجار ، المعارف .

(٢٦) – محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبى ، دار المعارف ١٩٦٨.

(٢٧) – د/ مؤيد فاضل ملا رشيد : شبهات حول العصر العباسى الأول ، دار الوفاء ١٩٨٦.

(٢٨) – د/ محمد زكى العشماوى : موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى، النهضة العربية – بيروت ١٩٨١.

(٢٩) – د/ محمد سيد كيلانى : الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام طرابلس – ١٩٨٤.

(٣٠) – محمد عبدالباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية ، القاهرة.

(٣١) – د/ محمد عبدالعزيز الكفراوى : أسطورة الزهد عند أبى العتاهية ، نهضة مصر ١٩٧٢.

(٣٢) – د/ محمد على الهرفى : شعر الجهاد فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، الشركة المتحدة للتوزيع ، سوريا .

(٣٣) – د/ محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، دار الفكر ، القاهرة.

(٣٤) – محمد محمود على : الإسلام والحضارة العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٩.

(٣٥) – د/ محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، الهيئة المصرية، ١٩٧٠.

(٣٦) – د/ محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض سلطان العاشقين ، المؤسسة المصرية، ١٩٦٣.

(٣٧) – د/ نورى القيسى : شعراء إسلاميون ، النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١.



الفهرس



رقم الإيداع ٢٤٥٠/ ٩٨
I. S. B. N. 977 - 215 - 282 - 7

